Mngool.com

حياة
الإمام ابن قيم الجوزية

تأليف
محمد مسلم الغنيمي

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى روح من نحن بسبيل ترجمته ، وجلاء شخصيته ، علم الاعلام وشيخ الاسلام ، الحافظ ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، الذي حبب الي بمطالعتي لكتابه ((روضة المحبين)) الدراسة والمطالعة وطلب العلم .

ثم الى روح أكرم شيوخي عليّ وأفضلهم لديّ ، علامة الشام فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار ، من نهلت من علمه وعللت قرابة نصف قرن ، جعل الله الفردوس منزله ، واكرم نزله ، وعوض المسلمين عنه خيراً .

ثم الى روح أحب أساتذتي الى نفسي وأقربهم الى روحي، الفقيد الغاليالاستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين ، جعل الله أسمى الجنان مأواه ، وأكرم مثواه بمنه وكرمه .

مسلم الغنيمي

تقـــديم

بقلم
القاضي سعدي أبو جيب

رجل الفكر والاصلاح في أمتي مسكين مسكين • • يحرق روحه ليضيء لمن حوله درب الحياة المدلهم ، فلا ينال من العامة إلا الظلم والطغيان ، وألف نعت سوء يعلق باسمه ، وحظه من سيده السلطـــان ألف سوط يزين منه الظهر والصدر ، وأيامـــاً يقضيها في نعيم أقبية السجن • وقد يكون السيد محسناً مفضالاً فيأمر بأن تأكل الطير من رأسه •

ويظن المسكين أن الظلم قـــد انتهى ، وأن الاجيال القادمة لا بد أن تنصفه ، فاذا بها ، واحسرتاه ، تشيح الطرف عن سيرته ، وعن آثاره ، وقد كان من الواجب عليهـــا أن تنصفه ، لو عرفت الواجب •

وما هكذا تفعل الامم بعباقرتها • • إنهـــا تكرمهم أحياء ، وتعظمهم أمواتـــاً ، لأنها تعتبر كل واحد منهم هديـــة سامية من العناية الإلهية •

وإني لأترقب من أمتي أن تعيد لأهل الفكر اعتبارهم . وتنفض عن آثارهم تراب السنين . وتحيي سيرتهم . حتى يكونوا ترنيمة على كل لسان وخفقة في كل جنان . وتلك أول خطوة على درب النهضة والمجد .

واحد من هؤلاء أذكره . ونحن نظن أننا كتبنا عنه الكثير . ولكن هيهات . . فشخصيته لم تسبر أغوارها بعد . وآثاره ما تزال تتلهف الى الدرس والبحث . .

إنه شيخ الاسلام العلامة ابن تيمية . .
قالوا عنه ما قالوا . . وما خطر ببال أحد أن يدرس ابن تيمية كرجل من رجال الفكر السياسي في أمتي . .

ونحن نعتقد أنه رجل من الطراز الأول في هذا الميدان . فقد عمل في دنيا السياسة عمره . وليس بعيدا ـ في نظرنا ـ أن تكون دعوته الى السلفية دعوة الى فكر سياسي اسلامي . . وإليكم التفصيل . .

دعا ابن تيمية الى عقيدة السلف ، والوقوف عند نصوص الكتاب والسنة . وما كان عليه الصحابة الكرام . وأوتي الصبر والجلد على تلك الدعوة ومقارعة كل من خالفها من أهل العلم والتصوف ، ومن أتباع الفرق الضالة التي ترعرعت في المجتمع الاسلامي ، فضلا عن أهل الكتاب والفلسفة .

هو وحــده ، وهؤلاء خصومه ، ومــا أكثرهم وأعتاهم . وعليه أن يجابه كل فئة بسلاح خاص بها ••• وقد استطاع أن يترك في ذلك المجتمع بليغ الاثر ، وأن يهزه بعنف حجته ، وقوة شكيمته . وفيض علمه •

وفي دعوته تلك كــان يهدف الى تخليص أمته مما علق في فكرها الــديني من زغــل وشوائب تسربت اليــه من الفلسفه اليونانية الوثنية ، ومن فلسفات ذات جذور تمتــد الى ديانات ومذاهب كانت لأمم قبل الاسلام ، ولــم تطهر أدمغة أتباعها من أدناسها ، رغم اعتناقهم للدين الحنيف • •

وكان في سبيل بلوغ هدفــه الاسمى يثير مشاعر الأمة . ويشدها الى مشعل الهدى والخير ، الذي حمله الصحابة الافذاد ورعوه حق رعايته ، وسلموه أمانة عزيزة الى التابعين • • ثم بعد ذلك لــم نعد نجد له أثراً يذكــر • • لقــد لف نوره ضباب الانحراف والضلال •

حتى اذا تعلقت الأفئدة بذلك النور الحق اندفعت الامــة تشق طريقها الجديد محاولة اعادة مجد السلف وعظمة الاجداد ، في دولة جديدة محررة من دخيل الفكر ودخيل البشر •

ولذلك رأينا شيخ الاسلام مجاهدا في سبيل تلك الدعوة

بفكره . ومجاهدا بنفسه يحمل السلاح ليخوض الحرب مطهراً أرض وطنه من رجس التتر الغزاة . . ولعله ، وهو في ساحة الوغى . كان يدرك عمق الالتحام بين تحرير الارض وتحرير الفكر . . فما أروع الجهاد في سبيل هذا وذاك . . لأنه لا خير في فكر حر في وطن مستعبد ، ولا وجود لأرض حرة اذا كان من يدب عليها عبيدا في الرأي والفكر ..

فاذا تم له ما أراد سطعت الشمس من جديد على دولة جديدة لا أبهى ولا أعظم ..

ولعل ابن تيمية كان يذهب الى أن العرب هم قلب تلك الدولة ، وأن المسلمين من غيرهم هم الحواشي والاطراف .

ولذلك فانه يتحفنا بتعريف للعربي وللعروبة .. فالعربي عنده : هو من كان لسانه باللغة العربية ، ومن كان من أصل عربي . ومن كان مسكنه في أرض العرب . والعروبة عنده تثبت باللغة ، وبالنسب ، وبالوطن (١) ...

---

(١) اقرأ ــ إذا شئت ــ تفصيل هذه النظرية محاضرة استاذنا الكبير العلامة السيد محمد المنتصر الكتاني ، وهي بعنوان : (العروبة عند ابن تيمية) وهي منشورة في كتابه : فتية طارق والغافقي . نشر دار ادريس ــ بيروت سنة ١٩٧٢ .
ولعل استاذنا الجليل أول من تطرق الى هذا البحث .

مفهوم فريد للقومية العربية ، في عصر لم يعد فيه للعرب دولة ، وعلى أرضهم انساح المد الشعوبي ، وجحافل جرارة من التتر والصليبيين تعيث في الارض المباركة فسادا ..

وضع شيخ الاسلام هذا المبدأ ، لا للرفاه الفكري ، وانما ليكون قلبا للاطار السياسي الذي كان يرسمه لدولة المستقبل ، ذات المجد المتألق والسيادة الخالدة .

هذا جانب من الفكر السياسي عند ابن تيمية .. ولو رحنا تنقب في آثاره الرائعة لوجدنا كل أبعاد ذلك الفكر ..

ألم أقل لكم إن في آثار هـذا الامام العظيم ما يدهش ، وهو مغيب عنا لم نشمر عن ساعد الجد بعد لإحياء فكره .

وما أعظم ذلـك اليوم الـذي نشهد فيه ميـلاد جمعية تسمى (جمعية ابن تيمية) تحمل على عاتقها هذه المهمة (١) .

إنه اذن يوم خالد من أيام هذه الامة الخالدة .

---

(١) لقـد أنشأ المستشرقون في المـانيـا جمعية تحمل اسم (جمعية محمد بن الحسن الشيباني ــ للحقوق الدولية) ترمي الى احياء تراث هـذا الامام العظيم في ميدان الحقوق الدولية ، لأنـه وضع أسس تلك الحقوق يوم كان الغرب يرزح تحت ديجور الجهل والتخلف .. فتأمل .

وابن القيم واحد من قبيل طويل من رجال الفكر والعلم والاصلاح لا يعرفه إلا طبقة أهل العلم ..

أما الناس ، سواد الامة ، فلا يدرون على أي أرض كان يمشي . ولا في أي زمان كان يعيش ..

وعذرهم أننا لم نكتب لهم عن أعلام أمتهم بلغة حبيبة الى نفوسهم وقلوبهم ..

وفي سبيل أداء هذه الرسالة قدم صديقنا الكبير وعالمنا العامل فضيلة الشيخ مسلم الغنيمي ، سفره النفيس عن شيخ الاسلام ابن القيم هدية لأمته ، يعرفها فيه بعصره ، وبسيرته . وببعض آثاره .

وكانت خطة المؤلف أن يأخذنا الى رياض ابن القيم ، واصفاً أبرزها ، منتقيا بعض ورودها مع شرح يليق بها وتحليل ..

ولم يكن في خلال شرحه بالذي يخفي نفسه ، بل كان يكسو النص الذي يعرض من سعة علمه وغزير أدبه وثاقب فكره ..

حين تحدث عن عصر ابن القيم المفعم بالحوادث والنوازل التي دهت هذه الامة، في هجمة الوحشية والهمجية والاستعمار، في حروب سموها ، سترا لحقيقتها . بالحروب الصليبية ، لم

يتركنا المؤلف وحدنا نسيح في زمن ولى وغبر . بل ذكرنا بواقعنا المر في اثارة للمشاعر يقتضيها المقام (١) .

وأنى له أن يغفل عن ذلك ، وهو الذي أعرفه من أشد الناس تألماً لما يصيب الناس . لا في بلده . ولا في دنيا قومه العرب فحسب ، بل في كل العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ..

فحين يذبح مئة ألف من العرب والمسلمين في زنجبار تحت سمع العرب والمسلمين في كل الدنيا ، وحين يصب الطغاة الكفرة جام غضبهم على الفئة المسلمة في الهند والحبشة ونيجيريا والفيليبين وفي بقاع أخرى من هذا الكوكب .. وحين يجري ما يجري في قضية الارض المقدسة فلسطين .. حين يسمع صديقنا المؤلف بكل ذلك يكاد الالم يعتصر قلبه ويهد حسه ..

نفس مرهفة ، وحس شفاف ، وقلب لا يريد أن يعيش في هذا الكون مقوقعا على ذاته ، بل يريد أن يتسع ويتسع ليعيش آلام هذه الامة ... انها الشهادة لله ..

وفي حديثه عن عقيدة السلف في ذات الله تعالى وصفاته

---

(١) ص ٣٣ وما بعدها من الكتاب .

يأتي بدليل بسيط وأروع ما فيه هو هذه البساطة (١) •

قال (ان الله سبحانه وتعالى ذكر لنفسه في كتابه ، وذكر له رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فيما نقل عنه في الاحاديث الصحيحة . صفات تتفق من حيث الأسماء فقط مع صفات المخلوقين •

فذكر عن نفسه في كتابه أن له سبحانه وتعالى وجهاً وعيناً ويدين . فقال تعالى : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال : (ولتصنع على عيني)•• وقال : (بل يداه مبسوطتان)•

وذكر له النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الصفات الاصبع والاصابع كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو وحديث جهنم عندما تطلب المزيد . فيضع الجبار قدمه فيها فتقول : قط قط • وفي رواية : قطني قطني ••

ثم قال : من المعلوم البدهي أن الصفات تتبع الذوات وتختلف باختلافها . فالانسان والحيوان والجماد والمعاني ذوات . ولكل ذات منها صفات تلائمها ••

مثاله نقول : وجه الانسان ، وجه الغزال ، وجه السماء ،

---

(٢) ص ٢٣٦ ــ ٢٣٩ من الكتاب .

وجه المسألة .. فالانسان والغزال والسماء والمسألة ذوات ، ولكنها مختلفة الذوات فوجب أن تختلف صفاتها .. فوجه الانسان لا يشابه وجه الغزال ، ووجه السماء لا يشبه وجه المسألة . فاذا تقرر أن الصفات تتبع الذوات وتختلف باختلافها . فان كانت الذات معلومة كانت الصفات معلومة ، وان كانت الذات معنى ، كالمسألة كانت الصفات تابعة لها . فوجهها معنى لا يدرك بالحواس الظاهرة ..

ثم قال : فاذا تقرر لديك ذلك نقول : اننا نؤمن بوجود الله اله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وان ذات الله مجهولة لدينا وقد أمرنا أن نتفكر في آلاء الله ، ونهينا عن أن نتفكر في ذات الله .. كما صح عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاذا كانت الذات الالهية مجهولة لدينا فكذلك كيفية صفاتها مجهولة لدينا . فنحن نؤمن بكل ماورد في صفات الله سواء بكتاب الله عز وجل أم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا كيف ونؤمن بما ورد وصح من المغيبات كالعرش . والكرسي . الذي هو موضع قدم الرب ، وسدرة المنتهى ، والحجب . ونؤمن بصفات الرب سبحانه وتعالى الذاتية كالوجه ، والعين ، واليد ، والقدم ، وصفاته المعنوية كالسمع والبصر والقدرة والعلم والحياة

والرحمـــة والحلم والغضب ولكـــن بلا تكييف ، ولا ننفي عنه سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه من صفات ....

ولقد قرأت الكثير مما استدل به علماء الكلام وغيرهم . فما وجدت دليلا يتسرب بيسر الى صميم النفس . حامــلا اليها القناعة . مثل هذا العرض البسيط ..

وهل تفتح النفس مغاليقها الا بالكلمة الهينة اللينة . ؟ ..

وكم كنت أود أن يناقش المؤلف سبب محنة ابن القيم ، وأن لا يسلم بما تناقله الاسلاف من أنه الفتوى باشتراط المحلل في جعل المسابقة (١) . لأن هذه الفتوى مهما أشبعناها تحليلا لم نعثر فيها على ما يقلق السلطان ويوجب النكال .

ولعل لهــذه المحنة سبباً آخــر ، ربما يمت الى السياسة بنسب ..

والعجيب مــن تلقي الناس عبر القرون ما تناقله العلماء عن أسباب بسيطة ينسبون اليها غضبة السلطان على كبار أهل العلم وساداتهم ..

أبو حنيفة . الامــام الاعظــم . عليه رحمة الله ، حبسه المنصور . الخليفة العباسي . أكثر من مرة .. وقيل في سبب ذلك رفضه لولاية القضاء ..

---

(١) ص ١٠٧ من الكتاب

ونحن نرفض هـذا السبب ؛ ونقول بأن الموقف المناوىء للدولة الذي اتخذه أبو حنيفة ومالك وغيرهما من كبار العلماء ، والمؤيد لحركة محمد ذي النفس الزكية وأخيه ابراهيم ولدي عبد الله بن الحسن المثنى هـو السبب الحقيقي للتنكيل بأبي حنيفة ومالك ..

ومعلوم أن السلطـان قد يتساهل بأمـر الدين وبأمـر المسلمين ويفرط بذلك ولا يبالي . الا أنـه مستعد لسحق كل رأس تخرج من صاحبه همسة تمس عرشه ..

وكم كنت أود لو أن المؤلف الحبيب قـدم لنا تقويـا للعالم الجليل ابن القيم . وناقش ما أورده أهل العلم في وصفه مـن أنه عالم : مفسر . محدث : فقيه مجتهد ، أصولي ، أحاط بكل علوم عصره .. الى آخـر هذه الاوصاف ليعرف مـدى واقعيتها . أم أنها المنقبية التي ألصقت بكل أهل العلم ..

ونحن نعتقد أن ابن القيم عليه رحمة الله تعالى كـان في كل ذلـك مثل العديد من علمائنا ، ولـم يكن مبرزاً في كل فن مثل جهابذة ذلك الفن ..

الا أن له في نظرنا مزية لا يجاريه فيها الا قلة قليلة مـن أهل العلم .. وقد يجيىء في ذروة الذروة من هـذه القلة .. فقد أوتي عقـلا منظما ، منسقا فريدا . وفي كل ما كتبه

نجد الدليل على ذلك .. حتى مع خصومه في الرأي والفكر تراه يعرض حججهم المؤيدة لرأيهم بصدق ودقة ونظام ومنطق ، وربما زاد في تلك الادلة ما لم يكن يخطر ببال الخصوم أنفسهم .. وانك لو حاولت أن تبحث عن أكثر مما استدل به لأعياك .. وحتى يخيل اليك أن الحق الذي لا يدحض هو ما عليه هؤلاء ..

وحين يبين رأيه يفند تلك البراهين بروية وأناة ، وما هو الا القليل حتى ترى الصرح الذي بناه لدعم أقوال خصومه ينهار ، كأن لم يغن بالامس .

هو في ذلك بين العلماء كابن الرومي بين الشعراء .. فابن الرومي اذا التقط صورة راح يصف كل دقيقة فيها ، ولا يترك زيادة لمستزيد .. فلو أردت أن تفتش عن زاوية منها ، ولو مهملة ، لتصفها ، لوجدته قد سبقك الى ما تريد . وهذا العقل الفريد هو الذي خدم فكر ابن تيمية وتراثه خدمة عظيمة ..

ولكي يظهر لنا ذلك . نقول بأن ابن تيمية كان عبقريا ، نبعا ثرا ، ما عنده غير اللؤلؤ ينثره ذات اليمين وذات الشمال ، في بعثرة عز نظيرها .. حتى اذا حاولت أن تصل الى الدرة المطلوبة نفد منك الصبر ، أو كاد ..

أما ابن القيم فقد أخذ الابرة أخذ الحكيم ، وراح ينظم درر شيخه ، الواحدة الى جانب شقيقتها ، لا غربة ولا وحشة في عقود هي آية الابداع والفن ، معروضة بترتيب عبقري بهر أعين الناس فقالوا : ما أعظم ابن القيم .. وجاء البعض فقال : هو تلميذ لشيخ الاسلام ابن تيمية .. فراحوا بعدهـا يبحثون عما تركه الشيخ وينقبون ...

كان هذا هو الدور الذي قام به ابن القيم في خدمة علم شيخ الاسلام ابن تيمية .. وأكرم بها من خدمة ..

قلت : كم كنت أود أن يستوفي المؤلف كل هذا .. ولكنه قطع علي ما كنت أود حين أعلن أنه يقدم كتابه للجمهور يعرفهم فيه بامامهم الكبير وبآثاره القيمة ..

وهو في اطـار ما أعلنه ملتزم غايـة الالتزام ، وقد أدى رسالته علـى خير ما يرام .. فكـان في ذلـك فضله وفضل كتابـه ...

بيد أن ما كنت أوده لا بد من استدراكه في مؤلف جديد كما وعد الكاتب الصديق ..

وبعـد :

اننا نترقب ذلـك اليوم الذي تكون فيه آثار علماء هذه

الامة ، ورجال الفكـــر فيها ، زينة كل عقل ، وتكون سيرتهم العطرة ترنيمة كل لسان ..

وفي ذلك فليعمل العاملون ..

وبالله المستعان .

سعدي أبو جيب

المقدمة

الحمد لله حمدا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، حمداً يليق بجلاله عدد كماله . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وامام المرسلين . اللهم صل وسلم وبارك عليه صلاة ترضيك وترضى بها عنا .

ربنا افتح لنا أبواب رحمتك . وسهل لنا مقاصدنا . وهيّء لنا من أمرنا رشدا .

وبعد فقد اطلعت في مطلع حياتي على كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين . للامام الحافظ ــ ابن القيم ــ فأعجبت به غاية العجب وحل في نفسي المحل الاسنى ، ولم يحظ كتاب عندي ما حظي به هذا السفر النفيس ، ولئن كنت آنذاك أدرس الفقه واللغة والتفسير والحديث ومصطلحه ، لأكون فيما بعد إماماً وخطيباً ومدرسا أسوة بأسلافي ، كنت ميالا في طبعي للأدب بكل أفنانه شعراً وقصصاً

ونثرا ، ومقالات ومساجلات وفكاهات ونوادر ، وقد أدرك أفضل شيوخي الاستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين ميلي نحو هذا الاتجاه فكان يذكي في نفسي حب الادب، ويعمق جذوره ؛ وكان ــ مد الله في حياته ــ [1] أديب النفس والدرس ــ وقد خصص لنا في منهاجه ساعات لقراءة أمهات كتب الادب القديم ، وساعات لمطالعة كتب الادب الحديث، وكان رائده آنذاك المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي • فكان يملي علينا المقال تلو المقال من نظراته ، وأحيانا يرغمنا على حفظ الجيد منها ــ وكلها جيد ــ ويقرئنا القصة تلو القصة من عبراته ؛ ويدفع الينا الكتاب تلو الكتاب من رواياته ، لهذا طغى علينا اسلوب المنفلوطي في الكتابة لأن حبه خالط اللحم والعظم •

كنت أطوف على المكتبات أبحث عن كتب الادب سواء منها القديم والحديث أشتري ما أستطيع شراءه من نفقتي الخاصة ــ دراهم معدودة ــ حتى تجمع لدي منها عشرات ، وكنت أراها كنزا ثمينا ، وكلما اشتريت كتابا أعرضه على أستاذي الشيخ محمد سعدي لأدخل السرور على نفسه بعملي

---

(١) كان يوم ذاك على قيد الحياة ، وقد انتقل الى رحمته تعالى يوم الاربعاء ١٤ ربيع الآخر عام ١٣٩٦ تغمده الله برحمته وادخله فسيح جنته وعوض الله المسلمين على فقده خيرا .

المبرور ، وجهدي المشكور ، ولآخذ رأيه فيما اقتنيت فيتصفحها ثم يردها الي مشجعاً مثنياً ، وقد أبقى لديه كتابين قائلا : ان هذين الكتابين لا يحسن بك مطالعتهما الآن فعندما تكبر وتدخل في طور الرجولة سأعيدهما اليك، فدهشت لتصرفه وقلت : أليست كتب أدب؟ قال: بلى ولكن الأدب يا بني فنون ، فمنه الرفيع ومنه الوضيع ، وفيها الغث والثمين ، والهزيل والسمين ، كما أن الاحاديث شجون فمن الكلام در منثور ، ومنه بعر منشور .

وقد ردها الي بعد ربع قرن وقد أصبحت كهلا رأيتها والله تكاد تكون كتبا مقدسة اذا قارناها بما نراه بين أيدي الطلاب والطالبات ، والمراهقين والمراهقات ، مما يسمونه الادب المكشوف ، كتباً ومجلات وصور عارين وعاريات يطلقون عليه أدب الجنس .

وقد رأى بعض أوليائي ــ وكنت يتيما آنذاك ــ اتجاهي في هذا السبيل وانصرافي عن مكتبة أسلافي والتي فيها من كتب الفقه الحنفي ما لم تره العيون ؛ ولم يرد ذكره الا في (كشف االظنون) ومعظمها مشترى من تركة المرحوم ابن عابدين صاحب الحاشية ؛ وقد حوت من نفائس المخطوطات نوادرها ، ومعظمها بخطوط مؤلفيها . ولا أزال أذكر وأنا أبحث فيها عن كتب الادب أني عثرت على تفسير للقرآن الكريم نظما بعشر مجلدات ورأيت فيها معجما للغة العربية ؛ اسمه

(السبعة أبحر) بخط فارسي جميل علــى ورق حريري . وقد ذهبت هــذه المكتبة النادرة طعمة لنيران الافرنسيين في أثنــاء ثورة ١٩٢٥ كما ذهب كثير مــن آثار دمشق الخالدة تحف فنية وبيوت أثرية ورجال زماننــا بمثلهم ضنين ولا يزال آثار هــذا العدوان والطغيان شاهد عيان بعد مرور نصف قرن من الزمان.

كتبت هذه الصفحات وأنا أضغط على الجمل . وأشير الى الحوادث من طرف خفي . وأختصر المعاني لئلا يظن أني أترجم لنفسي . ولكن الغايــة من ذلك اعطــاء القارىء صورة عــن الدافع الذي دفعني للكتابة عن ابن القيم الاديب .

فبعــد مطالعتي لروضــة المحبين ارتسم في ذهني صورة لابن القيم كأنــه شيخ الادباء . أو أديب الشيوخ . لانه كتب عن الحب والمحبة والعشق والعشاق ونوادرهم العذريــة بمداد الشرع ولسان الدين . ولغة وأسلوب الادباء ؛ ولم أكن اطلعت له آنذاك عــلى كتاب سواه ؛ وكنت قرأت سابقا طوق الحمامة للامام ابن حزم بجهد عظيم . لأن ابن حزم كتب عن الحب بلغة الفلسفة ، والفلسفــة نتاج العقل . أما الحب فنتــاج العاطفــة والشعور والوجدان وبينهما بون بعيد .

فبعد أن قرأت الكتابين طالبتني نفسي أن أكتب لها مقارنة بين الامامين ابن القيم ، وابن حزم . والرسالتين، روضة المحبين ،

وطوق الحمامة . فكتبت منذ أربعين سنة ما أربى على مائة صفحة ثم طويت ما كتبت كما انطوت أيام الشباب ولكن شغفي بابن القيم جعلني أتتبع آثاره فما ان أعثر على كتاب له حتى أبادر لاقتنائه . وعلمت بعد ذلك أنه تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية فدفعني ذلك لاقتناء كتب الشيخين . ولكني كلما حاولت القراءة لهما وجدت صعوبة في فهمها فشكوت أمري لاستاذي الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار ، وكان مجلسه حافلا بنخبة ممتازة من علماء دمشق الاعلام ، منهم القاضي والمفتي ومن يشار اليه بالبنان . فأجابني أحد القضاة قائلا : يا بني ، لو كان شيخ الاسلام ابن تيمية حاضراً مجلسنا هذا يتكلم لما أدركنا وفهمنا من كلامه سوى عشرين بالمائة ، ثم سكت فلم يعلق أحد من الحاضرين على كلامه بشيء ، وفيهم – والله – علماء من المشرق والمغرب ممن طبقت شهرتهم أرجاء العالم الاسلامي ، وكان هذا عام ١٩٣٣ أي منذ أربعين سنة .

لم يفت هذا التثبيط في عضدي أو يفل من عزمي عن متابعة السير في السبيل الذي انتهجته لنفسي في تتبع آثار الشيخين . وكان ألقي في روع أكثر طلاب العلم أنهما خالفا الأئمة المجتهدين في بعض مسائل ، وردا بعض آرائهم ، وكان الناس يومئذ أشد تقديساً لآراء المجتهدين، وفنقلات المتحذلقين،

من كلام رب العالمين ، لأن القرآن الكريم في رأيهم أسمى وأعلى من أن تناله الافهام أو تدركه الاوهام ، ومثله سنة خير الانام فاذا ما تلي القرآن وقرىء الحديث فللتبرك فقط . هذا في زعمهم ، واشتغلوا بكتب المتأخرين وحذلقات المتكلمين ، هكذا كان شأن الناس عدة قرون ، وعندما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في أواخر القرن الثالث عشر أمر شيخ الاسلام علماء المسلمين أن يقرؤوا صحيح البخاري في المساجد على نية النصر ، ولكن روسيا انتصرت ببوارجها البخارية على دولة آل عثمان في حرب القرم وأرغمتها على قبول الصلح بشروط أملتها ، فكتب يوم ذاك أحد الاحرار مقالا بعنوان [النصر بالبخار لا بقراءة البخاري أوضح فيه أسباب تأخر المسلمين وانهزامهم ، فكان لمقاله من الدوي ما أيقظ النيام من سباتهم . وأنار طريق الخلاص من ظلمات ظل العالم الاسلامي يتخبط فيها خمسة قرون ، وكان من تأثير المقال على السلطة القائمة يومها ما دفعهم للحكم على كاتب المقال بالاعدام] .

وبعد : فليست رسالتي هذه دراسة لآثار ابن القيم العلمية ولا للمقارنة بين آرائه وآراء من خالفهم من الائمة الاعلام ، وسرد أدلة الفريقين وترجيح الأصح منها على الصحيح . ولا لجلاء آراء المعتزلة والقدرية والجبرية ومقارنتها بعقيدة أهل السنة

من السلف والخلف ، ولا لبحث القضاء والقدر وهل الانسان مسير أم مخير ...الخ ما أفاضت به مؤلفات هذا الامام العظيم. وانما هي تلخيص لبعض آثار هذا الامام العظيم ، مما يمت لجمهور القراء بصلة وثيقة ، ويعود عليه بفوائد عظيمة ، وقد اخترت من آثاره كتاب (روضة المحبين) و (عدة الصابرين) و (الروح) و (حادي الارواح) لأن لكل كتاب من هذه الكتب تأثيره الخاص في نفس مطالعه .

فروضة المحبين يعمل على كبح جماح هذا الحب الشهواني المنتشر بين جيل اليوم .

وعدة الصابرين ، ينشر الطمأنينة والهناء في نفوس الجماهير الكادحة التي تمنى بالسعادة والسيادة ، وهي كما هي لا تزال في الحضيض ترزح تحت نير الكد والتخلف .

والروح ، يأخذ بأيدي الحيارى ممن شدا بنصيب من المعرفة لساحل الطمأنينة والراحة النفسية والاستقرار ، وليعلم جواب : [من أنا وأين كنت وإلام المصير] .

وحادي الارواح ، ليسكب في قلب المطلع على هذا الكتيب سلسبيل الامن على مصير من أضنى جسده الفاني بطلب النعيم الباقي ؟ .

ثم أترك البحث والكلام عن جلاء شخصية ابن القيم لمن يحب أن يضطلع بهذا العبء الجسيم . وأرجو أن يوفقني المولى عز وجل في فرصة أخرى للكتابة عن هذا الامام العظيم ، الذي

الف في كل فن من الفنون المعروفة في عصره . ألف في الشريعة والحقيقة ومازج بينهما في منهجه الخاص فجعلهما علما واحدا . أي أنه ليس للشريعة باطن وظاهر . وأسرار ورموز . ولكن من تعمق في فهم أسرار الشريعة فتح عليه من الفهم ما اغلق على سواه .

كتب في اللغة وأسرارها وآدابها ، فصحح ما أخطأ فيه غيره من أهل اللغة المتخصصين وأظهر من دقائقها نبذا ولطائف يسر لها المتأدبون . وكتب في الطب والحب والفروسية ـ الرياضة ـ فكأنه فيما كتب : طبيب ، عاشق . مدرب أستاذ رياضة فالاختصاصي في أي علم من العلوم . اذا نظر في كتب هذا الامام تبين له انه ضرب في هذا العلم بسهم وافر كبير . وسنبين هذا للقارىء عندما نشير اشارات لطيفة بلغة سهلة مبسطة بعيدة عن مصطلحات العلوم لبعض ما أدركنا من جوانب شخصيته الفذة وعقله الجبار وعلمه الغزير .

أما سبر أغوار علمه ودراسة آرائه وجلاء شخصيته العلمية فهذا ما كفانيه الدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين في رسالته التي كتبها عن ابن القيم لينال بها الماجستير من كلية الشريعة الاسلامية في القاهرة ، فقد عاش مع ابن القيم فترة من الزمن طويلة منقبا عن آثاره المطبوع منها والمخطوط وكتب عن ابن القيم وعصره ومنهجه وآرائه في الفقه والعقائد والتفسير

والتصوف ، وكان يشير في بعض الاحيان الى بعض جوانب تلك الشخصية الفذة ، وترك مجال البحث واسعا لمن أراد أن يكشف عن جوانب أخرى لهذه الشخصية الفريدة من نوعها والتي يضن الزمان بمثلها فلا يسمح بمثلها الا في القرون .

ولنترك الكلام هنا للاستاذ الجليل فضيلة الشيخ محمد الزفزاف أستاذ الشريعة الاسلامية ووكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة يحدثنا في تقديمه لرسالة الدكتور عبد العظيم عن ابن القيم العظيم .

قال : لقد أماطت هذه الرسالة [1] اللثام عن الاهداف التي كان يرمي اليها ابن القيم في ثورته الاصلاحية الدينية ـ والدين عماد كل تمدن ـ فأبان أن الدعوة الى اصلاح العقيدة (يكون) بالرجوع الى مذهب السلف ، والتحرر الفكري . ومحاربة الحيل الشرعية التي اخترعها المتلاعبون بالدين . وتفهم روح الشريعة .

ولقد كشفت هذه الرسالة عن كثير من أخلاق العلماء التي توافرت في ابن القيم من أمانة في العلم ، وإنصاف للخصم . وهدوء في النقاش ، والتعمق في البحث . وكذلك كان ابن القيم فيما عرفنا عنه ، وما خفي علينا فالامر لله فيه اذ ليس لنا الا ما أظهره البحث وأبان عنه الدليل .

---

(١) رسالة عبد العظيم .

وهـذا يؤيد ما سبق ان ذكرته عـن ابن تيمية . مـن أن الاحاطة بكل ما كتب أمر مستحيل ، وابن القيم فرع من ذلـك الأصل ، إذ أنـه بسط آراء شيخه وأوضحها ببيانـه وسهولة اسلوبه .

ثم قال فضيلة الاستاذ الزفزاف : « كما أنها ردت ما زعمه المتقولون على ابن القيم ، من أنه كان من المجسمة الذين يجعلون الله شبيها بخلقه .... أضف الى هذا ما بينت هذه الرسالة من موقف ابن القيم مـن المتصوفة وشدته عليهم ، ورد ما ابتدعوه مـن قول بأن الحقيقة تخالف الشريعة . فمـن وصل الى ذروة الحقيقة ما عليه إن يخالف الشريعة ، الى غير ذلـك من دعاوى فاسدة لا بينة عليها الا خيال مريض وهوى مضل ، فانه ــ أي ابن القيم ــ حارب مثل هذهالمبتدعات، ورجع بالحقيقة الى منهج الشريعة فكلاهمـا مورده واحد فمن لا شريعـة له لا حقيقـة عنده » [1] .

منهاجي في هذه الرسالة :

١ ــ عرض آثـار ابن القيم العالم المناظر المكافح المجدد الداعية الـذي قضى حياته يحاول ويدعو المسلمين الى الرجوع

---

(١) ابن القيم ــ عبد العظيم شرف الدين الطبعة الثانية .

لمنهج السلف الصالح في العقيدة وفهم الـدين ، عبادة ومعاملات وآداباً ، والأخذ بمـا فهمه السلف والتزموه من عـدم التأويل والتشبيه لآيات الصفات ، والاخذ بما ورد في الكتاب والسنة ، سواء أكانت الآيات آيات صفات ذات أو صفات معنى ، بأسلوب سهل مبسط بعيد عن اصطلاح علماء الكلام من معتزلة [١] أو جبرية [٢] أو قدرية [٣] في مناظرتهم لعلمـاء الكلام مـن أهل السنة .

٢ ـ عدم الخوض والتعمق في قضية القضاء والقدر ، لأن الخوض في هذه المسألة بالذات غير مجد لجمهور القراء ، فهي مسألة حارت فيها الافهـام وتاهت في إدراكها الاوهام ، فمنذ أن

---

(١) فرقـة من القدريـة زعموا انهم اعتزلوا فئتي الضلالة عندهم : اهل السنة والخوارج . اسماهم به الحسن البصري لما اعتزله واصل بن عطـاء واصحابه الى اسطوانة في المسجد وشرع يقرر القول بالمنزلة بين المنزلتين وان صاحب الكبيرة لامؤمن مطلق الإيمان ولا كافر مطلق .

(٢) الجبريـة او المجبرة : يقولـون بالجبر اي ان الانسـان لا قدرة له علـى ان يفعل الشيء او يتركه بارادته بل هـو مجبر على أحد الامرين .

(٣) القدرية يجحدون القدر فيقولون : إن كل عبد من عباد الله خالق لفعله متمكن من عمله أو تركه بارادته .

تفتح عقل الانسان وهو يبحث فيها ولما يصل الى نتيجة ايجابية ، ولا يزال الخلاف قائماً ، ولكني سأعرضها عرضا سريعا وسهلا . معتمداً على قاعدة وضعها الامام أحمد رضي الله عنه في مناظراته للفرق الثلاث ، وهو قوله : ناظروهم في العلم فان هم أقروا فقد اتفقنا . وإن هم أنكروا فقد كفروا ، وسيأتي تفصيل ذلك في الكتاب الثاني عن ابن القيم ان شاء الله .

٣ ـ عرض صور لفهم ابن القيم للقرآن الكريم والسنة المطهرة وأسرار التشريع . وأن من أدرك هذه الاصول الثلاثة سهل عليه ادراك الحقائق وجلاء ما غلق عليه فهمه .

٤ ـ التركيز على ابراز شخصيته عالما مستقلا متضلعا بجميع العلوم المعروفة بعصره من تفسير وحديث وفقه وتصوف وسير ومواعظ وحكم وطب وبخاصة اللغة العربية وأسرارها وما تفرع عنها كالبيان والمعاني والبديع وما حواه الادب العربي من فن رفيع .

هذا وقد جعلته أربعة أبواب وكل باب تحته فصول . الباب الاول عصره ، الباب الثاني حياته ، الباب الثالث أدبه ، الباب الرابع ابراز بعض جوانب من شخصيته من كتبه التي اخترت منها : (روضة المحبين) و (عدة الصابرين) و (الروح) و (حادي الارواح) .

الباب الأول

عصر الإمام ابن القيم

عصر الامام ابن القيم

ولد ابن القيم ــ رحمه الله ــ بعد انهزام الصليبيين والقضاء عليهم بعام واحد ، وكان قد مضى على البلاد الاسلامية قرنان كاملان ، والمسلمون في قتال دائم مستمر وحرب قل أن تخمد نارها أو ينطفىء أوارها مع الغزاة الصليبيين ، وكانت الامدادات تأتيهم من أوربا براً وبحراً ، والحملات تتوالى حتى ملكوا الساحل ومعظم الداخل من البلاد .

بعض الدوافع والاسباب للحروب الصليبية :

« وكان الدافع لهذا الغزو الاوربي لبلاد المسلمين سوء الحالة الاقتصادية في أوربا ، والفقر المدقع ، والعوز والجوع ، وقد أوهمهم رؤساؤهم أن الشرق الاسلامي بلاد الذهب لا يلبث نزيله أن يغتني »[1] .

---

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ص ٢٩٤ .

كما أن صاحب القسطنطينية ضاق ذرعا بسوء المعاملة التي كان يلقاها من السلاجقة . وبالضرائب التي فرضوها عليه ، فاستنجد بملوك أوربا واستغاث بالبابا . ووعده الدخول في طاعة كنيسته والتخلي عن أرثوذكسيته »[1] .

وكان أن اشتكى بعض حجاج بيت المقدس من سوء المعاملة التي لاقوها في أثناء زيارتهم للأرض المقدسة . فاتخذ البابا من هذه الشكوى ذريعة يحتج بها في تحريض ملوك أوربا على غزو الشرق وتخليص القبر المقدس ، وكان يثير الحماس الديني في نفوس الجماهير .

انتهز البابا هذه الفرصة فخطب خطبته المشهورة في مدينة كلرمون بفرنسا . وقد اشتملت خطبته على هذه المبادىء[2] .

١ ـ تخليص الاراضي المقدسة من الكفرة الترك الغاشين .

٢ ـ تخليص أراضي الامبراطورية البيزنطية التي استولى عليها الترك وضربوها بالنار وقتلوا أهلها .

٣ ـ حث الامراء على توسيع أملاكهم في الشرق الغني

---

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ص ٢٩٢ .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ٢٧٧ .

بدلا من القتال في أراضيهم الفقيرة . التي يحصرها البحر وتحيط بها سلاسل الجبال ؛ أما الارض التي ستفتحونها فستدر عليكم الخير والنعمة [1] .

أما حجة البابا تخليص الارض المقدسة والقبر المقدس من أيدي الوثنيين ـ كما زعم ـ فهي من نوع الشعارات السياسية ، والبيانات الخلابة ، التي يخدع بها الانتهازيون الوصوليون غوغاء الجماهير الرعناء . فقد شهد مؤرخ معاصر مشهور باستقرار السلام في هذه البلاد بين المسلمين والنصارى ، والامن المستتب على الاموال والارواح . فقد سجل برفاري فيس في مذكراته عند مشاهداته زيارته للارض المقدسة : ان السلام سائد فوق تلك الربوع بين المسلمين والنصارى ، حتى إنني لو كنت مسافرا ونفق بعيري أو حماري الذي ينقل أمتعتي على الطريق وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، ثم سرت الى أقرب مدينة لأجلب بعيرا أو حمارا آخر لوجدتها عند عودتي باقية كما هي لم يمسها أحد [2] .

وقال منرو : كانت هذه الفظائع المنسوبة للمسلمين

---

(١) محاضرات الدكتور حلمي .
(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ، وخطط الشام ١/٢٨٢ .

ممزوجة بكثير من الأفويه لتوافق روح ذلك العصر الذي كان أشد توحشاً من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها ، فعظم تأثيرها في حماسة الكثيرين ولجأ الغربيون الى أنواع أخرى من الدعوة وإهاجة الافكار على المسلمين فاتهموهم بعبادة الاصنام ، وأنهم يعتقدون ألوهية محمد »[1] .

« لبى المسيحيون دعوة البابا فجاءت الحملة الاولى واستولت على الرها ثم استولت على القدس ، ونكلت بأهلها ولم ينج مسلم ولا يهودي ، ولبث الفرنج يقتلون المسلمين بالقدس اسبوعاً كاملا وقتل من المسلمين في المسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الف نفس ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاوز في ذلك الموضع الشريف ، وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء » ، فلو قارنا بين معاملة صلاح الدين للصليبيين يوم استرد القدس وبين معاملتهم للمسلمين يوم فتحوه لوجدنا الفرق العظيم .

---

(١) المصدر السابق .

استرداد بيت المقدس بهمة صلاح الدين :

لم يكن استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين الـذين ملكوه ٨٨ سنة بالامر الهين ، ولكنه عمل ــ أولا ــ على توحيد كلمة المسلمين ولمّ شعثهم تحت راية واحدة من أسوان في أعلى صعيد مصر الى الموصل في شمال سورية ، وكان ان استولى على معظم الساحل السوري وهكذا لم يبق أمـام صلاح الـدين في داخلية فلسطين سوى بيت المقدس، فأخذ يستعد للاستيلاء عليها .

وكـان صلاح الدين قد استقبل وهو ــ أمام عسقلان ــ بعثة من أهل بيت المقدس، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها المدن الصليبية في فلسطين، أي :أنه يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمـن شاء منهم بالخروج من المدينة سالما . ولكن اهل بيت المقدس الذين اخـذ باليان [ابن بارزان] يقوي فيهم المقاومة رفضوا ذلك العرض ، ورأوا ان « الموت ايسـر عليهم من ان يملـك المسلمون البيت المقدس » [1] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب . ج ٢ ص ٢١١ .

وعندئذ اقسم صلاح الدين على ان يسترد بيت المقدس بحد السيف ، ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين محتفظا بكريم أخلاقه ، فسمح بخروج الملكة ماريا كوفين زوجة باليان . وأمر بتوفير الحماية لها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والاطفال بالخروج من المدينة آمنين .

ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من الصليبيين ، التسليم بشروط طيبة ، رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين سواء ، ولكنهم أصروا على موقفهم ، وعندئذ قرر صلاح الدين أن لا يبرح حتى يبر قسمه ويرفع بأعلاه علمه [1] ..

وفي الوقت الذي اشتد هجوم صلاح الدين على بيت المقدس اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من ارثوذكس وكاثوليك ، حتى ان الفريق الاول أعلن انه يفضل الحكم الاسلامي على سيطرة الكاثوليك الغربيين ،

أدرك باليان دي ابلين استحالة المقاومة،بعد أن احس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة حتى قيل انه كان في بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء

---

(١) الفتح القسي لعماد الدين الكاتب ص ٤٣ .

والاطفال . لذلك ارسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الامان وتسليم القدس » بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين . والسماح لمن شاء بمغادرتها . وكانت هذه الشروط نفسها هي التي سبق ان عرضها صلاح الدين من قبل ورفضها باليان ولكن صلاح الدين امتنع في هذه المرة وأصر على تسليم المدينة دون قيد او شرط . لانه أقسم على الاستيلاء عليها بحد السيف . وقال لرسل الصليبيين : « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩١ من القتل والسبي . وأجزي السيئة بمثلها »[١] .

وعندما ساء موقف الصليبيين داخل بيت المقدس . أخذوا يتدبرون المصير القاسي الذي ينتظرهم . فخرج باليان بنفسه لاستعطاف صلاح الدين . ولما وجده مصرا على موقفه لجأ الى لهجة فيها كثير من الترغيب والتهديد . فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ولا تأسرون رجلا ولا امرأة فاذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع الشريفة ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد

---

(١) الكامل لابن الاثير حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله[1]» .

وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه في الموقف فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل – يستوي فيها الغني والفقير – وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، اما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغاً إجماليا قدره ثلاثون ألف دينارا ، واشترط صلاح الدين أن يؤدي الصليبيون الفداء المفروض عليهم في مدى اربعين يوما ، « ومتى انقضت الاربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً » ..

خروج الصليبيين :

ويصور المؤرخون خروج الصليبيين من بيت المقدس عندئذ وقد باعوا متاعهم « بالمجان في سوق الهوان » واضطروا الى ترك الكثير منه لثقله وصعوبة حمله . ويطبق أبو شامة عليهم الآية الكريمة (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين) .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٧ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٤ .

وفي يوم الجمعة ١٢ اكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وشاء الله ان يوافق ذلك اليوم في التاريخ الهجري السابع والعشرين من رجب ، وهي ذكرى ليلة الاسراء التي أسرى الله فيها بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى .

وكان الملك العادل في صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس ، فأظهر تسامحا كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية ؛ وكان من الامور التي ادهشت المسلمين ان يروا هرقل بطريق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة التي استولى عليها ، دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم ، ويذكر ابن الاثير ان صلاح الدين رفض ان يتعرض لاموال البطريق التي حملها معه وقال : لا أغدر به[1] .

وقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدم كنيسة القيامة ومعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، وقالوا : اذا هدمت ونبشت المقبرة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وعفيت وحرثت أرضها. ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها أمداد الزوار .... ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة .

ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك . وأمر باحترام الاماكن المسيحية المقدسة ونادى بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين لانه عندما فتح امير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان .

وشهد المؤرخون المسيحيون ــ المعاصرون وغير المعاصرين ــ بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته . وبأن صلاح الدين عامل نساء المسيحيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ومعهن اموالهن واتباعهن وحشمهن . وكانت زوجة الملك جاي لوزجنان الاسير موجودة في بيت المقدس . فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الاسر في نابلس فاذن لها .كذلك طلبت الاميرة اتينت أرملة ارناط من صلاح الدين الخروج كما طلبت اطلاق سراح ابنها من زوجها الاول . فأكرمها السلطان وسمح لها بالسفر ، وهي بنوابها محوطة وبرأيها منوطة ، ثم اطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك في نوفمبر سنة١١٨٨ والشوبك سنة ١١٨٩[1].

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

أما اليتامى والشيوخ والارامل من الصليبيين ، فان صلاح الدين لم يكتف باطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم ايضا مساعدات مالية من ماله الخاص •

وهكذا بدا الفارق عظيما بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧م وبين مافعله الصليبيون بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م، فقد ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين •

كتب المؤرخ المسيحي ابن العبري يقول : « ولبث الفرنج في البلد اسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفا » (١) •

ولو قارنا بين معاملة صلاح الدين لهم يوم استرد القدس ، وبين معاملتهم يوم فتحوا بيت المقدس سنة ٤٩١هـ، لوجدنا البون شاسعا . ولا عجب في ذلك فهذا روح الاسلام مقتبسة من كلمة النبي صلى الله عليه وسلم لقريش يوم فتح مكة : « اذهبوا فانتم الطلقاء » . وقد سرت هذه الروح في دماء المسلمين فكانوا اهل عفو واصحاب مروءة •

لكن مما يؤسف له ان الكامل ابن اخي صلاح الدين سلم بيت المقدس للصليبيين سنة ٦٢٥ هـ بعد أن مكث فيه المسلمون

---

(١) المصدر السابق ــ انظر الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور ج ٢ ص ٨٢٤ وما بعدها .

اثنتين وأربعين سنة منذ أن فتحه عمـــه صلاح الدين ، ليتفرغ لمناوأة خصومه من بني جلدته ، قال شهاب الدين المقدســي : « وجـــاء الخبر بأن الكامل اخلى البيت المقــدس من المسلمين وسلمه الى الفرنج وصالحهم على ذلــك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ، وكانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سببا في ان توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه » (١) .

أقول : وهذا ما يحدث في أيامنـــا هذه ونحن في القرن العشرين وما نشاهده من خلافات عربية بين العرب بعضهم مع بعض . وبين الصهيونية التي مدت سيطرتها على جزء كبير من البلاد العربية بسبب تفرقهم ؛ فمتى ينتبه المسلمون من سباتهم ، ويستيقظ العرب من رقدتهم وتتوحد كلمتهم ويكونون صفـــا واحدا لمواجهة هذا الخطر ــ خطر الصهيونية ــ وليستعيدوا حقهم المسلوب المغصوب ، ويحفظوا كرامتهم وشرفهم .

وان الامل المنشود ــ بتحرير الوطن العربي ــ لا يتم مالم

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٥٤ .

نحرر أنفسنا من الشهوات ، وعقولنا من الخرافات ومجتمعنا من الفساد ، وسياستنا من الانقسامات ، فلا يحارب بعضنا بعضا علنا أو يكيد لغيره سرا ، فالاهواء مشتتة والغايات مبددة والاهداف متباعدة والسبل متناقضة .

لا همّ قـد أصبحت أهـواؤنا شيعا
فـامنن علينـا بـراع انت ترعـاه
راع يعيـد الـى الاسـلام سـيرته
يرعـى بنيـه وعـين الله ترعـاه

أراني قد شط بي القلم وسرح بي الخيال حتى بعدت عـن الغاية التي أرمي اليها ـ الكتابة عن عصر ابن القيم ـ ولكنها نفثة مصدور ، وأنـة مفؤود يروح بها عن صدره ويريح بهـا فـؤاده .

نتائج الحروب الصليبية لدى المسلمين والصليبيين

فالحروب الصليبية التي بدأت عام ٤٩٠ هـ واستمرت الى سنة ٦٩٠ هـ والتي ذهب ضحيتها الكثير من الارواح والاموال، قد خرج منها المسلمون وقد صهرتهم التجربة ، والتقوا بالافرنج في ساحات الحرب فعرفوا عنهم الكثير من الفنون الحربية .

فالمسيحيون الذين صبغوا الحروب الصليبية بصبغة دينية وزعموا انهم يحاربون لتخليص بيت المقدس . واستجابة للعقيدة الدينية فهذا التعصب لدينهم من جانبهم هو الذي جعل في المسلمين رد فعل قوي ، حفزهم على الاستمساك بدينهم والعمل على نصرته . فقد ولدت هذه الحروب في نفوس المسلمين روح الاستبسال والتضحية . وخلعت عنهم ثوب الخمول فاتخذوا الجهاد شعارا لهم [ولا مثل العقيدة حافزا] كما أكسبتهم سمعة طيبة لدى العالم المسيحي ، ونفت عنهم تلك الاقاويل التي كانت تفترى عليهم من انهم وثنيون قساة الاكباد . ورجع الآلاف منهم الى مواطنهم يحملون اخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة ، من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل

فضيلة واخلاص ... وقصوا على قومهم أن المسلمين أهل دين وتوحيد ومروءة ووفاء وجود ووفاء وفضائل جمة [١] .

غزو التتار للبلاد الاسلامية :

لم تكن الحرب بين المسلمين والغزاة الصليبيين ــ والتي دامت قرنين كاملين هلك فيها من الفريقين ستة أجيال أو سبعة ــ أشد مما دهى المسلمين في ديار الشام من غزو التتار القادمين من الشرق الاقصى . اذ كانت بغداد قد سقطت سنة ٦٥٦ هـ وهي عاصمة الخلافة الاسلامية . فهذا الحادث الجلل زلزل كيان العالم الاسلامي وحطم جهاز الدولة الاسلامية . فعندما استولى هولاكو على بغداد بالتواطؤ مع رئيس الحجاب [الوزراء] ابن العلقمي قتل الخليفة المستعصم بالله شر قتلة . وقتل أهله وحريمه . وامر بضرب اعناق الفقهاء والعلماء والاعيان . واستمر القتل والنهب والسبي في بغداد بضعة وثلاثين يوما . ولم ينج من هذه الطامة الكبرى الا من اختفى في بئر أو سرداب. ثم أمر هولاكو بعد القتلى فبلغوا الف الف وثمانمائة الف وكسرا [٢] .

---

(١) الاســلام والحضارة العــربيــة ج ١ ص ٣١٧ ونسب القول الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١٠ .

سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ أي قبل القضاء على الصليبيين بـ ٣٤ عاما وكانت ديار الشام تعـاني الامرين من حربهـا مع الصليبيين عندما دهمتهم فاجعة سـقوط بغداد ، فأصبحوا بـين مصيبتين اخفهما شر من الشر ، حرب في البلاد مع الصليبيين مع تفرقة في صفوف المسلمين نظرا لطمع كل امير من أمراء المماليك بالاستقلال بما تحت يده من البلاد ، وخوف من مداهمة التتار لهم في تلك الايام العصيبة ، فبالقضاء على الخلافة الاسلامية انفرط عقد الاسلام ، وأصبحوا لا رابطة تربط بين ولاة الاقاليم مادامت رابطة العقيدة ــ وهي العروة الوثقى ــ انتقضت عروة عروة ــ فيما بينهم ــ وكيف يصلحون وهم كما قيل :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سـراة اذا جهالهـم سـادوا

عاشت الامة الاسلامية تلك الفترة في بـلاء مستمر وهول يـذهل المرضعة عما ترضـع ، يقاتلون الصليبيين في الداخل ، ويحاولون رد هجمات التتار الذين اكتسحوا الموصل وحلب وحماة وحمص ودمشق ، فلا يكادون يلمون شعثهم ويوحدون صفوفهم حتى يفجأهم الصراع بين امراء المماليك على السلطة في مصـر وبلاد الشام .

كان امراء المماليك مستقلين بعضهم عن بعض استقلالا تاماً وكانت عروشهم تزلزلها عواصف أربع :

١ ـ خطر المغول القادمين .

٢ ـ خطر الصليبيين المحتلين .

٣ ـ الخلافات الداخلية على السلطة .

٤ ـ الخوف من قيام بعض الايوبيين يدعو لنفسه ، فيتبعه الشعب .

وكان أول ملوك الترك بالديار المصرية ، هو السلطان عز الدين أيبك . فقد اتفق الامراء على سلطنته بعد أن قتل المعظم توران شاه . وخلفته شجرة الدر على ملك مصر . وكانت بيعته في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ وظل حاكم مصر الى ان قتلته زوجته شجرة الدر بموآزرة بعض الخدم في يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ . ثم خلفه ابنه السلطان الملك المنصور نور الدين علي على ملك مصر في يوم الخميس خامس وعشرون من ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ وظل حاكم مصر الى ان عمل قطز على انتزاع السلطنة منه في ١٧ من ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ وظل حاكم مصر الى ان قتله الظاهر بيبرس في ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ وكان أن هزم قطز التتار في موقعة عين جالوت وهو اول من حكم البلاد الشامية والمصرية. وخلفه السلطان الملك [القاهر ثم الظاهر ركن الدين ابو الفتوح بن عبد الله البندق داري] سلطان البلاد الشامية والمصرية والاقطار الحجازية وهو الرابع من ملوك

الترك وظل حاكم مصر الى أن توفي في يوم الخميس ٢٩ محرم سنة ٦٧٦ هـ [١] .

تنصيب خليفة في القاهرة :

حرص الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام على تنصيب خليفة من بني العباس ليظهر بمظهر حامي الاسلام وليستمد سلطته منه فتكون شرعية لا مجال للاعتراض عليها، فما كاد يعلم أن أحد بني العباس وهو احمد ابو القاسم وصل الى دمشق فارا من ظلم وعسف التتر حتى أوصى نوابه بإكرامه وأن يسير معه حجاب من دمشق [٢] .

وصل أبو القاسم أحمدالى القاهرة في ٨ رجب سنة ٦٥٩هـ فقابله السلطان ، والوزير وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز والعلماء والمؤذنون واليهود والنصارى .

ثم بعد خمسة ايام من وصوله عقد السلطان الظاهر مجلسا بالقلعة حضره شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام والامراء والوزراء والعلماء ، وحضر ابو القاسم احمد مع العرب القادمين

---

(١) ابن خلكان ، السلوك قسم / ج ٢ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٢ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٠٤٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٨٦/٧ و ٢٩٢ والسلوك ج/١ القسم الثاني ص ٤٤٨ .

معه لاثبات نسبه ، فلما ثبت نسبه لدى قاضي القضاة كان اول من بايعه السلطان ، ثم عز الـــدين بن عبد السلام ، ثم الامـــراء والوزراء والعلماء .

وبهذا تم للظاهر ما أراد من تنصيب خليفة عباسي.فلما تمت البيعة للخليفة ، قلد الظاهر البـــلاد الاسلامية ومـــا سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار .

وظلت الخلافة لبني العباس في مصـــر الى تنازل الخليفة المتوكل عن الخلافة للعثمانيين الاتراك . فانتقلت الخلافة اليهـــم واتخذوا جميع حقوق الخلافة الاسلامية[1] .

لم يكن المماليك مخلصي النية حين أقاموا الخلافة في مصر، بل كانوا يهدفون الى تدعيم مركزهم الديني فلم يجعلوا للخليفة من السلطة الا تولية السلطان ؛ فكـــان الخليفة دمية بأيـــدي السلاطين يتلهون بها ويخدعون العامة حتى سقطت هيبة الخلفاء من نفوس الشعب لما رأوه من استبداد السلاطين بالامر وإهمالهم الخلفـــاء .

فهذا الملك الظاهر الذي أتى بالخليفة من بغداد كما مـــر آنفا وأسناه الخليفة الحاكـــم بأمر الله سجنـــه في قلعة الجبـــل

(١) تاريخ دولـــة المماليك في مصـــر لسيروليم موير ترجمـــة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٨٤ .

سنة ٦٦١ هـ ولم يسمح لاحد بمقابلته مدة ثلاثين سنة[١] .

وهذا السلطان الناصرمحمد بن قلاوون غضب على الخليفة ابي الربيع سليمان فنفاه الى قوص سنة ٧٣٧ هـ فرحل اليها هو وأولاده وأسرته[٢] .

وقد علم الناس ان الخليفةانسان ضعيف لا حول له ولا قوة فحين عزم الناصر محمد بن قلاوون على استرداد السلطنة اذاع منشورا على الناس وادعى فيه أن الخليفة أعطاه الحق في السلطنة قابل الناس هذا المنشور بالسخرية اللاذعة قائلين : الخليفة ! ومن هو الخليفة ؟ ان هو الارب الرياح وسيدها[٣] .

إن سبب هذه الاضطرابات هو النزاع بين السلاطين وقادة الجيش من امراء المماليك اذلك كانت هذه الفترة من تاريخ البلاد مليئة بالاضطرابات الداخلية فلم يكن السلاطين آمنين على أنفسهم ما لم يحظوا برضى الأمراء ؛ فمن رضي عنه الامراء ــ أي قادة الجيوش من امراء المماليك ــ أفسح له في الحكم ومن سخطوا عليه اوقعوا به الوان العذاب ؛ وكان سعيد

---

(١) تاريخ المماليك البحرية للدكتور علي ابراهيم حسن ص ٢٣. لانه تولى الخلافة في المحرم سنة ٦٦١ الى أن توفي سنة ٦٩٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢١١/٧

(٣) تاريخ دولة المماليك لسيروليم موير ص ٧٧ .

الحظ من السلاطين من يخلع من السلطنة ، اما من ساء حظه فانه يقتل شر قتلة . كما حل بالاشرف صلاح الدين خليل وهو من اشجع السلاطين ، فقد اجتمع عليه الامراء وكان قد خرج للصيد، فقد ابتدره أول من ابتدره الامير بيدار ، فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده من كتفه، فجاء الأمير حسام الدين لاجين وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة وقال لبيدرا : يانحس من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته . ثم ضربه على كتفه فحلها . ودفع السلطان على الارض . فجاء بعدهما الامير بهادر ــ وكانت وظيفته الحكم على المماليك السلطانية ــ وأخذ السيف ودسه في دبره حتى اطلعه من حلقه [1] .

وبعده اقيم اخوه ناصر الدين ابو الفتوح محمد ، وكان عمره تسع سنين ، ويقال : انه عندما اقيمت له حفلة التتويج حمله رئيس الحجاب على عاتقه ليراه الناس ويراهم ، ولما رأى الامراء والاجناد والاعلام والطبول هاب الموقف فبال على الوزير ، ثم خلع سنة ٦٩٤ هـ ثم تولى مكانه زين الدين كتبغا، فخلع في العام نفسه ثم تولى حسام الدين لاجين فقتل سنة ٦٩٨هـ، ثم أعيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستمر الى سنة ٧٠٨ هـ ، فخرج من مصر متظاهرا بالحج . ولكنه عرج على الكرك مضطرا لانه كان

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧ .

مشلول الحركة ضعيف الارادة فعزل نفسه لان الامراء كانوا مستبدين بالحكم . فتولى مكانه بيبرس الجاشنكير . ولكن الناصر حاول الرجوع من الكرك فلما علم بيبرس بذلك جدد العهد من الخليفة . فلما قرىء العهد على المنابر في القاهرة صاح الناس وضجوا لميلهم الى الناصر . ولما علم بتأييد الشعب له ونفوره من بيبرس طرق الحديد محسيا . وذهب الى دمشق ومنها الى القاهرة . ففر بيبرس الى اسوان . ودخل الناصر مصر ودخل الجميع في طاعته . ولم يعف الناصر عن خصمه بل احضره واعتقله ثم خنقه واستمر الناصر في حكمه الى سنة ٧٤١ هـ . ثم أقيم ابنه ابو بكر فلم يقم في الحكم الا شهرين ثم خلع ونفي هو واخوته الى قبرص . ثم قتل بها . وبعده اقيم اخوه علاء الدين [كجك] ومعناه الصغير . وعمره دون ست سنين . فلم يلبث الا ستة اشهر . ثم خلع واعتقل حتى مات . وبعده تولى اخوه شهاب الدين أحمد الناصر وبقي أربعين يوما ثم خلع سنة ٧٤٣ هـ وقتل سنة ٧٤٥ (١) .

وهكذا كان الحال الى سنة ٦٩٢ اي بعد تطهير البلاد من الصليبيين . على يد الملك الاشرف خليل بن الصالح قلاوون الذي قتل غيلة كما مر فاستولى على الملك بيدرا أحد أعيان المماليك

---

(١) حسن المحاضرة ج ٧ ص ٧٤ الى ص ٧٧ ملخصاً .

ثم خلعوه وبايعوا الناصر بن قلاوون ثم تغلب عليه نائب السلطنة كتبغا و ستأثر بالملك وسجن سلفه في قلعة الجبل ، ثم خرج على كتبغا نائبه لاجين المنصوري واستولى على الملك ، فلا يكاد يستلم النائب زمام الحكم حتى تحدثه نفسه بالاستقلال وشق عصا الطاعة والخروج على السلطان . فالنزاع مستمر بين السلطان ونوابه . فان ظفر النائب بالسلطان حل محله ، فخطب باسمه وضربت السكة برسمه واختار من الالقاب الفخمة الضخمة ما يشتهيه كالمنصور . والناصر . والاشرف ، والمؤيد والظاهر ، وان ظفر السلطان بنائبه نكل به وجعله عبرة لغيره ثم استبدل به سواه .

هكذا كان واقع البلاد . وهكذا كان شأن الأمة مع ولاتها وملوكها وقادة الامر فيها . ولشدة ما عانت الامة من سوء تصرف ولاتها قال ابن الوردي يصف الواقع المؤلم ويصوره اوضح تصوير :

هذي امور عظام
من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه
في كل شهرين نائب[1]

(١) نائب : ملك .

الخوارزمية : رأينا ــ فيما مر ــ صورة للبلاد من جانب واحد تشمئز منها النفوس ، وهناك صور أخرى من جوانب اخرى تقشعر منها الابدان . من فتن داخلية وهجمات مغولية . فكان كلما تهادن ملوك المسلمين مع الصليبيين ، استجماعا للقوة ، واستجماما للراحة ، كانت الهدنة من حظ الصليبيين اكثر فائدة منها للمسلمين [كما هو الحال الآن مع الصهيونيين] ، ففي الفترة بين الحملتين السادسة والسابعة وهي آخر الحملات بينما كان الصليبيون آمنين في القدس وعكا وصور ينتظرون وصول النجدات، كان الدمشقيون يعانون الامرين من حصار الخوارزمية تلك الفئة المفسدة الباغية الذين قتلوا ملكهم، والتجؤوا الى كيقباز ملك الروم ، وخدموا عنده فلما هلك هذا وتولى ابنه كيخسرو قبض على مقدمهم بركت خان ففارقوا خدمته ، فاستمالهم الملك الصالح أيوب بن الكامل [1] ثم فارقهم في شمالي سوريا وعاد الى مصر ، فكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا الاقوات التي في القرى وارتكبوا من الفواحش والقتل أكثر مما ارتكبه التتر ، ثم رجعوا الى بلادهم حران وما معها ، وفي سنة ٦٤٢ استدعاهم الملك الصالح ايوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق فانهالوا نحو دمشق مسرعين ، ولكن

---

(١) وهو الذي سلم القدس للصليبيين كما مر .

لما تم الامر صلحا بين الصالح أيوب وعمه اسماعيل على أن تكون بيد الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى[1] والسواد . لم يرضهم هذا وخرجوا عن طاعة الصالح أيوب لانهم كانوا يودون فتح دمشق عنوة ليشبعوا نهمهم سلبا ونهبا وتخريبا، فالتجؤوا الى الصالح اسماعيل وزينوا له استرجاع دمشق وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك ، وساروا الى دمشق وحاصروها فقاسى اهلها شدة عظيمة ، ولنستمع الآن الى مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي يحدثنا عن فظائعهم في دمشق قال : واشتد البلاء في دمشق واحترقت العقيبة والخوانيق . ودام الحصار خمسة اشهر وهلك العوام موتا وجوعا وقل القوت بالبلد حتى بلغت غرارة القمح الفا وستمائة درهم وبيع الخبز كل اوقيتين بدرهم وأكلوا الميتة وبيعت الاملاك والأمتعة بالشيء اليسير وبيع رطل اللحم بتسعة دراهم ، وأنتن البلد بالموتى على الطرق ، وعظم الخطب[2] .

وذكر غيره من المؤرخين قال : وقطعت الخوارزمية الطرق على الناس ، وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وأحرقوا جوسق الملك العادل والد اسماعيل ، وزقاق الرمان الى العقيبة ، ونهبوا اموال الناس ، واحترق بعضها

(١) اي من بعلبك في لبنان الى بصرى من حوران .
(٢) تاريخ الذهبي .

واستولى الحريق على مساجد دمشق وخاناتها ودورها ، واحترق الشاغور وحكر السماق وخارج باب النصر ، وباب الفراديس ، وباب السلامة . ونصبت المجانيق وترامى الفريقان ، وجرت أمور شنيعة بشعة جدا. لم يجر على دمشق مثلها قط ودام الحال كذلك حتى جاء الصالح ايوب فشتت شملهم وهزمهم شر هزيمة فلحق فلالهم بالتتر .

استمر الزحف المغولي التتري بعد ان سقطت بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية بأيديهم نحو الشرق ، وكان ان سبق هــذا الزحف اخبار الفظائع التي تجري على ايديهم فيمن يستولــون عليه ، فقد دخل في قلوب الناس الهلع والجزع مالم يسبق لــه نظير في تاريخ البشر . حتى كان المغولي الاعزل يدخل على جماعة من الناس فيهم بذبحهم فلا يجد معه سكينا فيأمرهم بالانتظار ريثما يذهب ويأتي بما يزهق ارواحهم فيأتسرون ولا يحركون ساكنا ولا يتحركون ، ولو لم يكن هذا المخبر ممن عاين ذلــك وشاهده لعد ذلك من أساطير الأولين[١] .

قد يكون المصاب أخف والفادحة الطف لو اكتفوا بقتل النفوس البريئة وهدم المدن العامرة وأبقوا على تراث الامــة

(١) صبح الاعشى للقلقشندي .

الاسلامية تراثها العلمي [المكاتب الاسلامية] تلك المكتبات التي صهرت في بوتقتها مدنية الفرس والرومان ، وحكمة الهند وفلسفة اليونان وصاغتها وصبغتها بصبغة عربية اسلامية ، ولكنهم بزحفهم على بغداد احرقوا عشرات المكاتب العامة ومئات من المكاتب الخاصة التي حوت ملايين المجلدات في مختلف العلوم ، والقوا في دجلة ما غير مدادها صفاء الماء أياما .

وقد فعلوا في حلب عندما احتلوها من القتل والتخريب اكثر مما فعلوا في بغداد ، فقد استباحوها اياما حتى لم يبق بها احد .

جاء في صبح الاعشى للقلقشندي « ان الله سلم دمشق من عدوان هولاكو فلو تسكن منها لمحا آثارها وأنسى أخبارها » ولم يدر القلقشندي ما خبأ القدر لدمشق من المصائب الفادحة على يد حفيد هولاكو قازان . والطاغية تيمور ففي سنة ٦٩٩ ، وكان عمر ابن القيم ثمان سنين لما دخل قازان مدينة دمشق قتل فيها من شيوخ الحديث ما يربو على مائة نفس وفي سنة ٧٠٣ لما زحف تيمور على دمشق فعل فيها من الفظائع ما سود وجه الدهر فقد استصفى الاموال وهتك الاعراض وأزهق الارواح واحرق المنازل والدور والمساجد والقياصر ، حتى اصبحت البلد اطلالا بالية ورسوما خالية ، فلم يبق فيها الاطفال الذين سنهم دون

الخمس سنوات فبعد ان سبى النســاء أجمع وســاق الرجــال والاولاد مقرنين في الاصفاد طرحوا النار في كل مكان وكان يوما عاصفا فعم الحريق جميع البلد حتى صــار لهيب النار يناطــح السحاب •

خلد الشعراء تلك المآسي بمراث حتى ليكاد المــرء يسمع الانات ويشعر بحرارة الآهات من خلال قصيدة بهــاء الــدين البهائي التي رثى بها مصاب المسلمين في دينهم ودنياهم ، فبعد ان رثى حمص وحماة وحلب الشهباء ذكر مصاب دمشق فكان مما قالــه في قصيدته :

فشكا الحريق فؤادها لمــا رأى
نــور المنــازل ابدلت بدخــان

لم أدر من أبكي وأندب حسرة
للقصــر للشرفــين للميــدان

للجبهــة الغــراء ام خلخــالهــا
للمــزة الفيحـــا أم اللــــوان[1]

---

(١) لم اذكر المراجع التي نقلت عنها تلك الصفحات السوداء من تاريخ البلاد لاني عندما كتبتها كنت اكتب لنفسي وذلــك قبل اربعين سنة ولم اكن اقدر اني سوف انشرها على الناس ، وقد تغير مفهوم التأليف اليوم عنه قبل نصف قرن فلا بد اليوم من ذكر المصدر ولو كان النقل بضعة سطور .

كان انتصار المماليك في موقعة عين جالوت على يد قطز الذي رمى بخوذته في ساحة الوعى وصاح [واسلاماه] دليلا كافيا ليمكن للمماليك من سلطانهم وأثبتت تلك المعركة للعالم أجمع أن هناك دولة تستطيع ان تقوم على حماية الاسلام بعد سقوط بغداد ، ففي هذه المعركة يقول بعض المؤرخين : ان معركة عين جالوت انقذت العالم المسيحي من التتر في وقت لم يكن من السهل على بلد في اوربا ان يصمد لهم او يقاومهم [١] .

ومن المواقع التي هزم فيها التتار ايضا على يد المماليك . موقعة مرج الصفر في رمضان سنة ٧٠٢ على مقربة من حمص .

التقت جيوش غازان [٢] بجيوش المماليك وعلى رأسهم الناصر محمد بن قلاوون ، ومعه الخليفة . في مرج الصفر قرب حمص فهزم التتار شر هزيمة ومات كثير منهم ظمأ ولم تقم لقازان بعد ذلك قائمة .

---

(١) من اعلام الاسلام (ابن تيمية) للمرحوم الشيخ عبد العزيز المراغي ص ١٢ .

(٢) قازان أو غازان قائد التتار سنة ٦٩٩ كان يريد فتح دمشق . ففزع القوم وخرج جماعة من العلماء منهم ابن تيمية وابن جماعة الى غازان يطلبون الامان فاعطاهم الامان ولكنه كان سرابا يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا فقد عاثت جنوده في بلاد الشام ، ونهبوا ما شاء .

وصف ابن تغري بردي هذه الموقعة فقال : ومشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن ـ وهم في المعركة لا في المساجد ـ ويحثون على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة ، وسار الخليفة يقول : يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن دين نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وعن حريمكم ، والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه الى الارض ، وكان السلطان والخليفة يكران في العسكر يمينا وشمالا ويقول : ركبهم البلاء من المسلمين ، وأيدهم الله بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ، ومروا في أثرهم قتلا وأسرا (١)

ثم كتب بهذا الفتح العظيم الى سائر الاقطار ، وتساقطت عبرات الناس فرحا ودقت طبول البشائر في سائر الممالك .

وقد أراح الله المسلمين من قازان فمات غيظا عقب الهزيمة وهو لايزال غض الإهاب سنة ٧٠٤هـ ثم تحسن الحال بين المسلمين والتتار ، لما فهم التتار أنهم بعيثهم وفسادهم لم ينالوا خيرا ، منذ أن خرجوا من ديارهم غزاة سنة ٦٥٤هـ أي قبل نصف قرن ، فأينما حلوا حل البلاء والشقاء، خلدوا الى السكينة ولكن خمود النار تحت الرماد . فبعد موت قازان بثمانية عشر عاما أي سنة ٧٢٢هـ تفاهم

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٠ نفس المرجع ص ١٦٣ .

الملك الناصر مع أبي سعيد حكم التتار . وزالت الاحقاد بين الفريقين وحل الود والصفاء محل الخصام والجفاء[1] .

كان من أثر هاتين المصيبتين ـ الغربية والشرقية . وانتصار المسلمين على المستعمرين الغربيين والغزاة الشرقيين . وقد صهرتهم التجارب وصقلتهم الحروب ـ أن عادت اليهم عزتهم وكرامتهم وامتلأت نفوسهم حماسة وقوة واعتدادا بالنفس . فتطلعوا الى الحياة الكريمة ومنها الحرية بكل أشكالها وأبعادها أما حريتهم السياسية فقد بدت مظاهرها بعلاقتهم مع الحكام . فلم يعودوا يركنون اليهم الركون التام . وأعانهم على ذلك العلماء الاحرار الذين هم ـ وحدهم ـ الملاذ والملجأ للشعب في لياليه المدلهمة .

(1) دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٩ .

أثر هذه الحروب في نفوس المماليك ومواقف العلماء في وجه المماليك :

أما أثر هذه الحروب في نفوس الملوك المماليك فكانت استبدادا بالشعب بحجة أنهم حماة البلاد ، وسادة العباد ، لذلك رأينا الملك الظاهر التقي الورع المجاهد ، يرى أنه يحق له فرض ارادته على الشعب وأخذ أمواله بحجة المصلحة العامة وقتال الاعداء ، وقد ظلم أهل الشام غير مرة ، وأفتاه جماعة بما يوافق هواه ، فقام الشيخ محي الدين النووي ، في وجهه وأنكر عليه وقال : أفتوك بالباطل ، ذكر السيوطي في حسن المحاضرة قال :

لما خرج الظاهر بيبرس الى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال ـ أي الظاهر ـ هل بقي أحد . فقيل : نعم بقي الشيخ محي الدين النووي فطلبه فحضر فقال : اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق للامير

بندقدار ، وليس لك مال ، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكا . وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة[1] من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي فاذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه ، وقال : اخرج من بلدي ، يعني دمشق ، فخرج الى نوى ، فقال الفقهاء : ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده الى دمشق فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر[2] .

ومن مواقف العلماء المشرفة ، موقف سلطان العلماء العز بن عبد السلام يوم مبايعة الظاهر بالسلطنة . فكانت جرأته وصراحته بتون الحق مثلا أعلى يقتدى به ، فقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن الظاهر بيبرس هم بأخذ البيعة لنفسه بعد أن قتل قطز ، فجمع القضاة والعلماء والعلية من القوم ، وأوشكت البيعة أن تتم ، غير أن الشيخ ابن عبد السلام امتنع عن مبايعته لانه لم يثبت لديه حرية بيبرس وقال له : يا ركن الدين أنا أعرفك مملوكا للامير بندقدار ، فاستحضر بيبرس شهودا

---

(۱) حياصة : منطقة .

(۲) حسن المحاضرة ج ۲ ص ٦٦ المصدر السابق .

شهدوا على خروجه من ملك البندقدار وحريته . فتمت البيعة[1] .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بجرأة ابن عبد السلام على الملك الظاهر بل تعدى ذلك الى بقية الامراء المماليك .

لما طغى هؤلاء على الناس واستطالوا على الحقوق وثقلت وطأتهم على الناس حتى استشرت بهم المظالم ، قام الشيخ ليقف موقفه الفريد في كل عصور التاريخ ، اذ أعلن أن هؤلاء الامراء مماليك وأن حكم الرق قائم فيهم ؛ وهم بالتالي من أملاك بيت المال فلا يجوز تصرفهم ولا معاملاتهم الا باذن الملك ، لذلك يجب بيعهم شرعا كما يباع الرقيق ، وضرب لبيعهم موعدا بعد أن يكون قد تعالمه الناس ؛ فهاج الامراء وماجوا وانحاز السلطان الى جانبهم ، وكان فيهم نائب السلطنة ، فاحتج العز على تأييد السلطان لهم ؛ واستقال من رئاسة القضاء ؛ وعزم على مغادرة مصر ، وركب حمارا وأركب أهله على حمار آخر وساروا .

فماذا حدث ؟

لم يبق رجل ولا امرأة ولا طفل في مصر الا وخرج وراءه وأخذوا كلهم يطلبون منه العودة ، وذهب من يقول للسلطان متى راح ابن عبد السلام ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه

(١) المصدر السابق .

ولحق بــه وأجابه الى ما يريد وأعاده ، وهكــذا لم تزد هذه الضجة كلمة الشرع الا استعلاء . والشيخ الا اصرارا ومضاء ، وجن جنون الامراء . وعزم نائب السلطنة على قتل العز بسيفه ، فركب في جماعته وجاء الى باب الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب ، فخرج ابن الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد الى أبيه . وأخبره في الحــال فما اكترث لذلــك وما تغير وقال : يا ولدي إن أباك أقل من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج ، فكأن قضاء اللــه نزل على نائب السلطنة ، فيبست يده علــى السيف وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله فبكى . ثم سأل الشيخ أن يدعو لــه . وقال : يا سيدي مــا تصنع بنــا ، قال الشيخ : أنادي عليكم وأبيعكم . قــال نائب السلطنــة : وفيم تصرف ثمننا ؟! قال الشيخ : في مصالح المسلمين . قال النائب : ومن يقبضه ؟ قال الشيخ : أنا . والحق ان الذي يقول : أنا هو الشرع بلسان العز بن عبد السلام .

وهكذا كان، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الامراء واحدا واحدا واشتط في ثمنهم ، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخــر ما يبلغ ، ودفع الظلم والنفاق والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمــة التي أعلنهــا الشرع : (أمراء للبيع أمراء للبيع) .

ليست هذه الحادثة الفريدة من نوعها بين العلماء والامراء بل هناك مواقف كثيرة وقفها ابن عبد السلام وغيره من العلماء المخلصين لدينهم وأمتهم ، وهاك موقفا أشد وأبلغ وقفه العز ابن عبد السلام ، مع الملك الصالح الايوبي ملك دمشق ، عندما اتفق مع الصليبيين على أن يناصروه ضد نجم الدين ملك مصر مقابل اعطائهم قلعتي صيدا والثقيف وأن يسمح لهم بدخول دمشق متى أرادوا .

وفعلا بدأ الصليبيون بدخول دمشق وأخذوا يشترون منها السلاح والعتاد ، فأفتى الشيخ ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للصليبيين ، فلم يبعهم أحد من أهل الشام قطعة سلاح قط ، ولم يكتف بهذا الحد بل وقف على المنبر في يوم جمعة مشهود ، وخطب في ذم موالاة الاعداء وتقبيح الخيانة وأوشكت الخطبة على النهاية وحان الدعاء التقليدي للملك ، ـ والملك حاضر في المسجد ـ فما كان من العز الا أن أعلن أن الملك قد خان الامانة وأن الخائن لا ولاية له ، وأعلن اسقاطه من الحكم ، ثم قال قبل أن ينزل عن المنبر : اللهم أبرم لهذه الامة أمر رشد تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك ، والناس يعجون بالدعاء آمين آمين ، ثم نزل ، فألقي القبض عليه ، ووضع تحت الاقامة الجبرية في بيته فهاج

أهل دمشق ، وضج العلماء ، وكثر قتل الصليبيين في الشوارع ، وخطفهم من المدن ، فسمح له الملك بمغادرة دمشق الى مصر ، ولكن الثورة بقيت متأججة ، فاضطرب الملك ونكسته الحيرة على رأسه ، فوجه أمراً لحاكم نابلس أن يبقي الشيخ عنده ، ثم أرسل إليه الملك رسولا من عنده يتلطف به ويسترضيه، فقال له الرسول : بينك وبين أن تعود الى مناصبك وما كنت فيه وزيادة أن تنكسر للملك وتقبل يده لا غير ، فقال له الشيخ بلهجة المسلم المؤمن : يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبل يدي فكيف أقبل أن أقبل يده ؟ يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به ، فبقي معتقلا في نابلس حتى خلصه نجم الدين بعد انتصاره على الصالح اسماعيل الخائن ، بنظر الدين الذي سلم القدس للصليبيين كما مر وسلمهم قلاع المسلمين وسمح لهم بدخول عاصمته لشراء السلاح والعتاد ، ليتفرغ لقتال عمه نجم الدين ، ولكن سنة الله في خلقه أنه يمهل للظالم ولا يهمله فاذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر .

وموقف آخر للشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يقل روعة عما سبق جرى له مع نجم الدين ملك مصر الذي خلصه من سجن نابلس . خرج الشيخ في يوم العيد للصلاة فشاهد الجنود مصطفين بين يدي السلطان نجم الدين وقد خرج على قومه في

يوم زينته . وأخـذ الامراء يقبلون الارض بين يـديـه فناداه الشيخ بأعلى صوته يا أيوب : ما حجتك عند الله اذا قال لك : ألم ابوىء لك ملك مصر ثـم تبيع الخمور ؟ فقال الملك : هل جرى هذا ؟ فقال الشيخ نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، قال لملك : يا سيدي هـذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي فقـال الشيخ : أأنت من الذين يقولون : انا وجدنا آباءنا علـى أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، فأمر الملك باغلاقهـا من ساعته فلما عاد الشيخ الى مدرسته . قال له أحـد تلاميذه : لم فعلت ذلك وكان يسعك أن تنصحه بينك وبينه ، فقال يا بني : لقد رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، قال التلميذ : يا سيدي أما خفته ؟ قال العز : لقد استحضرت هيبة الله تعالى اذ أخاطبه فصار السلطان أمامي كالقط !!!

ليس العز بن عبد السلام هو العالم الوحيد الذي له هذه المواقف من الملوك والسلاطين بـل هناك في عصره كثيرون لهم مثل هذه المواقف المشرفة كالامـام النووي وابن تيميـة وابن قيم الجوزية .

ولئن استطرد بي القول فليس هو عن سهو او غفلـة أو شط في القلم ، أو سرح في الخيال ، ولكـن ليعلم العلمـاء

الذين هم في عصر النـور ـ القرن العشرين ـ سيرة أسلافهم فيسلكوا سبيلهم وينهجوا طريقهم ، بالامـر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وليعلموا أنه مهما عظم سلطان الظالمين فعظمة الله أعظم وسلطانه أكبر ، وهو وحده الذي يؤتي الملك من يشاء . وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

انتصار العلماء على الامراء وتزلف الامراء الى الشعب والعلماء :

رأى الامراء المماليك أن سلطان العلم أقوى من سلطانهم . ونفوذ العلماء في نفوس الامة المؤمنة اكثر مضاء من عدد عتادهم . فأخذوا يتوددون الى الشعب عامة والى العلماء خاصة ، يتزلفون لهم ببناء المدارس والمساجد والتكايا والزوايا والمشافي ، ويتقربون الى الشعب بالاحسان اليهم، وسد عوزهم، والنظر في شؤون الفقراء والايتام والمساكين وابن السبيل ، فهذا الملك الظاهر بيبرس ، بعد ما أخفق في مصادرة أموال التجار ، بحجة الاستعانة بهذه الاموال على قتال الاعداء ، كما سبق ذكره ، عاد ورجـع الى الصـواب . والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل ، كان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح على الفقراء والمساكين وأرباب

الزوايا ، وكان يرتب لايتام الاجناد ما يقوم بهـم على كثرتهـم ، ووقف وقفا خاصا على تكفين أموات الفقراء والغـرباء بالقاهرة ومصر ، ووقفا ليشترى به خبز ، ويفرق في فقراء المسلمين[1] .

فهذه الاعمال الخيرية التي صدرت عن بيبرس وغـيره من أمراء المماليك ليست سجية في طباعهـم ، لاننا رأيناهـم ينتهزون الفرص لمصادرة أموال الاغنياء محتجين بأوهى الاسباب ، كإعادة فلسطين لاربابها بعـد ما احتلهـا المغتصبون ، فكانت سياستهم مكيافيلية [الغاية تبرر الواسطة] فاذا أخفقوا بظلم الشعب لجؤوا لتقليد الصالحين منهم ، ورحم الله أبا الطيب المتنبي القائل :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فهذا الظاهر بيبرس بعدما أخفق في ظلمه للشعب لتوطيـد دعائم ملكه نهج منهج من سبقه من السلاطين الصالحـين ، سواء أكانوا من سلاطين مصر ، أو سلاطين الشام ، الذين كان فعل الخير سجية لهم ، كنور الدين زنكي ، وصلاح الدين الايوبي .

ولنصغ الى ابن خلكان يحدثنا عـن أعمال نور الـدين في ترجمته له اذ يقول : وكان رحمه الله ملكا عادلا زاهدا عابـدا متمسكا بالشريعة ، مائلا الى أهل الخير ، مجاهـدا في سبيل الله

(١) النجوم الزاهرة ص ١٨٠ .

تعالى ، كثير الصدقات ؛ بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار ، مثل دمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة ؛ وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري ، ورتب له ما يكفيه ، وبحماة الجامع الذي على ظهر العاصي ، وجامع الرها ، وجامع منبج ، وبيمارستان دمشق ، ودار الحديث بها . وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف ، وبالجملة فان محاسن نور الدين كثيرة ، وكانت وفاته بعلة الخوانيق ، ودفن في بيت بالقلعة كان يلازم فيه الجلوس والمبيت . [يعنى أنه لم يأبه بالدور الفاخرة والقصور العامرة] ثم نقل الى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب الخواصين . وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون : ان الدعاء عند قبره مستجاب ، وقد جربت ذلك وصح ...[1]

ومثل نور الدين زنكي خلفه صلاح الدين الايوبي؛ فقد ذكر ابن خلكان أيضا أن صلاح الدين لما ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فان الدولة المصرية ــ يعني الفاطمية ــ كان مذهبها مذهب الامامية فلم يكونوا يقولون بهذه الاشياء ، فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وبنى مدرسة بالقاهرة ، في جوار المشهد المنسوب الى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وجعل غليها وقفا كثيرا ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٧ طبعة أحمد البابي الحلبي .

وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين . خانقاه ، ووقف عليها وقفا طويلا . وجعل دار عباس مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد كبير. وخانقاه أيضا لها وقف كثير،وبنى بمصر مدرسة للمالكية .. الى أن قال : ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت : انه سعيد في الدنيا والآخرة . فانه فعل في الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها . ورتب هذه الاوقاف العظيمة . وليس فيها شيء منسوبا اليه في الظاهر وهذه صدقة السر على الحقيقة[1] .

موقف أمراء المماليك من العلم والعلماء ومساهمة العلماء في اعادة بناء النهضة :

عرف المماليك أن العلم سياج الدولة وعمادها . والعلماء هم حملة هذا العلم ورواد الامة، فعملوا على تشجيع العلوم. والتزلف الى العلماء فبنوا لهم المدارس . والمساجد ، والخوانق . والربط ، وأجزلوا العطاء للعلماء ، وأوقفوا على ما بنوا الاوقاف العظيمة ، وذلك لانهم كانوا ينشئون دولة ، فرأوا ان خير ما يضمن لهم

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٣ .

البقاء هو تشجيع العلوم والظهور أمام المسلمين بأنهم حماة الدين المدافعون عن البلاد والعباد . وقد ظهر هذا من موقفهم مع التتار والصليبيين •

وقد ساهم العلماء في بناء هذه النهضة العلمية فهبوا لاحياء العلوم بعد تلك النكبة التي قضت على الشيء الكثير من التراث العلمي يوم سقطت بغداد . وذهب ضحيتها مئات من العلماء . ومئات الالوف من الكتب القيمة التي لم يبق منها الا الاسماء في طيات الكتب . لهذا نرى أن الاسباب توافرت على نهضة علمية آتت ثمارها ، فزخرت المكتبة العربية بثمار فكرية في الدراسات المتنوعة . ونتاج علمي عظيم في ظل حكام مخلصين له مشجعين عليه . فكان للعلماء الحرية التامة في ابداء آرائهم في معالجة الامور السياسية . والاجتماعية ، والدينية ، تلك الحرية التي ظهر أثرها أكثر ما ظهر في الامور الدينية ، والاجتماعية . ليعالجوا بها ما أصاب الأمة من نكبات التتر والصليبيين . مدة تزيد على ثلاثة قرون •

ولعل هذا ما يفسر لنا هذا الاتجاه الذي سار عليه ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، من حرية في البحث العلمي كان من أثرها آراء جديدة لم يسبقهما اليها غيرهما من العلماء والمفكرين

وهو ما دعا العلماء ليشنعوا عليهما عندما أخفقوا في التصدي لهما بالأبحاث العلمية .

من هذه الآراء ما أثر عن ابن تيمية في السفر الذي يبيح الفطر . وقصر الصلاة من غير الزام بمدة السفر ، الذي اختلف فيه الفقهاء فقد رأى أن مطلق السفر يبيح الفطر وجمع الصلاة وقصرها [1] . يؤيد قوله بالبرهان العقلي والنقلي . ومن آرائه أن طلاق الثلاث دفعة واحدة يقع طلاقا واحدا كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] وأن الحلف بالطلاق إن لم يقصده يكون يمينا تجب الكفارة اذا حنث به ولا يقع به الطلاق . الى ما هو مبسوط في فتاواه ومجموعة رسائله[3] .

كما كانت هذه الحروب مجالا للبحث الفقهي في قتال التتر هل يجوز أم لا ؟ ومن أي قبيل هم؟ فإنهم يظهرون الاسلام وليسوا بغاة على الامام ، فانهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوا وخرجوا عليه ، يا للعجب من جمود هذه العقول !!.

فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين

---

(1) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٢ ص ٢ و ٣ و ٤ .
(٢) وخلافة أبي بكر وشطرا من خلافة عمر .
(٣) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٣ و ٥ و ٢٦ و ٣٦ و ٣٨ و ٤٦ و ٤٧ و ١٣٠ .

خرجوا على عليٍ ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالامر منهما . وهؤلاء يزعمون أنهم أحق باقامة الحق مـن المسلمين . ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم . وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة . . .

وكان يقول : اذا رأيتموني في ذلك الجانب ـ جانب التتار ـ وعلى رأسي مصحف فاقتلوني[1] ، وقد أفتى بالفطر مدة القتال، وأفطر هو أيضا وكان يدور على الاجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليقدروا على القتال أفضل لهم. وكان يتأول قـول النبي صلى الله عليـه وسلم : إنكم مـلاقو العدو غدا والفطر اقوى لكم[2] .

أما الحرية عند ابن القيم فستظهر فيما سيأتي ان شاء الله .

دور التعليم :

كانت المساجد في الصدر الاول هي المصدر الوحيد للعلم وطلابه . فقد كان مسجد الرسول الاعظم صلى اللـه عليه وسلم هو المنهل الوحيد لطلاب العلم بسائر مراحله من ابتدائي وثانوي وعال . ففيه تعلم بعض الصحابة القراءة والكتابة والفقه والتفسير وتلقوا عن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أحاديثه

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ و ٢٤ .
(٢) نفس المرجع ج ١٤ ص ٢٦ .

الشريفة ، ومنه تخرج أبو بكر وعمر وعلي وخالد وابو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص ومعاوية ، والعبادلة الاربع عبد اللـه بن عمر وعبد اللـه بن عمرو وعبد اللـه بن عباس وعبد اللـه بن مسعود . ومنه تخرج القراء والفقهاء وعلى هـذا المنهج كانت مساجد الامصار . بالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق ومصر ، ومساجد شمال أفريقيا ، كالقرويين والزيتونة وغيرهما ولا يزال أكثر المساجد المشهورة دوراً للعلم ، ومحلا للعبادة الى يومنا هذا وقد تخرج الكثير من كبار العلماء منها كالأزهـر ، والزيتونة ، والقرويين .

وأهم هذه المساجد التي يقصدها طلاب العلم في الديـار المصرية أربعـة :

١ ــ جامع عمرو بن العاص :

وهو أول مسجد أسس بديار مصر بعد الفتح الاسـلامي بمدينـة الفسطاط . ثـم زاد فيـه مسلمـة بـن مخلـد الانصاري سنة ٥٣ هـ ، وكـان يومئذ أمـير مصر مـن قبـل معاوية . وكان الولاة والحكام يتولون ترميمه وإصلاحه الى أن كانت سنة ٧٠٣ هـ اتفق الاميران بيبرس الجاشنكير . وهو يومئذ استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والامير سلار ، وهـو نائب السلطنة على عمارة الجامعين بمصر والقاهرة ، فتولى بيبرس عمارة الجامع الحاكمي بالقاهرة ، وهو المعروف الآن بالجامـع الحاكم بالنحاسين . وتولى سلار عمارة جامع عمرو بمصر ، وكان

بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه [1] منها زاوية الامام الشافعي رضي الله عنه يقال : إنه درس بها الشافعي فعرفت به . وظل الفقهاء والعلماء يدرسون بها مدة طويلة [2] .

ثم فصلت الزوايا عن المساجد وبنيت مفردة لوحدها يقصدها طلاب العلم وبقيت المساجد للعبادة خاصة .

٢ ـ الجامع الازهر :

انشأه القائد جوهر . ابتدأ في بنائه سنه ٣٥٩ هـ واتمه سنة ٣٦١ هـ وفي سنة ٣٧٨ هـ سأل الوزير ابو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله ان يعطي جماعة من الفقهاء . فاعطاهم ما يكفيهم . وبنى لهم دارا بجوار الجامع الازهر فكانوا يأتون اليه يوم الجمعة للصلاة ، فاذا فرغوا من الصلاة جلسوا للتدريس حتى صلاة العصر [3] .

٣ ـ جامع ابن طولون :

ابتدأ الامير أبو العباس أحمد بن طولون بناءه بعد بناء القطائع سنة ٢٦٣ هـ وأتمه سنة ٢٦٦ وبعد أن أتمه كان الناس يصلون فيه

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٤ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٥٤ .

الجمعة ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم . وفي سنة ٧٤٦ كان المنصور حسام الدين لاجين المنصوري سلطان مصر ، وفي عهده عمر الجامع وازال كل ما كان فيه من تخريب . وبلطه وبيضه ورتب فيه درسا للفقه على المذاهب الاربعة. ودرسا لتفسير القرآن الكريم، ودرسا للحديث، ودرسا للطب ، وقرر للخطيب معلوما ، وجعل له اماما راتبا ، ومؤذنين وفراشين وقومة ، وأنشأ بجانبه مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وفي سنة ٧٦٧ جدد الامير يلبغا العمر الخاصكي درسا بجامع ابن طولون ، فيه سبعة مدرسين للحنفية . وقرر لكل فقير من الطلبة في الشهر اربعين درهما واردب قمح[1] .

٤ ـ جامع الحاكم :

ابتدأ في انشائه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله . ثم اكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣ هـ وفي سنة ٧٠٣ أصلحه الامير بيبرس الجاشنكير ، ورتب فيه دروسا اربعة في الفقه على مذاهب الائمة الاربعة . ودرسا لاقراء الحديث وجعل لكل درس مدرسا وكثيرا من الطلبة . فكان مدرس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي . ومدرس الحنفية شمس الدين احمد السروجي الحنفي . ومدرس

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٤ ص ٣٦ ـ ٤٢ .

المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي . ومدرس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني ؛ وكان مدرس الحديث الشيخ سعد الدين بن مسعود الحارثي ؛ ومدرس النحو الشيخ أثير الدين ابا حيان ؛ ومدرس القراآت السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي (١) .

ومما يستلفت النظر ويسترعي الانتباه أن السلف كانوا لا يعينون للتدريس إلا فطاحل العلماء ممن حاز أعلى مراتب العلم . كما رأيت . فكل من درس في هذا المسجد حاز على لقب قاضي القضاة . وهي اعلى رتبة في مراتب العلم .

وبنيت المدارس لهذه الغاية أيضا كالمدرسة الصلاحية التي اسسها الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٧٣ هـ ؛ وكان ممن تولى التدريس بها قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، ثم قاضي القضاة تقي الدين بن رزين ، ثم قاضي القضاة تقي الدين بن بنت الاعز ثم قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد ؛ وقد توالى عليها العديد من مشاهير العلماء في ذلك العصر (٢) .

أقول لما كثرت المدارس ؛ كالمدرسة الكاملية في أواخر امرها سنة ٨٠٦ هـ والمدرسة الظاهرية ؛ التي بناها الظاهر

---

(١) الخطط المقريزية ج ٤ ص ٥٧ .

(٢) حسن المحاضرة .

بيبرس البندقداري قبيل انحطاطها ، والمدرسة المنصورية فى اواخر عمرها ، اصبحت هذه المدارس كما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس
بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس(١)

هذه المدارس والتكايا والزوايا بنيت في مصر ، وقد تخرج منها العلماء الاعلام من حفظ للناس دينهم ولغتهم وتراثهم المجيد . أمثال قاضي القضاة ابن جماعة وشمس الدين أحمد السروجي . وزين الدين علي بن مخلوف . وشرف الدين الجواني . وكلهم يحمل لقب قاضي القضاة وشيخ الاسلام ابن دقيق العيد .

أما المدارس في بلاد الشام ، وإن كانت أقل عددا فإنها لا تقل عنها فضلا وتخريجا لفطاحل العلماء الاعلام ، كالامام النووي وابن تيمية . والعز بن عبد السلام ، وابن القيم ، ولو أتيح

---

(١) الخطط المقريزية ج ٥ ص ٩٩ الابيات ذكرها المقريزي .

الشام مفاتيح مصر من حيث الاستقرار والبعد عن مسرح الحروب الصليبية والمعونية التترية . فربما كانت تفوق مصر أو تجاريها . فعين جالوت ومرج دابق ومرج الصفر وعشرات أمثالها كانت بلاد الشام مسرحا لها .

أما المدارس العلمية التي كانت في بلاد الشام . يقصدها طلاب العلوم المختلفة من شتى الاقطار . لتلقي العلم فيها . فقد ذكر منها صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس عشرات كما ذكر من الخوانق والربط والزوايا والتكايا ما لا يقع تحت حصر (١) .

ومن أشهر هذه المدارس المدرستان : العادلية الكبرى والمدرسة الظاهرية . .

١ ــ المدرسة العادلية :

أمر بانشائها نور الدين محمود بن زنكي وهي داخل دمشق تجاه باب الظاهرية . يفصل بينهما الطريق العام . وقد توفي ولم يتم بناؤها . ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين . واليه تنسب ثم توفي ولم تتم . فأتمها ابنه الملك المعظم . وأوقف عليها أوقافا كثيرة ، وأول من درس بها جمال الدين المصري في

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٩ ــ ٣٦٧ .

حضرة السلطان المعظم سنة ٦١٩ . ثم قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خليل الحوبي المتوفى سنة ٦٢٣ .

ثم درس بها القاضي كمال الدين عمر أبو حفص بن بندار ابن عمر التفليسي . وفي سنة ٦٩٣ قدم القاضي بدر الدين بن جماعة على قضاء الشام ونزل في العادلية ودرس بها ، وكانت تتخذ أحيانا دارا القضاء .

وممن درس بها شيخ الاسلام قاضي القضاة تقي الدين السبكي . ثم ولده قاضي القضاة بهاء الدين أبو حامد أحمد المولود سنة ٧١٩ ؛ ثم درس بها أخوه العلامة قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ثم قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي ثم قاضي القضاة سراج الدين الحمي .

فكل المدرسين الذين تولوا منصب التدريس فيها كانوا قضاة . وهذا يعطينا فكرة عن مدى ما لهذه المدرسة من أثر بالغ في الثقافة [1] .

٢ ـ المدرسة الظاهرية :

بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٠ هـ وكان فيها فقهاء الحنفية . والشافعية . وأول من درس فيها الشيخ صدر الدين سليمان من الحنفية . وكان شيخ الحنفية وعالمهم شرقا وغربا . أقام مدة بدمشق يتولى التدريس والافتاء ؛ ثم

---

(١) المصدر السابق .

انتقل الى الديار المصرية . وكان جريئا لا يحابي أحدا في الحق ولو كان سلطانا •

أراد السلطان مرة أن يفتي بما يوافق هواه فأبى . وقال : « هذه الاملاك بأيدي أربابهـا ، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ، [انظر] ثم نهض من المجلس وذهب . فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ثم سكن غضبه . وكان بعد هذه الحادثة يثني عليه ويمدحه ويقول : لا تثبتوا كتابا الا عنده » [1] •

وقد ذكر الدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين في كتابه عن ابن القيم من الخوانق والربط والزوايا والتكايا الشيء الكثير •

المـؤلفـات :

كان من نتيجة هـذه النهضة العلمية أن ظهـرت مؤلفات قيمة في الشريعـة الاسلامية واللغـه العربية . لا تـزال مرجعا للمسلمين الى يومنا هـذا . فكـان للشافعية كتب في الفقـه والاصول . وللحنفية والمالكية والحنابلة كذلك لا تزال هي المقـررة في التدريس . أو يستمد منهـا المؤلفون المحدثون في انتاجهم العلمي . وقـد ظهرت في تلـك الفترة تفاسير للقرآن الكريم . وكتب في الحديث ومصطلحه . كـذلك ظهرت كتب التصوف والعقائد •

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٩ .

وقد ألف ابن تيمية مئات المؤلفات معظمها في المناظرة والجدل مع الغلاة ومع أهل السنة الجامدين ، فقد كانت فتحا جديدا في عالم التأليف . اذ خرج من المألوف من التآليف المعاصرة . والتي كانت أشبه بحاطب ليل ينقل المتأخرون عن المتقدمين أقوالهم من غير نظر الى دليل من كتاب أو سنة .

فقد كان حرا لا يتقيد بقول أحد ما لم يعلم دليل القائل من الكتاب والسنة . وهذا ما أضرم نار العداوة والبغضاء بينه وبين الفقهاء .

من هذا الضرب الخلاف بين السبكي وغيره من العلماء حتى جلس السلطان للصلح بينهم [1] هذه الخلافات هي التي حاكت الدسائس لابن تيمية وتلميذه ابن القيم وسبب له الحبس مرة ، إثر أخرى حتى مات مسجونا . ومن الغريب أنه ظل طول حياته يحارب البدع ويدعو الى التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما فلما قضى نحبه اجتمع الشيوخ حول سريره يتلون القرآن الكريم على روحه ! ! [2] .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣١٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

يقول الدكتور عبد العظيم شرف الدين في كتابه عن ابن القيم : إن حياة جماعة يسودها القلق الاجتماعي . والاضطراب الداخلي ، الى جانب الاضطرابات الخارجية ، تهدد بالقضاء على كيان الامة وإيقاف الجهاز العام للدولة . ولذا هب ابن القيم يدعو الى الاتحاد ، ونبذ الفرقة والاخذ بالكتاب والسنة النبوية الصحيحة ، عملا بقول الرسول : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي »[1] .

« طريقة ابن القيم في التأليف ، وطريقة ابن تيمية . » .

أما تآليف ابن تيمية ، فيغلب عليها صبغة المناظرة والجدل بصورة ظاهرة يدل على ذلك أسماء مؤلفاته فمنها :

— الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .
— التحفة العراقية في الاعمال القلبية .
— الفرقان بين الحق والباطل .
— الواسطة بين الخلق والحق .
— الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
— اثبات المعاد والرد على ابن سينا .
— ثبوت النبوات عقلا ونقلا وفيه كلام جيد عن المعجزات والكرامات .

---

(1) ابن القيم عبد العظيم شرف الدين ص ٦٦ .

ـ منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة القدرية ، وهو أشهرها .

وله من المؤلفات المسائل في خمسة مجلدات ، والرسائل في مجلدين ، وكلها في الجدل والمناظرة ، واقرار الحق ، وتدل على علم غزير واطلاع ليس له نظير .

أما مؤلفات ابن القيم ، وإن كان فيها شرح للكثير من آراء شيخه ابن تيمية فاسلوبه هادىء سهل رصين ، كما سترى عند الكلام عن مؤلفاته .

وكان الطابع العام للمؤلفات التي ظهرت في ذلك العصر :

أولا ـ المؤلفات الشرعية لما للدين في نفوس الامة من المكانة السامية ، كالتفسير ، وشرح الحديث ، والفقه ، وكانت اللغة العربية في المنزلة الثانية ، لأنها تخدم العلوم الشرعية .

وقد ظهرت كتب في اللغة ، هي المرجع لعلماء اللغة اليوم ففي النحو والصرف ظهر كتاب :

١ ـ الألفية لجمال الدين بن مالك الاندلسي [1] .
٢ ـ كتاب الكافيه الشافية .
٣ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد .

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ـ هو محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين المتوفى سنة ٦٧٢ .

وظهر لجمال الدين بن هشام المصري (١) المتوفى سنة ٧٦١ كتاب المغني ــ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب •

٥ ــ شذور الذهب •

٦ ــ قطر الندى وبل الصدى •

٧ ــ الجامع الصغير •

٨ ــ الروضة الادبية في شواهد علوم العربية •

البلاغـة والمعاجم :

فمن أشهر ما ألف في البلاغـة :

١ ــ تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي لخصه جلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧١١ •

٢ ــ شرح التخليص للقزويني أيضا •

المعاجـم :

١ ــ لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو أشهر من أن يذكر •

٢ ــ المصباح المنير لاحمد بن علي المقري الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ •

---

(١) هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن عبد الله المصري ومن مؤلفاته : موقد الاذهان ، وموقظ الوسنان . الاعراب عن قواعد الاعراب ، حسن المحاضرة ج ١ ص /٢٣٠/٢٣١/ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٢ ص ١٤٣ .

التاريخ والتراجم :

١ ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ .

٢ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . المتوفى سنة ٧٦٤ هـ وهو ذيل لوفيات الاعيان . ذكر فيه نحو ٥٥٠ ترجمة .

٣ ـ الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وهو في خمسين مجلدا ترجم فيه لاعيان الصحابة ، والأولياء . والنحاة ، والادباء ، والشعراء ، والاطباء . والحكماء ، وأصحاب النحل والبدع ، وأعيان كل فن .

٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر .

٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة في ثمان مجلدات .

٦ ـ تهذيب التهذيب .

٧ ـ رفع الاصر عن قضاة مصر .

٨ ـ لسان الميزان ، وهذه المؤلفات كلها لابن حجر .

كتب التاريخ العام :

١ ـ منها المختصر في أخبار البشر ، ألفه الملك المؤيد اسماعيل المعروف بأبي الفداء ، المتوفى سنة ٧٣٢ وهو في أربعة أجزاء ، كان أميرا على دمشق وخدم الملك الناصر وهو في

الكرك . فوعده بحماة ، ووفى له بوعده ، وجعله سلطانا عليها . ولذلك سميت حماة بمدينة أبي الفداء .

٣ ــ تتمة المختصر في أخبار البشر . لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٧٤ .

٣ ــ البدايــة والنهايــة . لاسماعيل أبي الفداء الشهير بابن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ .

العلوم الطبيعية والرياضية :

وهي تشمل الطب والهندسة والسياسة والاجتماع والفلك

١ ــ بذل النصائح الشرعية . فيما على السلطان وولاة الامور وسائر الرعية لنجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة المصري ، المتوفى سنة ٧١٠

٢ ــ محاسن الملوك .

٣ ــ تقويم البلدان لابي الفداء صاحب حماة .

الاجتمـــاع :

١ ــ ان أول من آلف في هذا الموضوع هو ابن خلدون في مقدمة كتابه التاريخ ، وقد اشتهرت بمقدمة ابن خلدون .

٢ ــ أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، وسيأتي ذكره عنــد ذكر مؤلفاته .

التخصص في العلوم :

ان التخصص في العلوم من أكبر عوامل النبوغ لذا رأينا فطاحل العلماء . يتخصص بعلم أو فن ، فينبغ فيه حتى يكون مرجعاً وموئلا لغيره يعول عليه في فنه فهناك الحفاظ ، والفقهاء ، وعلماء اللغة . والمفسرون . والمؤرخون ،والقراء ، تعد منهم عشرات وأما سواهم . ممن كان علمه علم الأديب له من كل فن حظ ونصيب فيمكنك ان تعد منهم . مئات ومئات .

أما من نبغ في اكثر من علم . فذاك قل أن يجود الزمان بمثله في عدة قرون . وهو من اذا قرأت له . أو قرأت عنه ، أو ذاكرته في أي علم شئت حسبت أنه لايحسن سواه وأنه يفوق المتخصصين في هذا العلم . ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم . كما سيأتي معنا في الكلام عنه .

وان مما نفتخر به . ونعتز فيه ، أن أول من أرشد الى التخصص . وأمر به . هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . اذ يقول : « أفرضكم زيد ، وأقرؤكم أبي ، وأقضاكم علي » .

الحفاظ :

١ — اشتهر منهم الدمياطي ، وهو شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الشافعي المتوفى سنة ٧٠٥ ، قال المزي : ما رأيت في الحديث أحفظ منه ، وكان فقيها نسابة .

٢ ـ ابن أبي شامة المتوفى سنة ٧٠٨هـ كان فقيها حافظا نسابة.

٣ ـ ابن دقيق العيد . كان من المجتهدين الحفاظ توفي سنة ٦٥٢. وكان ثناء العلماء عليه كثيراً جداً. قال ابن السبكي في طبقاته: هو شيخ الإسلام . الزاهد الورع . الناسك المجتهد المطلق . وقال أبو حيان : هو أشبه من رأينا يميل الى الاجتهاد . وقال تاج الدين السبكي : لم أر من أشياخنا من يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة .

٤ ـ السبكي . هو تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الكافي كان فقيها . محدثا . مفسرا . مجتهداً . وقال ابنه : قال الشيخ شهاب الدين : جلست بسكة بين طائفة من العلماء وقعدنا نقول : لو قدر الله بعد الأئمة الأربعة في هذا الزمان مجتهداً عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهبا من المذاهب الاربعة لازدان الزمان به وانقاد الناس له . فاتفق رأينا أن هذه المرتبة لاتعدو الشيخ تقي الدين السبكي ولا ينتهي لها سواه [1] .

٥ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام. شيخ الاسلام وسلطان العلماء ولد سنة ٥٧٨ وتوفي سنة ٦٦٠ برع في الفقه والاصول والعربية . حتى بلغ رتبة الاجتهاد قال ابن كثير : انتهت اليه رياسة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ .

المذهب ، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ، وقد تمكن من العلم حتى أفتى بما يؤدي اليه اجتهاده . قال تلميذه ابن دقيق العيد : كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء [1] (يفهم من هذا ان للعلم سلاطين ولكن ابن عبد السلام أشهرهم) .

٦ ــ ابن المنير الاسكندري ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٨٣ قال العز بن عبد السلام : الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها ابن دقيق العيد بقوص . وابن المنير بالاسكندرية ، أقول : كما ان ديار الشام تفتخر برجلين : ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ومن تتبع سيرتهما يعلم صحة ذلك ، اذ أن علماء مصر والشام في كفة وابن تيمية وتلميذه ابن القيم في كفة . وكثيرا ما رجحت كفة ابن تيمية منفردا على سائر العلماء مجتمعين [2] .

ثم لو ذهبنا نذكر من اشتهر من العلماء الاعلام ، في تلك الحقبة من الزمان ، لطال بنا القول ، ومن اراد الاستقصاء فليرجع الى كتاب الدرر الكامنة ، في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في تراجم رجال القرن التاسع ، وطبقات الحنابلة لابن رجب ، وطبقات الشافعية للسبكي .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٧ .
(٢) فتاوى ابن تيمية العقيدة الحموية

الباب الثاني

مَولِدُه ، نشأته ، حَياته



على يمين الزائر لمدينة دمشق عن طريق الميدان ــ ميدان الحصى ــ من جهة الجنوب ، جانب مدخل مقبرة الباب الصغير مدفن جددت واجهته حديثا ، على طراز حديث . كتب على واجهته « هذا قبر الإمام الحافظ ناصر السنة ، صاحب التصانيف المفيدة أبي عبد اللـه محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، تغمده اللـه برضوانه ولد بدمشق سنة ٦٩١ هـ وتوفي فيهـا سنة ٧٥١ هـ »

يحوي المكان بضع شجرات خضراء وأزاهير ندية ، حول جدث من التراب ضم جبل علم أشم ، عالي الذرى ، بل طوى بحر معارف خضم ، يسوج ثبجه بأنوار التقوى ، وأشعة الاصلاح .

وانك لتشعر وأنت واقف أمام هذا المـدفن الحديث ، برمزين اثنين : التجدد ونمو الاصلاح ، فالتجدد من اشادة البناء على طراز حديث ، غير ما كان يشاد على قبور العلماء والصالحين من القباب . ونمو الاصلاح من نمو شجيراته المورقة ، وأزاهيره العطرة .

ولئن استلفت الانظار هذا البناء ، بما يوحيه من أسرار ، فلا عجب ، فقد استوقفت مؤلفات ساكنه أفكار العلماء المصلحين بما حوت من علم جم ، ومعارف واسعة . واصلاح ديني منشود .

إن الواقف أمــام هذا المدفن ليأخذه العجب . ويستثيره الدهش ، عندما يعلم أن ســاكنه ابن القيم هــذا له باع طويل في جميع العلوم الاسلامية . ومذاهب أهل الاديان على اختلاف مللهم ونحلهم . وله في كل فن مؤلفات واسعة . فاذا ما قرأ لــه المرء كتابا في أي فن شــاء حسب أنه لايتقن سواه . ثم أيقن أنه لم يكتب في موضوعه أجود منه . يظهر هذا جليا في دراستنا لــه اليوم .

والذي زاد في تألق كوكب سعده . وتشييد صرح مجده . كونه نشأ في منتصف القرون الوسطى . تلك القرون المظلمة . التي أخرت مدنية الانسان قرونا طوالا . بما سببته الحروب المغولية والصليبية ، مدة قرنين ، قبل مولده وقرون بعــده . وما ذاقته البــلاد من ملوك الطوائف ــ المماليــك ــ والفتن الداخلية أدهى وأمر .

ولد رحمه الله سنة ٦٩١ هـ وتوفي سنة ٧٥١ هـ كما حققه الدكتور عبد العظيم شرف في كتابه عنه أي : كانت ولادته بعد جلاء الصليبيين بعام واحد .

في تلك الايام السوداء . والعصور المظلمة . ولد شيخ الاسلام محمد بن أبي بكر أبو عبد الله الشهير بابن القيم ، فلم تكن لتمنعه تلك الاحداث عن ورود منهل العلم العذب ، ولم تصده ضروف الليالي وسوء الحالة الاجتماعية والسياسية . عن السمو الى سماء المجد ، فبينما الناس في عصره مقبلون على الدنيا . عن طريق السياسة ومظاهرة الملوك . والتزلف اليهم ، نراه يقبل على ربه ويرتمي على عتبات عبوديته عن طريق العلم والمعرفة والمجاهدة ، ولم يمنعه العلم والعبادة عن أن ينال نصيبه من الدنيا ، فقد كان رحمه الله ذا حظوة عند الامراء ، محبوبا لديهم ، لما عهدوا فيه من الاخلاص والتقوى ، والصلاح ، والدعوة الى الاصلاح ، مما حمل بعض حساده ومنافسيه على الوشاية به عند السلطان ، فحبس وأهين وضرب وطيف به على جمل . كان ذلك من بعض امراء المماليك . تمشيا مع مصالحهم ، لعوامل سياسية يضطر اليها ولاة الامور ، في بعض الاحايين . وكل ذنبه لديهم أنه كان — رحمه الله — قوالا للحق،صادعا به، لا تأخذه في قول الحق لومة لائم ، ولا ينفع معه عذل عاذل . اذا كان يعتقد ان الحق بجانبه ، ولا يبالي ولو خالفه أهل الارض .

ثم ان ما لحقه من المحن من ولاة الامور — الذين يخشون على مراكزهم المزعومة ، ورئاستهم الموهومة ، من أن تصيبها

عاصفة حق ، من ذلك المصلح العظيم ــ قليل بالنسبة لما رأيناه في عصره من قتل الملوك بعضهم بعضا . والغدر بهم بأيدي خدمهم وأرباب نعمهم ومماليكهم •

ولد رحمه اللــه من ابوين صالحين ، ونشأ في بيت علم ودين وورع وصلاح ، وكان ابوه رحمه اللــه قيما للمدرسة الجوزية الواقعة في آخر سوق البزورية في دمشق ، وقد افتتحتها جمعية الاسعاف الخيرية،وجعلتها مدرسة لتعليم الاطفال الايتام، ثم انهــا احترقت سنة ١٩٢٥م أثنــاء الثورة السوريــة على الافرنسيين ، ثم اعيد بناؤها الآن •

وقبل ان يبلغ سن الرشد انبرى لطلب العلم ، وكان فــي طلبه للعلم حرا مختارا لا مستعبدا لشيخ من الشيوخ ، كما نرى عند بعض طلاب العلم اليوم . اذ يقتصرون على شيخ واحد أو يحجر عليهم شيوخهم . فيحتجزونهم لانفسهم ليظهروا بمظهر المرشدين والمربين •

فالطالب الذي يقتصر على استاذ واحد . يتلقى عنه علوم الاولين والآخرين يظل جاهلا بكل شيء عاريا عن كل شيء ، وان ما نراه من نبوغ بعضهم مرجعه تلقي العلم من شيوخ كثيرين ، اما مباشرة . واما بالاطلاع على مؤلفاتهم . وان من يدأب على المطالعة في مختلف كتب العلوم والفنون ، والمجــلات علــى

اختلاف مناهجها ، يتسع افقه العلمي ويصفو ذهنه ويستنير فكره ويكوّن لنفسه شخصية علمية فذة ذات طابع خاص ، فيتصل بعالمه الذي يحيى فيه اتصالا مباشرا ، فيشعر بشعور قومه ، ويتألم لالمهم . ويرى نواحي الضعف فيهم ، فيعمل على اصلاحهم وارشادهم الى الطريق السوي ، ويصبح جزءا متمما لامته ، بعكس المنقطع في غرفته القابع في عزلته المتمم لشخصية أستاذه ، يدفن نفسه بين المتون والحواشي والتقريرات ، فما حياة مثل هذا الا هامش متسلط على حاشية الحياة .

تلقي العلم في زمن ابن القيم

اما في زمن ابن القيم تغمده الله برحمته . فقد كان تلقي العلم عن العلماء مباشرة أسهل منه في الازمنة المتأخرة لوفرة العلماء آنذاك ، وعدم ارهاق الطالب بالنفقات التي ينوء بها كاهله أو كيس من يعوله ، ولم تكن يومذاك فكرة استعباد الطالب منتشرة بين العلماء . كما هو مشاهد اليوم من بعض من يزعم أنه من العلماء ، اذ يكوّن حوله عددا من الطلاب فيلقي في روعهم أنه هو المرشد الوحيد . وما عداه فشيطان مريد . أو ضال عنيد ، فيناصبونه العداء . ويظهرون له العداوة والبغضاء ، وهذا من أحط الاخلاق المزرية بالعلماء .

لقد كان علماء السلف يفتخرون بكثرة شيوخهم ، فهذا

الامام البخاري رحمه اللـه زاد عدد شيوخه عن الالفين . وبالرجوع الى تراجم اعلام الاسلام ، ترى من هذا النسط العجب العجاب . ولذلك نرى ابن القيم وامثاله من نوابغ الاعلام الذين خلد الدهر أسماءهم ، كانوا يتلقون كل علم عن نوابغ المتخصصين فيه .

شيوخه ومن تلقى العلم عنهم :

١ ـ اخذ الحديث عن الشهاب النابلسي العابر ، والقاضي تقي الدين سليمان ، وابي بكر بن عبد الدائم ، واسماعيل بن مكتوم ، وفاطمة بنت جوهر ، ومن في طبقتهم .

٢ ـ وتلقى العربية عن أئمة اللغة ، كأبي الفتح ، والمجد التونسي .

٣ ـ وتلقى الفقه على المجد الحراني .

٤ ـ وأخذ الاصول على الصفي الهندي .

٥ ـ ولما كان والده ـ ابو بكر ـ له اليد الطولى في الحساب والفرائض ، اخذهما عنه . ولما تم تحصيله على كبار شيوخ عصره مباشرة ، واصبحت لديه ملكة علمية يقدر معها على الفهم الصحيح ، وتمييز وترجيح الاصح . أخذ يدرس على من سلف من أهل العلم كل فن بواسطة المطالعة والاطلاع على ماتبقى من كتب السلف ـ بعد نكبة هولاكو العلمية ـ فقد كان

رحمه اللـه دؤوبا على المطالعة صبورا مغرما بجمـع الكتب ، ولهذا اجتمع لديه من الكتب مالم يجتمع عند غيره من العلماء أو الامراء ، شديد الحفظ لما يقرأ . لا يكاد ينسى معنى ما قرأ . وان اختلف اللفظ بعض الاختلاف . وسنرى هـذا جليـا عند استعراضنا لاقواله ومروياته .

تلاميذه ومن اخذ عنه :

١ ـ من تلاميذه الذين اخذوا العلم عنه الحافظ زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن ابن رجب صاحب الذيل على طبقات الحنابلة .

٢ ـ وتتلمذ عليه . شمس الدين محمد بن عبد القـادر النابلسي . صاحب مختصر طبقات الحنابلة لابي يعلى .

٣ ـ ومنهم ولده عبد اللـه الذي تولى منصب التدريس بالصدرية بعد وفاة والده .

٤ ـ ومنهم ابن كثير صاحب البداية والنهاية .

اقوال العلماء فيه وثناؤهم عليه :

وأشهرهم ابن رجب تلميذه الذي اثنى عليه وشـهد لـه بالتقدم . واعترف بأنه قد تتلمذ عليه واخذ عنه . قال : وكان رحمه اللـه ذا عبادة وتهجد وطول صلاة ، الى الغاية القصوى ، لم أشاهد مثله في ذلك . ولا رأيت أوسع منه علما . ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الايمان منه ، وليس هو بالمعصوم ،

ولكن لم ار في معناه مثله ، ولا زمت مجلسه قبل موته ازيد من سنة ، وسمعت عليه قصيدته النونية وهي « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » وفيها يرد على الفرق المختلفة المخالفة لاهل السنة ويثبت مذهب أهل السنة بالادلـة العقلية والنقلية ، وسمعت عليه اشياء من تصانيفه وغيرها ، وأخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه الى ان مات . وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون عليه ، كابن عبد الهادي وغيره .

٢ ـ ومنهم ابن كثير ، الـذي شهد له ، وأثنى عليه . واعترف بصحبته له قال : وكـان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحدا ، ولا يؤذيه ، ولا يستغيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له ، وأحب النـاس اليه .

٣ ـ قال الحافظ ابن ناصر الدين الشافعي : الشيخ الامام العلامة ، شمس الدين أحـد المحققين . علـم المصنفين ، نادرة المفسرين ، له التصانيف الانيقـة ، والتآليف التي في علـوم الشريعة والحقيقة .

٤ ـ وقال الحافظ السيوطي : وصار من الأئمة الكبار ، في التفسير والحديث والفروع والاصلين والعربية .

٥ ـ وقال قاضي القضاة عبد الرحمن التفهني الحنفي : تلميذه ـ أي ابن تيمية ـ ابن قيم الجوزية، الذي سارت تصانيفه

في الآفاق . وقال أيضا : ولو لم يكن له من آثاره الا ما اتصف به تلميذه ابن قيم الجوزية من العلم لكفى .

٦ ــ وقال الشيخ ابراهيم الكوراني الشافعي : ثم إن ابن القيم وإن كان على عقيدة شيخه كما عند المشنعين عليهما ، فتبرئة شيخه ــ عما نسب اليه ــ تبرئة له أيضا . وتصحيح اعتقاده وتطبيقه على الكتاب والسنة وعقيدة السلف تصحيح لاعتقاده وتطبيق .

٧ ــ وقال ملّا علي القاري فيه وفي شيخه : ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة . ومن أولياء هذه الامة .

٨ ــ وقال محمد المقري : هو أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية .

٩ ــ وقال صديق بن حسن خان : الحبر العظيم الشان . الرفيع المكان .

١٠ ــ وقال السيد نعمان الآلوسي : وآخر من سدد هذا المذهب « الحنبلي » ونقح وهذب ، آل قدامة ، وآل تيمية ، وابن قيم الجوزية ومن أخذ عنهم في البلاد الشامية .

هذا بعض ما قاله فيه علماء عصره ومن بعدهم ــ مع ما نرى من البغضاء والشحناء بين علماء عصرنا الحاضر . ولكن سيرة السلف ترينا أن الحسد لم يعرف الى نفوسهم الزكية سبيلا ، وإن ما مر بنا ، وما سنراه من مناوأة وعداوة

ووشاية . فالذي قام به وحمل كبره منهم غوغاء العلماء الهمازون اللمازون الحسادون . الذين لا يطيقون أن يروا نعمة علـى ذي نعمة . وإن كان من خلصائهم أو ذوي قرابتهم .

. **محنتـه :**

مر معنا أنه أهين وضرب . وطيف به علـى جمل . بسبب تشيعه لآراء شيخه ابن تيمية وتعصبه لأقواله فقد أصابه ماأصاب شيخه مـن أذى فاعتقل معه بالقلعة . وحبس مرة لإنكاره شد الرحيل الى قبر الخليل . وجرت لـه محنة مـع القضاة ـ أي علماء الرسـوم أو العلماء الموظفون ـ بسـبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل . فأنكر عليه السبكي . وطلبه فرجع عما كان أفتى به [1] .

ولئن أهين وحبس وضرب . لتمسكه بما يراه الحق فلـه أسوة بصالح السلف فقـد رأينا الامام مالكـا يضرب بأمر أبي جعفر المنصور ، حتى ينحل صلبه . فلا يكاد يستطيع أن يمسك بوله . ودامت عاهته تلك الى أن لقي وجه ربه ، وهـذا الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، يضرب ويحبس ويموت في السجن لامتناعه عن تقلد القضاء بأمر أبي جعفر المنصور، وهذا الامام أحمد، يضرب

(١) وقد أطال الكلام علـى محنته ابن حجر في الدرر الكامنة بما يقرب من أربع صفحات ج ٣ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٣ .

بالسياط ويعذب مدة سنتين ونيف بأمر المعتصم . والواثق حتى انخلعت كتفه .

ويحسن بنا ذكر سبب محنته التي أشرنا اليها سابقا ـ وهي فتواه بجواز المسابقة بغير محلل ـ وإيضاح ذلك : أن الشافعية ، والحنفية ، وأحمد يرون أنه اذا تراهن شخصان على أمر ، وكان البذل من أحدهما كانت جائزة ، كأن يقول أحد المتسابقين : إن سبقني كان لك كذا وكذا ، وإن لم تسبقني لا عليك ولا لك ، أما اذا بذل كل من المتراهنين شيئا ، لم يجز السباق ، وكان قمارا إلا اذا أدخلا بينهما محللا أي : شخصا ثالثا ، وبدونه يكون كل من المتسابقين عرضة لأن يأخذ اذا سبق ويؤخذ منه اذا سبق ، فلو أدخلا بينهما ثالثا يأتي بفرس كفء لفرسيهما ولا يدفع شيئا . فان سبقهما أخذ ما دفعاه ، وإن سبق المحلل مع أحدهما ، اشترك والسابق في مال الاخير . وإن سبقاه ، أخذ كل منهما ما دفعه ، ولم يغرم المحلل شيئا [1] .

---

(١) الفروسية الشرعية النبوية لابن القيم ١٩ ، وبدائع الصنائع للكاساني ج ٦ ص ٢٠٦ والمهذب لابي اسحاق الشيرازي ج ١ ص ٤٢١ .

هذا رأي الشافعية والحنفية والحنابلة . وقد خالفهم ابن القيم . فرأى جواز المسابقة دون محلل ؟!! ، اذا كان الشرط من من كلا المتسابقين ، كما ذكرنا ، بل مال الى عدم جواز المحلل ، لأنه رأي لابن المسيب ، ولم يعهد عن أحد من الصحابة أنه قال به . ولم يتعبدنا الله عز وجل بقول أحد من الناس ، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، فقال في هذا المقام : والقول بالمحلل مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب . وأما الصحابة فلا يحفظ عن أحد منهم قط أنه اشترط المحلل ولا راهن به . مع كثرة تناضلهم ورهانهم ، بل المحفوظ عنهم خلافه [1] .

لمثل هذه الامور الفرعية المختلف فيها لدى الفقهاء ، كان العلماء الموظفون لدى الحكام يثيرون المشاكل تعصبا لمذاهبهم أو تزلفا للحكام . وكان الحكام تمشيا مع سياستهم وتزلفا للدهماء من أتباع هؤلاء العلماء يرون حبسه أخف الضررين ، وقد حبس منفردا عن شيخه ابن تيمية . ولم يفرج عنه الا بعد موت الشيخ ، وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، وفتح عليه من ذلك خير كثير وحج مرات

(١) الفروسية الشرعية ص ٣١ .

كثيرة . وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه [1] .

ثقافته :

من البدهي ـ بعد أن عانت بلاد الشام ما عانت . من حروب طاحنة . دامت ثلاثة قرون ونيفاً . والمسلمون يردون حملات الصليبيين المستعمرين . وهجمات التتر المفسدين . وقد استقرت الامور بعض الاستقرار ـ أن يتجه المصلحون الى ما تهدم من صرح الحضارة الاسلامية . فيعملون على اعادة بناء ما تهدم من ثقافة اسلامية عربية . لهذا قامت في مصر والشام نهضة علمية ، كان من آثارها أن ظهر علماء أجلاء . كانوا نجوما يهتدى بهم . بل كانوا حلقة اتصال بين العصر الذهبي للحضارة الاسلامية . وبين عصرنا الحاضر . ولو لا جهودهم ، في الاشتغال بتحصيل العلوم والمعارف . لما تركوا لنا هذه الذخيرة المباركة من التآليف التي جل اعتمادنا في العصر الحاضر عليها ، ولا زالت آثارهم شاهدة على ما بذلوه من وقت وجهد في سبيل الحفاظ على هذا التراث المجيد . وكان الطابع البارز لهذه النهضة المباركة . هو الطابع الديني . ولهذا

(1) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٤٤٨ .

رأينا فطاحل العلماء يلقبون بهذه الالقاب . فخر الدين . وتاج الدين . وعز الدين . وشرف الدين . وبهاء الدين . وزين الدين . ونور الدين . وأثير الدين . وشمس الدين الخ .

وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى رجلا نشأ في تلك الفترة النيرة . والحقبة المزهرة . وتغذى بهذه الثقافة وتمثلها ، أن يخرج للناس كتبا في مختلف العلوم والفنون . تكون مرجعا للعلماء الى يومنا هذا . ذلك الرجل العلم هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية .

ولئن كان الدهر خلد أسماء علماء ، ترك أحدهم كتابا أو كتابين . في علم ما كالتفسير . والحديث ، والفقه . واللغة . فقد ترك ابن القيم المعالم الاسلامي عشرات من الكتب المتداولة المشهورة المطبوعة . وأضعافها من المخطوطات المبعثرة في رفوف المكاتب الخاصة والعامة . ومثلها مما لم يصل الينا إلا أسماؤها فقط . وسيأتي مصداق ذلك عند ذكر مؤلفاته .

لقد وجد ابن القيم رحمه الله السبيل أمامه ممهدا للدراسة الشرعية والعربية وعلم الكلام والتصوف والفقه والسيرة . وكانت عنده رغبة صادقة للمطالعة وجلد عظيم . فكان يقرأ ما نالته يده من المؤلفات في شتى العلوم والفنون . وقد حباه الله حافظة واعية . حتى لا يكاد ينسى ما قرأ وإن كان يورد أحيانا بعض ما وعاه بالمعنى . وذلك فضل من الله عظيم .

مؤلفاته في العلوم الاسلاميـة

١ ــ ألف في الفقه والاصول : إعــلام الموقعين عن رب العالمين في ثلاثة أجزاء . والطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، والصلاة واحكام تاركها .

٢ ــ وفي التصوف : مدارج السالكين شــرح منــازل السائرين . وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين . وحادي الارواح الى بلاد الافراح .

٣ ــ وفي علم الكــلام والجدل : شفاء العليل في مسائل القضاء والقــدر والحكمــة والتعليل . الصواعق المرسلة علــى الجهسية والمعطلة . اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهسية . الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية .

٤ ــ وفي الفقه والسيرة : زاد المعاد في هدى خير العبــاد وهو سيرة الرسول الاكرم صلى اللــه عليه وسلم وغزواته وفيه الى جانب ذلك أبحاث فقهية قيمة .

٥ ــ وفي التاريخ والاجتماع : أخبار النساء وهــو يمثل جانبا من جوانب المجتمع ، فهو اذن فقيه متكلم محدث مفسر .

مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمحفوظــة في المكاتب العامة والخاصة وما وصل الينا اسمه ولم نر له عينا ولا أثرا .

المؤلفات المطبوعـة :

١ ــ اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو الفرقة الجهمية ، طبع في امر تسر الهند سنة ١٣١٤ هـ .

٢ ــ أخبار النساء طبع في مصر سنة ١٣٠٧ وسنة ١٣١٩ هـ

٣ ــ إعلام الموقعين عن رب العالمين . طبع في دلهي الهند سنة ١٣١٣ وفي مصر سنة ١٣٢٥ وطبع مرة أخرى في مصـــر بلا تــاريخ .

٤ ــ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان طبع في مصر سنة ١٣٢٢ هـ

٥ ــ إغاثة اللهفــان من مصائد الشيطان ، طبع في مصر سنة ١٣٢٠ هـ

٦ ــ بدائع الفوائد ، طبع في المطبعة المنيرية في مصر .

٧ ــ التبيان في أقسام القرآن ، طبع في مكة المكرمة سنة ١٣٢١ هـ .

٨ ــ تحفة المودود في أحكام المولود ، طبع في لاهور الهند سنة ١٣٣٩ .

٩ ــ تفسير سورة الفاتحة والمعوذتين . طبع في مصــر

١٠ــ جلاء الافهام في ذكر الصلاة على خير الانام ، طبع في الهنــد .

١١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ويسمى الداء والدواء طبع في مصر سنة ١٣٤٦ ه وفي الهند سنة ١٣٠٧

١٢ ـ حادي الارواح الى بلاد الافراح . طبع مع اعلام الموقعين في مصر سنة ١٣٢٥ ه ؛ وطبع ـ وحده ـ منفردا .

١٣ ـ حكم تارك الصلاة : طبع مع كتاب الصلاة وما يلزم فيها للامام أحمد، باسم الصلاة وأحكام تاركها سنة ١٣٢٣ه

١٤ ـ الروح . طبع في حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ سنة ١٣١٨ و سنة ١٣٢٤ وقد اختصره برهان الدين البقاعي . وأسماه سر الروح طبع في مصر سنة ١٣٢٦

١٥ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين طبع في دمشق سنة ١٣٤٩

١٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد . طبع في كانبور الهند سنة ١٢٩٨ وطبع في مصر سنة ١٣٢٤ و سنة ١٣٤٧

١٧ ـ شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل طبع في مصر سنة ١٣٢٣

١٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، طبع في مصر سنة ١٣١٧ ه .

١٩ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين . طبع في مصر سنة ١٣٤١ و ١٣٤٩ ه

٢٠ ـ الفروسية المحمدية طبع في مصر

٢١ ـ الفوائد . طبع في مصر .

٢٢ ـ الفوائد المشوق الى علـوم القرآن وعلم البيان ، طبع في مصر سنة ١٣٢٧

٢٣ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقـة الناجيـة ، طبع في الهند ثم في مصر سنة ١٣١٩ هـ •

٢٤ ـ مدارج السالكين بين منازل اياك نعبـد وإياك نستعين ، طبع في مصر سنة ١٣٢٣ •

٢٥ ـ مفتاح باب السعادة ومنشور لواء العلم والارادة طبع في مصر سنة ١٣٢٣

٣٦ ـ مصايد الشيطان ، طبع سنة ١٣٢٠ (وفي المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة بخط المؤلف)

٢٧ ـ هداية الحيارى من اليهود والنصارى ، طبع في مصر سنة ١٣٢٣ وطبع في مصر مع كتاب الفارق بين المخلوق والخـالق سنة ١٣٢٢

٢٨ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب ، طبع في الهند ، ثم في مصر ، ثم في دمشق •

٢٩ ـ تهذيب مختصر سنن أبي داوود وايضاح مشكلاته ، والكلام على مافيه من الاحاديث المعلولة ، والمختصر للحافـظ المنذري •

هذا ما وصل الينا علمه من كتبه المطبوعة ولعل هناك مـن الكتب ما لم نطلع عليه •

أما كتبه المخطوطة المحفوظة في المكتبات العامة والخاصة ، والتي تنتظر اليد الكريمة لتخرجها من الظلمات الى النور ، فإليك جدولا بأسماء ما عثرنا عليه ، مما ذكرها له المؤرخون :

١ ـ أمثال القرآن جمع مثل •

٢ ـ بطلان الكيمياء من اربعين وجها •

٣ ـ التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير •

٤ ـ التحفة المكية •

٥ ـ تفضيل مكة على المدينة •

٦ ـ جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان

٧ ـ حرمة السماع •

٨ ـ حكم إغمام هلال رمضان •

٩ ـ الرسالة الجلية في الطريقة المحمدية . نظم •

١٠ ـ رفع التنزيل •

١١ ـ رفع اليدين في الصلاة •

١٢ ـ زاد المسافرين الى منازل السعداء في هدي خير الانبياء •

١٣ ـ السنة والبدعة نقل عن الشيخ داوود النقشبندي البغدادي في كتاب صلح الاخوان •

١٤ ـ شرح الاسماء الحسنى •

١٥ ــ شرح أسماء الكتاب العزيز •

١٦ ــ الصبر والسكن •

١٧ ــ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم •

١٨ ــ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة •

١٩ ــ الطاعون •

٢٠ ــ ضب القلوب (ذكر الاستاذ المعلوف أن فى مكتبة برلين نسخة منه) •

٢١ ــ عقد محكم الاحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع الى رب السماء . ذكر في كشف الظنون أنه شرح الكلم الطيب لشيخه ابن تيمية •

٢٢ ــ الفتح القدسي •

٢٣ ــ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه •

٢٤ ــ فضل العلم •

٢٥ ــ الكافية الشافية في النحو (ذكرها في كشف الظنون وقال : وله الكافية في الانتصار للفرقة الناجية) وهو المطبوع في الهند ومصر سنة ١٣١٩ كما مر ذكر اسماء كتبه المطبوعة •

٢٦ ــ الكبائر (نقل عن النقشبندي في صلح الاخوان) •

٢٧ ــ الكلم الطيب والعمل الصالح •

٢٨ ــ المسائل الطرابلسية •

٢٩ ــ معاني الادوات والحروف •

٣٠ ـ المهـدي .
٣١ ـ المهـذب .
٣٢ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول .
٣٣ ـ نكـاح المحرم .
٣٤ ـ نور المؤمن وحياته .
٣٥ ـ الهدي السوي (هكذا ذكره في كشف الظنون ـ ولعله الهدي النبوي او زاد المعاد) .

وله رحمه الله تعالى تصانيف غير ما ذكر لاتحصى كثرة . ولكن عز وجودها الآن وعز من يبحث عنها من العلماء الأعلام . فهم في شغل شاغل عن نبش كنوز ماتركه لنا السلف وهي كنوز لاتقدر بثمن .

فعلماؤنا اليوم فريقان : فريق جرفه تيار الحضارة المادية فانغمس في حمأة الشهوات . وملاذ الحياة . يعب منها كمن لايؤمن بيوم الحساب . يسالئون الحكام لينالوا من دنياهم . فلا يعنون بشيء من امر دينهم الا بما يؤمن لهم دنياهم .

وفريق آخر . قعد بهم سوء الحظ : فلم ينالوا مانال الفريق الاول من حظوة وقربى لدى أولي الامر ؛ فناصبوهم العـداء ؛ ونابذوهم بالالقاب : حسدا من عند أنفسهم وبغضا ؛ لا تدينا واحتسابا . وشغلهم ما هم فيه عن كل أمر مفيد ؛ مما يرفع لهم في

الدنيا ذكراً ويكسبهم حمداً وثواباً وأجرا ، ولو وجد اليوم علماء شغفوا بالبحث العلمي لاستخرجوا لنا من كنوز المكاتب أضعاف ما ذكرنا لابن القيم من مؤلفات ، ولكن عز وجود الباحثين ، فنسجت على كثير من مؤلفاته عناكب النسيان، وغابت عن العيان، ودرجت في خبر كان .

ركزنا الكلام على تراث هذا الحبر العظيم ، لان مؤلفاته وتصانيفه مرغوب فيها لدى جميع الطوائف ، لانه لم يكن عالما اقليميا بل كان عالمياً له اسلوب بالكتابة جميل ، خال من تعقيدات ومصطلحات العلوم . التي يصعب فهمها على غير اهل الاختصاص .

وكان ـ رحمه الله ـ كثير الاستشهاد بالشعر ، والاقتباس من الحكم والامثال ، والحديث الشريف والكتاب العزيز ، حتى لا تكاد تشعر وأنت تقرأ له أن ما استشهد به غير كلامه بله الحديث الشريف والقرآن الكريم ، وذلك لايضاح ما يرمي اليه من معنى . وهذا يدلنا أيضا على مدى تضلعه بعلوم اللغة العربية نظماً ونثراً ، فكان كثيراًما يستشهد ببيت من الشعر أو أبيات تصور المعنى المراد من قوله أوضح تصوير ، وتعبر عن مراده أبلغ تعبير ، ولا يستشهد بالشعر الا من حفظ منه الشيء الكثير .

١ ـ من ذلك ما استشهد بـه في أفضلية أبي بكر علـى غيره من الصحابة الكرام وإن كانوا أكثر عملا منه قـال ابن عباس : « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه » قال ابن القيم : وهذا موضع المثل المشهور :

مـن لـي بمثل سـيرك المدلـل
تمشـي رويـدا وتجـي في الاول

وقال بعد ذكره اختلاف العلماء في استلزام العلم الهداية : فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب . فيرضي الطائفتين ، ويزول بـه الاختلاف من المين . والا : فخل المطي وحاديها ، واعط القوس باريهـا .

دع الهـوى لأناس يعرفون بـه
قد كابدوا الحب حتى لانأصبعه

٢ ـ وقال في ذم من حرم العلم والعمل قال الشاعر :

لا تخدعنـك اللحـاء والصـور
تسعـة أعشـار من تـرى بقـر
في شـجر الســدر منهـم مثـل
لـــه رواء ومـــالــه ثمــر

وكمـــا قيـــل :

زوامـــل للاشعار لا علم عندهـــم
بجيـــدهـــا الا كعلـــم الابـــاعـــر
لعمرك مـــا يدري البعير اذا غـــدا
بأوســـاقه أو راح مـــا في الغرائر

واحسن من هذا كله قوله تعالى : « واذا رأيتهـــم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » .

فتراه قد استشهد للمعنى الواحد بشعر لشاعرين مختلفين . وبآية من كتاب الله توضح المعنى أتم توضيح .

٣ ــ وقال في بعض الدنيا والـــزهد فيها لمشاركـــة الأراذل الافاضل فيها : « وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبـــوب والمعشوق منها . وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل :

ســـأترك حبهـــا مـــن غـــير بغض
وذاك لكثـــرة الشـــركاء فيـــه
اذا وقـــع الـــذباب علـــى طعـــام
رفعـــت يـــدي ونفســـي تشـــتهيه
وتجتنـــب الاســـود ورود مـــاء
اذا كـــان الكـــلاب ولغـــن فيـــه[1]

---

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٤١ .

٤ ـ وقال في فضل العلماء وحياتهم في قبورهم، وذم الجهال وموتهم في حياتهم . فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس : كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

وقال آخر :

قدمات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناس اموات

٥ ـ وقال مبطلا التقليد ، وآخذا بخناق المقلدين ، وسادا عليهم كل مسلك :

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة
او كنت تدري فالمصيبة اعظم[1]

وقال في الوصول الى المعالي ، ببذل المهج الغوالي ، ضاربا المثل بجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لاقى من قومه ، في سبيل نشر دعوته ، واحياء أمته ، وانقاذهم من وهدة الجهل والجاهلية ، وتأسيس دعائم دين متمم للمثل العليا من

---

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٣٠٨ و ٣٠٩ .

الاخلاق الفاضلة . والمعاملات الكاملة . التي اتت بها الاديان السابقة . ووضع معايير اخلاقية . غير ما كانت عليه أهل الجاهلية من مثال تظن انها بلغت فيها أعلى درجات الكمال : وهل وصل من وصل الى المقامات المحمودة . والنهايات الفاضلة ، الا على جسر من المحنة والابتلاء

كذا المعالي اذا مارمت تدركها
فاعبر اليها على جسر من التعب[1]

٦ ــ وقال في منزلة العلماء والامراء في توجيه الناس وجهة صالحة مستدلا بقول عبد الله بن المبارك رضي الله عنه وغيره من السلف : صنفان من الناس اذا صلحا ، صلح الناس واذا فسدا فسد الناس ، قيل : من هم ؟ قال : العلماء والامراء مستشهدا بشعر نسبه الى ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل ادمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها
وهل افسد الدين الا الملوك
وأحبار سوء ورهبانها

---

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٣١٣ .

اقتباسه من غرر الشعر :

كان كثيرا ما يقتبس من غرر الشعر وروائعه من المعاني التي يرمي اليها فتأتي عباراته روعة في البلاغة . وذروة في الفصاحة، من غير أن يشعر القارىء باضطراب الاسلوب . أو قلق العبارة . كما قال في وصف الرعيل الاول من السلف الصالح : يسيرون مع الحق أنى سارت ركائبه. ويستقلون[١] مع الصواب حيث استقلت مضاربه ، اذا بدا لهم الدليل بأخذته طاروا اليه زرافات ووحدانا ، واذا دعاهم الرسول الى امر انتدبوا اليه ولايسألونه على ما قال برهانا ، اقتبسه من قول قريط بن أنيف أحد شعراء بلعنبر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

فأنت ترى بالاضافة الى اقتباسه الرائع . السجع السهل غير المتكلف في قوله : (ركائبه ومضاربه) و (وحدانا وبرهانا) . وترى في قوله : سارت ركائبه ، واستقلت مضاربه ، من التعبير المجازي ما هو آية في فن البلاغة ، وقوله : يستقلون . دليل على مدى تمكنه من اللغة ولو قال : يسيرون ، لوضح المعنى ولكنه آثر (يستقلون) لما فيها من معنى السفر والارتحال . وهكذا اهل الحق والصدق من الرعيل الاول . يؤثرون السفر

---

(١) استقلى القوم : ذهبوا وارتحلوا . القاموس المحيط .

مع الحق مع ما فيه من التعب والنصب ، على الإخلاد الى الراحة والجلوس على الطراحة [1] وهذا اللفظ (يستقلون) في هـذا الموضع لا يأتي الا على لسان متمكن من اللغة ضليع فيها .

اقتباسه من القرآن والحديث الشريف :

اما اقتباسه من القرآن الكريم . فأكثر من أن يحصى ولا عجب في ذلك . فقد كانت دراسته التي وهبها حياته؛ ووقف عليها نفسه . فاليك مثالا مما قاله على لسان اصحاب الحيل لمبطليها . قال أصحاب الحيل : (قد أكثرتم من ذم الحيل وأجلبتم بخيل الادلة ورجلها ، وسمينها ومهزولها) ففي هذا الاسلوب اقتباس من الآية القرآنية « واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » [2] .

ومما قاله في ابطال الحيل ، « فكيف يليق بالشريعة الكاملة التي لعنت آكل الربا وموكله وبالغت في تحريمه وآذنت صاحبه بحرب من اللـه ورسوله . أن تبيحه بأدنى الحيل » فانت ترى في الاسلوب اقتباسا من الحديث : « لعن اللـه آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » ومن الآية القرآنية في سورة البقرة : «فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

---

(١) اعلام الموقعين ج ٣ ص ١٥٦ و ١٥٧ .
(٢) سورة الاسراء آية ٦٤ .

ولئن كان متأثرا باسلوبه الكتابي بروح عصره من كثـرة الشواهد والامثال . والاقتباس والسجع ؛ فان سجعه غير سمج مملول ولا هو بالمتكلف المتعسف . بل هو هين لين . له رنين في أذن السامع ومقبول علـى لسان القارىء لذيذ معسول . فـان صدر عنه احيانا ؛ صدر دون تكلف او تعمد ؛ فاستمع اليه يقول . في الـرد على المقلـدين : (وأين منصب المقلـد مـن منصب المستدل ؟ . وهل ما ذكرتم من الادلة الإثيات استعرتموها من صاحب الحجة فتجملتم بها بين الناس ، وكنتم في ذلك متشبعين بما لم تعطوه . ناطقين من العلم بما شهدتم على انفسكم انكم لم تؤتوه . وذلـك ثوب زور لبستموه ، ومنصب لستم من أهلـه غصبتموه . فأخبرونا ، هل صرتم الى التقليد لدليل قادكم اليه ، وبرهان دلكم عليه . فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل . وكنتم به عن التقليد بمعزل . أم سلكتم سبيله اتفاقا وتخمينا من غـير دليل . وليس الى خروجكم عن احد هذين القسمين سبيل . وايهما كان فهو بمذهب التقليد حاكم . والرجوع الى مذهب الحجـة لازم . ونحن ان خاطبناكم بلسان الحجة قلتم : لسنا من اهل هذه السبل وان خاطبناكـم بحكم التقليد فلا معنى لمـا اقمتموه من الدليل ••• فانهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلـك الاقوال لدليل قادهم اليه . وبرهان دلهم عليه ؛ وانما سبيلهم

محض التقليد والمقلد لا يعرف الحق من الباطل . ولا الحالي من العاطـــل)[1]

معرفته اللغوية والبيانية :

قبل أن نعرض نماذج من معرفته اللغوية والبيانية ، نورد ما ذكره عن نفسه في مقدمة كتابه (الفوائد المشوق الى علـــوم القـــرآن وعلم البيان) قـــال : « وهـــذه الجملة التي تأصلت وتحصلت . والفوائد التي بعد اجمالها فصلت . نقلتها من كتب ذوي الاتقان . علماء علم البيان ، التي وقفت عليها . وترقت همة اطلاعي اليهـــا من كتب المتقدمين والمتـــأخرين وهـــي كتـــاب البديع لابن المعتـــز ، وكتاب الحالي والعاطل للحاتمي . وكتـــاب المحاضرة له أيضا ، وكتب الصناعتين للعسكري . وكتاب اللمع للعجمي . وكتاب المثل السائر لابن الاثير . وكتاب الجامع الكبير لابن الاثير أيضا ، وكتـــاب البديع لاسامة بن منقذ . وكتـــاب العمدة للزنجاني ، وكتاب نظم القرآن لـــه أيضا . وكتاب نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد الواحـــد بن عبد الكريم الانصاري . وكتاب التفريع في علـــم البديع ، لزكي

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الدين بن عبد العظيم بن أبي الاصبع . وكـل كتاب من هـذه الكتب أخذ من كتب شتى مع ما أضفت اليها من فوائد مستعذبه، وفرائد حسنة المذاق مستغربة ، نقلتها عن الأئمة الاعلام الاكابر، ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر . وما أضفت الى ذلك مما تفضل الله به ومنح . مـن مهمل أبنته . ومجمل فصلته ، وشارد قيدته وحصلته ... الخ »[1]

وسنذكر فصلا خاصا نبين فيـه مـدى معرفتـه بالعلوم البيانية ولا يتمكن من الخوض في علوم البيان من لـم يكن له باع طويل في معرفة اللغة . نحوها وصرفها وفقهها . فكلامه على حديث « من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن . » قال : في هذا الحديث ثلاثـة أمور : أمر لغوي . وأمر فقهي ، وأمر طبي ، فأما اللغوي : فالطب بكسر الطاء في لغـة العرب يقال علـى معان ، منها الاصلاح يقـال : طببته . إذا أصلحته ويقال : له طب بالامور . أي لطف وسياسة قال الشاعر :

وإذا تغير مـن تميم أمـرهـــا
كنت الطبيب لهـا بــرأي ثـاقب

ومنها الحذق : قـال الجوهري : كل حاذق طبيب عنـد العرب . قال أبو عبيد : أصل الطب الحذق بالاشياء ، والمهارة

---

(1) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان .

بها ، يقال للرجل : طبيب ، إذا كان كذلك وان كان في غير علاج المريض . وقال غيره : رجل طبيب أي حاذق سمي طبيبا لحذقه وفطنته . قال علقمة :

فان تسألوني بالنساء فإنني
خبير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له في ودهن نصيب

وقال عنترة :

إن تغدفي [1] دوني القناع فإنني
طب بأخذ الفارس المستلئم

أي : فاني خبير حاذق بأخذ الفارس الذي قد تلثم .
ومن معاني الطب : العادة ، يقال : ليس ذلك بطبي ، أي : ليس ذلك من عادتي قال فروة بن مسيك :

فما إن طبنا جبن ولكن
منايانا ودولة آخرينا

ومن معاني الطب : السحر يقال : رجل مطبوب ، أي مسحور ، وجاء في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها

---

(١) أي ترخي وتسبلي ، اراد : إن تستري وجهك بالقناع . فانني الخ .

قالت : « لما سحرت يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس الملكان عند رأسه ورجليه ، فقال أحدهما : ما بال الرجل ؟ قال الآخر مطبوب ، قال: من طبه ؟ قال: فلان اليهودي» قال أبو عبيد : انما قالوا للمسحور مطبوب لأنهم كنوا بالطب عن السحر كما كنوا عن اللديغ ، فقالوا : سليم تفاؤلا بالسلام ، وكما كنوا بالمفازة عن الفلاة المهلكة التي لا ماء فيها ، فقالوا : مفازة تفاؤلا بالفوز من الهلاك ، وقال الحماسي :

فإن كنت مطبوبا فلا زلت هكذا
وإن كنت مسحورا فلا برىء السحر

أراد بالمطبوب الذي قد سحر ، وأراد بالمسحور العليل بالمرض ، قال الجوهري : ويقال للعليل مسحور وأنشد البيت ، ومعناه إن كان هذا الذي قد عراني منك ومن حبك أسأل الله دوامه ، ولا أريد زواله سواء أكان سحرا أو مرضا ، ثم قال : والطب مثلث الطاء ، فالمفتوح الطاء هو العالم بالامور ، وكذلك الطبيب يقال له طب أيضا ، والطب بكسر الطاء فعل الطبيب ، والطب بضم : اسم موضع ، قاله ابن السكيت ، وأنشد :

فقلت هل انهلتم بطب ركابكم
بجائزة [1] الماء التي طاب طيبها

---

(١) الجائزة : العطية واصله ان اميرا واقف عدوا وبينهما

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من تطبب) ولم يقل : من طب ، لأن لفظ التفعل يدل علـى تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة وأنه ليس من أهله . كتحلم . وتشجع . وتصبر ، ونظائرها . وكذا بنوا التكلف على هذا الوزن : قال الشاعر : وقيس غيلان ومن تقيسا [1] .

فهذا الاستطراد والشرح الوافي للحديث الشريف ، يدلنا على مدى تعمق ابن القيم رحمه الله واطلاعه علـى أسرار اللغة العربية وفقهها .

ولم تقتصر معرفة ابن القيم باللغة العربية على النحو ، بل له في معرفة المعاني والبيان ، الباع الطويل ، والمعرفة الواسعة ، فكتابه « الفوائد المشوق الى علوم القرآن . وعلم البيان » يدلنا على مدى توسعه وتضلعه بهذا الشأن من علم المعاني والبيان .

ـ نهر فقال : من جاز هذا النهر ، فله كذا . فكلما جاز واحد منهم اخذ جائزة . واصل الجائزة ، ان يعطي الرجل الرجل ماء ليذهب لوجهه . فيقول الرجل ـ اذا ورد ماء لقيم الماء : اجزني ماء . اي اعطني ماء حتى اذهب لوجهي . وأجوز عنك ، ثم كثر هذا . حتى سموا العطية جائزة ـ لسان العرب ج ٧ ص ٥ فالمراد بجائزة الماء الذي اخذوه جائزة .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

وقد سبقت الاشارة الى جهوده التي بذلهــا في تأليفه وترتيبه ، وأن الغاية من معرفة المعاني والبيان . فهم معاني أسرار القرآن الكريم ، كما ذكــر في مقدمته حيث يقول : « وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ، ويأتي على نهاية من حسن الوصف وبديع الجمع ، وإحياء لعلم البيان . المطلع على نكت نظم القــرآن ، الذي قد عفت آثــاره ، وقلت أنصاره ، وتقاعدت الهمم عــن تحصيله ، وضعفت العزائم عن معرفة فروعه . فضلا عن أصوله ، فما من علم من العلوم الاسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان . ولو أداموا النظر فيه ، والتلمح لمعانيه . لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا نهش لها القلوب . ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب . ومن لم يعرف هذا العلم . كــان عن فهم معاني الكتــاب العزيز بمعزل ، ولــم يقم ببعض حقوق المنزل والمنزل . ومن وقف على هذه الاصول التي أصلتها . والفصول التي فصلتها . ظهر له مصداق هذه الدعوى . وأخذ من التوصل الى معرفة هــذا العلم بالسيف الاقوى ، وحسن عنده موقعه ، وعظم في نفسه محله وموضعه ، وخالطت قلبه بشاشة رونقه ، وجلبت في عينه نضارة نظائره وحسن مونقه [1] .

قبل ان ننهي الكلام على ثقافته ورسوخ قدمه في علوم الإسلام

(١) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ص ٨ .

يحسن بنا أن نبرز شخصيته الفذة، وأنه كان عالما مستقلا له قدرة فائقة ، على ايراد الحجج الدامغة ، لما يراه أنه الحق بهدوء العالم المطمئن المتمكن ، وهبه الله فكراً ثاقباً ولساناً ناطقا ، يسترسل في ايراد الحجج حتى ليظن من لم يتمرن على القراءة له ، انه خرج عن الموضوع ، فهو يشارك شيخه ابن تيمية بهذه الصفات ،وينفرد عنه بالهدوء والاتزان ، وذلك ناشيء عن نشأة كليهما ، فقد نشأ كل منهما في عصر مليء بالخلافات المذهبية فحارباها ، ودعوا الى الرجوع الى ما كان عليه السلف في الاعتقادات والمعاملات والعبادات . فهم اعلم الناس بدين الله ، لقربهم من عهد التنزيل وقبل أن تتسرب الآراء المستورة الى الدين ، من فرس ورومان، وهند ويونان .

الفرق بين شخصيته وشخصية شيخه ابن تيمية

تمتاز شخصية ابن القيم عن شخصية شيخه ابن تيمية . بالهدوء واللين بمنازلة خصومه من الفرق المنحرفة ، كالمعتزلة والقدرية والجبرية والجهمية وغلاة المتصوفة من دعاة الحلول والاتحاد . والجامدين من فقهاء الدين المتعصبين لمذاهبهم .

فشيخ الاسلام ابن تيمية نشأ في فترة كانت الحروب على اشدها بين المسلمين والتتر ، وقد خاض معظم هذه الحروب بنفسه

مقاتلا مجاهدا . حاثاً المسلمين علـى قتال التتر ومما يؤثر عنه :
سئل شيخ الاسلام ابن تيمية : هل يجوز قتال التتار ؟ ومن أي قبيل هم ؟ فانهم يظهرون الاسلام ، وليسوا بغاة على الامام ؛ فانهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية . ورأوا أنهم احق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين . ويعيبـون علـى المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم . وهم متلبسون بما هو اعظم منه باضعاف مضاعفة فتفطـن العلمـاء والناس لذلك .

وكان يقول : اذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني . فشجع الناس على قتال التتار . وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد [1] .

ومثل هذا الموقف كانت مواقفه ضد التتار . فقد كان ثائراً بطبعه ثورة جسمية . قبل ان يكون ثائرا ثورة علمية . فصفحات التاريخ تحدثنا عن مواقف البطولة والشجاعة التي وقفها ابن تيمية في ساحات القتال . فمن هذه المواقف ماذكره صاحب العقـود الدرية . قال : قال ابن تيمية في موقعة مرج الصفر ـ وهي احدى

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

المواقع التي وقعت بين المسلمين والتتار ـ قال لأحد الامراء : يافلان أوقفني موقف الموت . قال : فسقته الى مقابلة العدو . وهم منحدرون كالسيل تلوح اسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ، فرفع طرفه الى السماء واشخص بصره وحرك شفتيه طويلا ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، وقد شوهد في هذه الموقعة ومعه اخوه يصيحان بصوت مرتفع يحرضان الناس على القتال ويحذرانهم الفرار [1] .

ولهذا كان رده على الفرق المنحرفة عن هدى السلف عنيفاً ثائراً ، يرمي خصومه بالكفر تارة . والمروق والفسوق والعصيان تارة اخرى ، جريئاً في مناقشة خصومه . ثائرا عليهم ثورة عنيفة ومن هذا رده على ابن عربي ما جاء في « فصوص الحكم » من مثل قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

قال ابن تيمية : ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام ، فانه كفر باطنا وظاهرا . وباطنه أقبح من ظاهره، وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة ، وأهل الحلول . وأهل الاتحاد[2] .

---

(١) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٢) مجموعة رسائل شيخ الاسلام ابن تيمية الطبعة الاولى ص ٤١ .

فابن تيمية لايتورع عن رمي خصومه بالكفر والإلحاد . وهـــذا اسلوب الثائر الذي ثار في ميدان القتال ، وثار في ميدان الفكر فكانت نتيجة ثورته الاولى نصرا على الاعداء ، وخاتمة ثورته الثانية ثروة قيمة في الفقه والعقائد والتصوف . لا يغض من قيمتها مالاقاه من عنت ، وما تكبده من اذى في سبيل تصحيح العقيدة وايضاح مفاهيم الفقه والتصوف .

وأما ابن القيم فقد عالج هذه الامور بهدوء واتزان كما سيأتي عند عرض بعض آرائه عرضا وافيا . لجـــلاء شخصيته الفريدة .

ويرجع سبب الفارق بـــين الشخصيتين أن ابن تيمية ثائـــر بطبعه وبيئته التي عاش فيها . وكذا ابن القيم كان هادئاً بطبعه . وقد فترت حدةالقتال بين المسلمين والتتار بنصر المسلمين بالقضاء على التتار .

وكذا الظروف التي احاطت بكليهما . والوضع الـــذي وضعا فيه فابن تيميةهو الذي حمل لواء المعارضةفلاقى في سبيلها الآلام والمحن . فالنزاع الفكري كالنزاع المادي يكـــون في أول الشوط حادا شديدا،لأن الطرفين المتخاصمين يكونان بكامل عدتهما ثم تخف حدة النزاع شيئاً فشيئاً، فلما جاء ابن القيم كان النزاع قد فترت حدته وخفت وطأته . ولذا كان ابن القيم هادئا متزنا في معارضته ومناقشته . فأخذ يوازن بين الآراء ويردها في هدوء

واتزان . ويختار منها ما يراه موافقا للشرع . ويرد ما يخالف الشرع . سواء في ذلك ابحاثه الصوفية والفقهية والكلامية[1] .

وكان ابن القيم اثيرا لدى شيخه ابن تيمية . وكان ينزله منزلة ولده . بل كان ولده الروحي وكان يتوسم فيه الخير والاصلاح . ويراه نعمة من الله ارسله ليتمم ما كان يدعو إليه من تصحيح الافكار ، وتهذيب الدين . وتجريده مما علق به مما ليس منه عبر القرون . والرجوع به لما كان عليه سلف هذه الامة اعتقادا ، وفقها ، وتصوفا ، وتحريرا من ربقة المقلدين التي جعلوها دينا ، وكثيرا ما كان يسدي اليه النصائح كلما وجد لذلك سبيلا .

قال ابن القيم : وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه . وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد : « لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها . فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته . وإلا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك . صار مقرا للشبهات . أو كما قال »[2] يقول ابن القيم : فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بهذه الوصية .

---

(١) ابن القيم لعبد العظيم شرف الدين ص ٩٥ .
(٢) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٤٨ .

ولهذا كان يرى الشبهات بعين البصير ، الخبير ، وتمر على ذهنه دون أن تترك أثرا في نفسه.فيعرض ما يمر عليه من الشبهات على الكتاب والسنة . وهو الشرع المنزل من عند الله ، فيدعو الى ما يراه موافقا لهما . وينبذ ما كان مخالفا .

اعتداده برأي شيخه دون تعصب :

كان شديد الاعتداد برأي شيخه ابن تيمية دون تعصب ولا تقليد ، بل عن اجتهاد وموافقة واقرار منه لشيخه بصحة ما أدى اليه اجتهاده . وكيف يقلد غيره ، وهو الذي ظل يدعو الى التحرر الفكري . ونبذ التقليد طوال حياته .

ومن أمثلة اعتداده برأي شيخه ما ذكره عنه في الحديث الدال على التحريم برضاع الكبير . ولإيضاح الفكرة نذكر واقعة أبي حذيفة مع مولاه سالم . وهو الحديث الذي دار حوله الخلاف بين القائلين بالتحريم ، وبين مذهب الجمهور الذين يقولون : إن الارضاع بعد الحولين لا يحرم .

روى أبو داود في سننه من حديث الزهري ، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أن أبا حذيفة بن عتبة ، كان تبنى سالما وهو صغير ، فلما بلغ سن الرشد ــ وكانت الآيات بإبطال عادة التبني قد نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ

فأبطل النبي عليه الصلاة والسلام تبنيه لزيد بن حارثة ، وكان يدعى زيد بن محمد . فصار يدعى زيد بن حارثة . لقول الله : « ادعوهم لآبائهم » جاءت سهلة ابنة سهيل . وهي زوجة أبي حذيفة . الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولداً لنا وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ، ويراني فضلا.وقد أنزل الله — عز وجل — فيهم ماقد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال رسول الله صلى عليه وسلم : أرضعيه ، فأرضعته خمس رضعات ، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة — لذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ترى أن هذا عام — وأبت أم سلمة رضي الله عنها وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . ورأت أن هذا خاص بامرأة أبي حذيفة وسالم . فأبين أن يدخل عليهن أحد بمثل هذه الرضاعة . الا أن يرضعنهم في المهد .

وقد وقف القائلون بالرضاع في الحولين من هذا الحديث مواقف . فمنهم من قال إن هذا الحديث عام . ومنهم من قال إنه مخصوص . ومنهم من قال إنه منسوخ . . وقد أفاض ابن القيم رضي الله عنه في الكلام على هذا الحديث ، في الجزء الرابع من زاد المعاد بما يزيد على عشرين صفحة ، وأخيرا ذكر القول الفصل . وهو رأي شيخه ابن تيمية . فقال : حديث

سهلة ـ أي زوجة أبي حذيفة ـ ليس عاماً ولا خاصا ولا منسوخا ، وإنما هو رخصة للحاجة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة ، ويشق احتجابها عنه . كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة . فمثل هذا الكبير إذا ارضعته للحاجة أثر رضاعه . وأما ما عداه فلا يؤثر . الا رضاع الصغير فقط . ذكر رأي شيخه وارتضاه ، ومن هذا يبدو لنا ، انه كان لا يتحرج من قبول آراء شيخه ، ما دام مقتنعا بها ، أما إن لم يقتنع بها فإنه يذكر رأيه مبيناً وجهة نظره كما مر معنا مراراً . وهذا دليل على أنه أمين في تحقيق الهدف الذي يرمي اليه . وهو الدعوة الى الاجتهاد . واعمال الفكر ونبذ التقليد .

وبعد فقد آن الاوان لعرض صور لما حبره قلم هذا الحبر العظيم ، مما لم يتعرض له الاستاذ عبد العظيم شرف الدين في رسالته التي أعدها لنيل الماجستير . فقد كان هدفه ابراز شخصيته العلمية وما أوتيه من سعة اطلاع على الفرق والمذاهب الاسلامية . وقوة حججه الفعلية والنقلية للدفاع عن الدين وتجريده من البدع .

البَابُ الثَّالِث

أدبُ الإمَـــامِ ابْنِ القيِّم

الكلام على كتاب روضة المحبين :

وسأبـدأ بكتاب روضة المحبين لأنـه جمع فأوعى ، فهو يصلح لسائر الطبقات . من المتخصصين في العلوم الشرعية على اختلافها ، واللغوية على تفرع فروعها . حتى يكـاد لا يستغني عنه عالم متخصص. ولا أديب مثقف ولا داعية مرشد . ولا عامي مهذب ، ولنترك الكلام لمؤلفه يحدثنا عنه في مقدمته حيث يقول : « والمرغوب الى من يقف على هـذا الكتاب أن يعذر صاحبه ، فإنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه (١) فما عسى أن يبلغ خاطره المكدود . وسعيه المجهود ، مع بضاعته المزجاة . التي حقيق بحاملها أن يقـال فيه : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . وها هو قد نصب نفسه هدفـاً لسهام الراشقين ، وغرضاً

---

(١) إن من يطلع على هذا الكتاب ويرى ما فيه مـن العجب العجاب ليأخذه العجب من هذا الحبر العظيم الذي الفه في حال بعده عن وطنه وبعده عـن كتبه وأتى فيه بكـل معجب مطرب . والأعجب منه تاليفه لزاد المعاد وناهيك انه ألفه في السـفر بين بيت المقدس ومكة المكرمه .

لأسنة الطاعنين ، فلقارئه غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك . ومولينه تهدى اليك . فإن صادفت كفؤاً كريما ، لن تعدم منه إمساكا بمعروف أو تسريحا باحسان وإن صادفت غيره . فالله تعالى المستعان وعليه التكلان . وقد رضي من مهرها بدعوة خالصة ، إن وافقت قبولا واستحسانا ، وبرد جميل ان كان حظها احتقارا واستهجانا ، والمنصف يهب خطأ المخطىء لإصابته . وسيآته لحسناته . فهذه سنة الله في عباده جزاءاً وثواباً . ومن ذا الذي يكون قوله كله سديدا ، وعمله كله صوابا ، وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحي يوحى . فما صح عنه فهو نقل مصدق عن قائل معصوم ، وما جاء عن غيره فثبوت الامرين فيه معدوم ، فان صح النقل لم يكن القائل معصوما . وإن لم يصح لم يكن وصوله اليه معلوماً ... » الى أن قال : « وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس فانه يصلح عونا على الدين . وعلى الدنيا ، ومرقاة للذة العاجلة ولذة العقبى . وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها ، وصحيحها وفاسدها وآفاتها وغوائلها وأسبابها وموانعها . وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية ، وأحاديث نبوية ، ومسائل فقهية . وآثار سلفية ، وشواهد شعرية . ووقائع كونية . ما يكون ممتعا لقاريه مروحا للناظر فيه ، فان

شاء أوسعه جـداً وأعطاه ترغيبا وترهيبا ، وإن شاء أخـذ من هزله وملحه نصيبا ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده من أسباب اللـذة الفانية وطوراً يرغبه فيها ويدنيه ، فان شئت وجدتـه واعظا ناصحا ، وإن شئت وجدته بنصيبك مـن اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحا » .

بعدما ظهرت لنـا شخصية ابن القيم العالم المتقن المتفنن يجدر بنا أن نريك شخصيته كأديب شاعر . كاتب محاضر راوية .

والادب ـ كما عرفه أربابه ـ هو ماأثر عن الشعراء والكتاب من بدائع القول ، وروائع المعاني . المشتمل على تصوير الاخيلة الدقيقـة وابراز المعاني البديعـة ، مما يهـذب النفس ويرقق الحس . ويثقف اللسان ، ويطلق للخيـال العنان ، ولعمري إن الامام ابن القيم يشمله هذا التعريف . ويحق له أن يرأس أدباء عصره ، كجمال الدين بن نباته شارح رسالة ابن زيدون المتوفى سنة ٧٦١ . وابن منظور المتوفى سنة ٧١١ ، وابـن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ . وابن الوردي صاحب اللاميـة المشهورة في الحكم ـ اعتزل ذكر الاغاني والغزل ـ .

ولا يرد علينا أن ابن القيم ليس له ديوان شعر معروف ، فحسبه كتاب (الكافية الشافية) في النظم ، وقصائده الحسان في وصف الجنـة والحور الحسان ، وفي النثـر كتابه روضـة

المحبين . وما ضمنه من شعره الـذي يعد من غرر الشعر كما سيمر بنا قريبا ، ولو كان يعنى بالشعـر ، ليتخذه مطيته لدنياه لبرز فيه على كل من قال شعرا . وإنا لنجد في شعره الادبي من السهولة والعذوبة ودقة التصوير وسعة الخيال ما يشهد له بدقة الحس والقوة على تصوير الخيال .

ولا نكون مغالين اذا قلنا : إنه أحد أعلام الأدباء ، وامتاز عنهم بكونـه جمع الـى حصافـة العلم وتحقيقه ورقـة الأدب وعذوبته ورواية أخباره ، واختيار أشعاره ، ولا ننسى في هذا المقام أن حسن اختياره للشعر يدل على شاعريته ، كما قيل عن أبي تمام : إنـه في اختياره لديوان الحماسة أشعر من شعره .

ودليل آخر يسوغ لنـا عدّ ابن القيم أديبا ، هـو وضعه لكتابه روضة المحبين من حفظه ، بل اعتمادا على ماحوته ذاكرته من طرائف الادب ، واخبار الادباء والمحبين ، وروائع الشعر في كل فصول الكتاب على اختلافها، وما حواه صدره الرحب من علم غزير ، واطلاع واسع على شتى فنون الأدب ، وقد أخبر عن نفسه معتذراً أنه وضع الكتاب من محفوظه كما مر معنا سابقاً .

ويشهد لهذا ناشر الكتاب ، الاستاذ أحمد عبيد فإنه عانى أثناء طبعـه الكتاب وابرازه للناس بهـذا الثوب القشيب شيئاً

كثيراً قال: « ولقد تبين لي في ذلك ـ في تصحيحه أثناء الطبع ـ حقيقة ما قاله المؤلف في مقدمته ، من أنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه ، فانني لم اجده يذكر الحديث بلفظه ولا القول بنصه ، فربما جمع الآية من آيتين ، والحديث من حديثين ، وربما قدم المؤخر ، وأخر المقدم ، وأبدل كلمة بكلمة وغير حرفا بحرف » .

فمن يضع كتاباً من غرر كتاب الأدب من محفوظه غير مستعين على تأليفه بسفر، ولا مراجعة كتاب. نعده بحق من أكبر الأدباء ، وما يمنعنا من ذلك ؟ ونحن نرى بعض معاصرينا يطلق عليه لقب اديب ، بمجرد كتابة مقال او مقالين في صحيفة يومية ، أو مجلة شهرية ، مستعيناً على تحبير مقاله بكل ما تصل اليه يده من أسفار وآراء الرجال .

مقارنة روضة المحبين بطوق الحمامة لابن حزم :

طوق الحمامة لابن حزم أقدم مؤلف وصل الينا، يصور الحب بكل حالته وأشكاله، وحلوه ومره ، وعذبه وعذابه ، استقاه من معين نفسه الوالهة المدلهة ، والتمسه من مكنون صدره المتأجج بنار الحب أسال فوق صفحاته ما أبقى الحب في قلبه من لوعة ، وفي محاجره من دموع، بما أودعه من نظمه، في حوادث وقعت له مع

من يحب وماضسنه من نفثات فؤادهالملسوع بسموم الغرام، وقد كفاناالقول عنه. الاديبالكبيرالاستاذ البزم في مقدمتهالتي قدمها له . للتعريف به . فانا ألخص منها . ما يتعلق بموضوعنا ، قال : « وطوق الحمامـة •••• ينفرد بمحاسن ، ويعتصم بخصائص ، تقضي له بالمكانة العليا . فمن ذلـك : إلمامه ببعض ما يتفاهم بـه المتحابون . وتعريجه على الحوض في معرفة سياسة الحب ، وما يلزم الرجل فيه . من حذر واحتراس ، وعطفه على التماس العلة في ان النساء اكثر تعرضا للحب ، واشد اشتغالا به لكثرة فراغهن وزيادة مشاغل الرجال ••• كما وأنه نزه كتابه عن كثير مما شاذ به المؤلفون في الحب كتبهم من أوهام وأباطيل •

ثم ذكر الاستاذ البزم مااخذه على طوق الحمامة من هنات فقال : «أولا ــ لم يحسن ابن حزم باقتصاره على شعره في طوق الحمامة فقيد نفسه من هذا بقيد ضيق عليه المضطرب ، وثقل من خطاه . وقصر من مدى جريه ، وكف من جولانـه في طيـات الموضوع •

ثانيا ــ لم ينج ابن حزم مـن الوقوع في أحابيل الفلسفة في اول كتابه . فقد اوشك ان يرتبك بعض الارتباك ، حين قسم اعراض الحب •

ثالثا ــ قال : وخرافـة أخرى علقت بابن حزم ، في طوق

الحمامة : فلم ير لنفسه منتدحا عنها ، وهي ذهاب فلاسفة اليونان الى ان الارواح كان لها قبل اتصالها بالاجسام . وهبوطها من عالمها الأول ألفة وتمازج وحب . فلما باشرت هياكلها من الاجساد كان لها من الحنين ونزوع بعضها الى بعض . بقدر ما وجدته من شفافة الاجساد ورقتها ولطافتها ومرونتها »[1] .

---

(١) أقول ان المآخذ الثالث الذي أخذه الاستاذ البزم على الامام ابن حزم لا يسلم له على اطلاقه . فالامام ابن حزم عندما ربط تعلق الاجسام بسابق تعلق الارواح وائتلافها ، لم يستمد رأيه من فلاسفة اليونان . ولكنه اطلع على الحديث الصحيح الوارد في هذا المعنى وشرحه : فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» ورواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده . وأبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه .

« وثمة أمر هام يجب الاشارة اليه، ودليل واضح على صدق من لا ينطق عن الهوى وانه وحي يوحى ، إذ من المعروف والمسلم به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي الامي . لم يؤثر عنه انه اطلع على فلسفة اليونان أو غيرها من الامم حتى يلخص تلك النظرية بقوله : الأرواح جنود مجندة ....

أقول : ومن البدهي أنـه يحدث لكل انسان في حياتـه ما يؤيد تلك النظرية فانا وانت وكل انسان . يصادف ان يجتمع بشخص ما فلأول وهلة تراه ينسجم معه في الحديث : وينشرح صدر كل واحد منهما للآخر . ويتفتح كل قلب منهمـا للآخر ، كأنهما على معرفة سابقة وود قديم . فاذا لم تتكرر تلك المقابلة تظل ذكراها عالقة بالذهن ردحا من الزمن .

وربما كان لي أو لك أخ شقيق، أو جار قريب، تراه كل يوم صباح مساء ، وقد كانت الارواح متنافرة في عالم الغيب، فلا تفيد القرابـة ولا الجوار في ربط أواصر المحبة شيئـاً ، ويظل تنافر الاجسام تبعاً لتنافر الارواح اهـ .

هذا ما اخذه الاستاذ البزم على الامام ابن حزم في طوق الحمامة . ونزيد على ذلك ان ابن حزم لم ينظم في سلك طوق حمامته من أخبار المحبين ونوادرهم ما يزيد في رونق الطـوق ويرفع من قيمته الادبية ، وينفس عن القارىء بعض ما يجده من عناء في دراسة فلسفـة الحب وأطواره . اللهم إلا ما جـاء نادراً في بعض ابواب الكتاب من الاخبار مما لايتجاوز الخبـر او القصـة كما يسميه سطـرا وبعض السطـر ، وهـذا قليـل بالنسبة لما يتشوق اليه المحبون مـن نكات ونوادر ، وأحاديث وقصص ، يروحون بها عن انفسهم ويطفئون بها لواعج الغرام

المتأججة في صدورهم ، ولم يخرج الكتاب لهذا عن جادة الفلسفة .

فكأن ابن حزم تخيل الحب مرضا لاعرضا ــ كما هو الواقع ــ فكان يشخصه ، ويذكر أعراضه وأدواره وأطواره، فيبتدىء بالنظرة الاولى ، فالتعريض بالكلام ، فالاشارة بالعين ، فالمراسلة فالسفير ، فالطاعة ، او المخالفة ، ثم يذكر ما يعرض للمحبين من اسباب التنغيص فيذكر الرقيب ، والواشي ، والعذول ، والهجر والبين ، والضنى ، والسلو ، فالموت ، ثم يختم الكتاب بفصلين اثنين : قبح المعصية ، وفضل التعفف .

وان الامام ابن حزم لم يوفق كل التوفيق بوضعه الكتاب طوق الحماقة على هذا النحو الفلسفي ، المنافي للروح الادبي ، والذي لا يلتئم ومزاج الادباء ، لا بروائع شعره ، ولا بسهولة الفاظه وتعابيره ، وسمو بيانه ، وقد لا يجد حظوة الا عند فئة قليلة من الادباء والعلماء .

أما روضة المحبين لابن القيم ، فهو كما ذكر مؤلفه في مقدمته : « انه يصلح لسائر الطبقات من الناس ، فهو يصلح عونا على الدين والدنيا ، ومرقاة للذة العاجلة ، ولذة العقبى ، وفيه من ذكر اقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها ، وصحيحها ، وفاسدها وآفاتها ، وغوائلها ، وأسبابها ومواقعها ، وما يناسب ذلك من

نكت تفسيرية وأحاديث نبوية ومسائل فقهية وآثار سلفيه ، وشواهد شعرية ، ووقائع كونية ، ما يكون ممتعا لقاريه مروحاً للناظر فيه فان شاء أوسعه جداً ، وأعطاه ترغيباً وترهيبا ، وان شاء أخذ من هزله وملحه نصيبا ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه . وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية وطوراً يرغبه فيها ويدنيه، فان شئت وجدته واعظا ناصحا وان شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ، ووصل الحبيب مسامحا » (١)

ولقد أحسن في وصفه الاستاذ أحمد عبيد في تقديمه للكتاب أيما احسان ، وصوره أصدق تصوير،حيث يقول: «ان الكتب المصنفة في الحب ، هذا أنفعها لأنه جمع الى لغة الحب وفلسفته ومذاهب الناس فيه . لغة الشريعة ، وحكمتها ، فالقارىء ينتقل في هذه الروضة المونقة من فائدة لغوية . الى قاعدة اصولية . ومن نكت أدبية ، الى مسألة فقهية . ومن غيرها الى غيرها ، مما لا سبيل الى استقصائه » (٢)

وضعه في تسعة وعشرين بابا ، ضمن كل باب عدة فصول توضح المطلوب وقدمه بمقدمة قيمة في فضل العقل وذم الهوى . وذكر الصراع القائم بينهما وأنالنجاة والسلامة في سلامة دولة

---

(١) روضة المحبين ص : ١٣ .
(٢) المصدر السابق ص : ز ، ج .

العقل ، وإحالة دولة الهوى . وأن الحرب بين هاتين الدولتين قائمة على قدم وساق ، دائرة الرحى وما انتصرت احداهما على الاخرى ، إلا وكانت المغلوبة أطرح من خاتم وأذل من خادم .

وضعه على طريقته المألوفة ، من ذكر أقوال المثبتين والنافين للموضوع ، ثم هو يعقب على قول الفريقين بقوله الفصل .

كتبه بقلم المصلح للاخلاق ، المهذب للنفوس ، واستمده من قلب فاض بمحبة اللـه ، ونفس لا ترى الانس الا باللـه ، سلك في وضعه مسالك الحكماء ، الذين يمزجون درر حكمهم بما يوافق الامزجة المريضة ، من أساليب الكلام ، ليبلغوا من نشر مبادئهم الغاية والمرام،فبينما تراه يذكر فصلا طريفا في الحب وأقسامه ، وتعداد صفاته ولوازم أسمائه ، وذكر درجاته ، وقد أخذت سلاسة القول بمجامع قلبه ، وحلت أعماق لبه ، فلا يشعر القارىء الا ولسان الواعظ ينطق على صفحة من صفحات تهذيب الاخلاق ، وتزكية النفوس ، فكيف ومتى تغير الموضوع وانتقل من بحث لآخر فهذا مالا يشعربه القارىء .

وهذا ظاهر جليا في الباب الثاني من الكتاب الذي وضعه في اشتقاق أسماء المحبة ، التي زادت على الخمسين ومعانيها فقد ابتدأها بذكر اشتقاق المحبة وأقوال أئمة اللغة وحججهم على ذلك

من شعر من يحتج بشعرهم واختلاف الناس في حدها.ثم اخذ في شرح معنى تلك الاسماء واشتقاقها واحداً فواحداً . فذكر بعد [المحبة] العلاقة والهوى والصبوة والشعف والشغف والكلف .. الى ان استقصى خمسين اسما من اسماء المحبة . وختم الخمسين بالتعبد . وجعله نهاية الحب ، وأشد انواعه . وهذا معروف مشاهد . من رسائل المحبين الى أحبابهم . فكثيرا ما يفتتح المحبون رسائلهم الى محبيهم بقولهم : معبودتي فلانة.او معبودي فلان . وهم لا يريدون العبادة بمعناها الديني . وانما يريدون اظهار درجة حبهم ، وانها وصلت الى الغاية القصوى من درجات الحب .

والذي يعجب له القارىء لهذا الباب غاية العجب حفظ ابن القيم ، رحمه الله ، لنصوص اللغة ، ولا سيما أقوال الجوهري . ولكأني به يحفظ كتب اللغة ويتعهدها بالقراءة كما يتعهد حفظ القرآن الكريم . والسنة المطهرة ، والفصيح من شعر الاقدمين والمحدثين . فهو يحتج لكل اسم من اسماء المحبة . عند الكلام على اشتقاقه بنص لغوي ، أو آية قرآنية او حديث صحيح . ولنستمع اليه الآن وهو يتكلم عن معنى (التعبد) واشتقاقه وأنه أسمى درجات الحب . قال رحمه الله : « وأما التعبد فهو غاية الحب ، وغاية الذل ، يقال : عبده الحب . أي ذلله . وطريق معبد ، أي مذلل بالأقدام ، وكذلك المحب ، قد ذلله

الحب ووطأه ، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل ...
فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة ، وهي خالص حق لله على عباده ، وفي الصحيح : عن معاذ أنه قال : كنت سائراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا معاذ . فقلت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ قلت لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، فقال : يا معاذ ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : أتدري ما حق الله على عباده ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ، أن لا يعذبهم بالنار . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام التحدي ، ومقام الاسراء ، ومقام الدعوة ، فقال في مقام التحدي : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » [1] وقال في مقام الاسراء : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » [2] وقال في مقام الدعوة : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » [3] الى آخر ما يراه القارىء في هذا الباب .

---

(1) البقرة /٢٣ . (٢) الاسراء /١ . (٣) الجن /١٩ .

وفي الفصل الرابع قال : « إن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها ، وان حركات الافلاك ، والشمس والقمر وحركات الملائكــة والحيوانات ، وحركــة كل متحرك ، إنما وجدت بسبب الحب » [1] ولما كان هــذا الفصل مــن أشرف أبواب الكتاب ، قدم له مقدمــة جيدة قبل تقريره لــه بين فيها أنواع الحركة ، وقسمها ثلاثة أقسام ، فحركة إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية ، وبين أن العالم وجــد بالحركة الارادية الصادرة عن فعل مريد مختار محب لإرادته وتنفيذها ، فقال : « لولا المحبة اللازمة عــن الارادة لم يحدث هــذا الكون ، فالمحبة والارادة أصل كل فعل ومبدؤه ، فــلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة » [2] ثم استطرد الكلام الى القول في القضاء والقدر ، فبحث فيه بحثاً لطيفاً خفيفاً . بقدر ما اتسعت له فرجة الكلام . وسنوفي هذا البحث حقه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الباب الخامس ذكر دواعي المحبة ومتعلقاتها . فقال : « إن لها ثلاثة أمور . وصف المحبوب [*] ، وجماله ، والمناسبة ، وهي العلاقة التي بين المحب والمحبوب ، فمتى قويت الثلاثــة ، وكملت . قويت المحبة واستحكمت ، فمتى كان المحبوب في غاية الجمــال ، وشعور المحب بجماله أتــم شعور . والمناسبة بين الروحين قوية ، فذلك الحب الدائم اللازم » [3] .

---

(1) روضة المحبين ص ٦٣ .
(٢) روضة المحبين ص ٦٧ .
(٣) روضة المحبين ص ٧٦ .

ثم تكلم على الجمال بكلام غاية في الجمال وتكلم على الشعور ، وأنه كلما دق ولطف زادت المحبة وزاد المحبوب في عين محبه كمالا وجمالا ، وعند الكلام على المناسبة بين الزوجين ، ينزلق بالقارىء من حيث يشعر أو لا يشعر ، ينزلق به من وصف الحسن والجمال ، الى المناسبة بين النفوس الزكية وصفات الكمال فيقول : « ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية ، تعشق صفات الكمال بالذات ، فأحب شيء اليها العلم والحلم والشجاعة ، والعفة والجود والإحسان والتصبر والثبات ، لمناسبة هذه الاوصاف لجوهرها ، بخلاف النفوس اللئيمة الدنيئة ، فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات ، وكثير من الناس يحمله على الجود والاحسان فرط محبته له ، واللذة التي يجدها في بذله ، كما قال المأمون : لقد حبب الي العفو حتى خشيت أن لا أؤجر عليه وقيل للامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه تعلمت هذا العلم لله ؟ فقال : اما لله فعزيز ، ولكن شيء حبب الي ففعلته ، وقال آخر : إني لأفرح بالعطاء وألتذ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني ، وفي هذا المعنى قيل في مدح بعض الكرماء .

وتأخذه عند المكارم هزة
كما اهتز عند البارح الغضن الرطب

وقال شاعر الحماسة :

تــراه إذا مــا جئتـــه متهلــلا
كأنك تعطيه الــذي هو ســائله [1]

ثم يضرب لذلك أمثلة من أقوال عشاق العفو وعشاق العلم ، وعشاق الحلم . وعشاق الجــود . ويقص علينــا من أقوالهــم وحكاياتهم مــا يغري بعشق صفات الكمال ، ويحبب مكــارم الاخلاق لكل من تصفح روضته .

وبعد أن يبلغ من نفس القارئ ما يريد ، من اغرائه بعشق جميل الصفات يقول : (فعشق صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه ، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات ، ولهذا كان أعلى الارواح وأشرفها أعلاها وأشرفها معشوقا ، كما قيل :

أنت القتيــل بكــل مــن أحببتــه
فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي [2]

وعند الكلام على امتزاج الروحين يرد عليه إشكال ــ وقد سبق الكلام عليه ــ وهو أن كثيراً مــن المحبين غير محبوب بل بسيف البغض مضــروب . فيجيب رحمــه اللــه أولا بجــواب

---

(1) روضة المحبين ص ٧٩
(2) روضة المحبين ص ٨١ .

الامام ابن حزم وهــو : « ان نفس الــذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الاعــراض الساترة . والحجب المحيطة بها ، من الطبائع الارضية . فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بهــا قبل حلولها حيث هي . ولــو تخلصت لا ستويا في المحبة والاتصال ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة . طالبة لــه ، قاصدة اليه باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبــة له لو أمكنهــا ، كالمغناطيس والحديد ، أو كالنار في الحجر [1] » .

ولما كان هذا الذي ذكره عن الامام ابن حزم ، مــن أن الأرواح كان لها قبل حلولها بالأشباح اتصال قريب من أقوال الفلاسفة الذين يزعمون : أن الأرواح خلقت على هيئة الكرة ثم قسمت . فأي روحين تلاقتا هنــاك وتجاورتا ، تآلفتا في هــذا العالم وتحابتا .وإن تنافرتا هناك ، تنافرتا هنا ، وإن تآلفتا من وجه وتنافرتا من وجه كانتا كذلك ها هنا »[2] .

فالامام ابن القيم لم يرض هــذا الجواب ولا ذاك ، لأن الجوابين من أصل واحد . وهذا الاصل فاسد حتماً ، لأنه من الغيب الذي استأثر الله به . فان جالت العقول بالمغيبات كــان

---

(١) روضة المحبين ص ٨٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٨ .

جولانها من باب التخرصات إلا اذا قام دليل نقلي صحيح عمن لا ينطق عن الهوى •

قال رحمه الله : فزعم الفلاسفة أن الأرواح موجودة قبل الأجسام خطأ ، بل الصحيح الذي دل عليه العقل والشرع ، أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد ، ومن قال : إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط ، وأقبح منه قول من قال : انها قديمة ، أو توقف في ذلك ثم يقول : بل الصواب في الجواب أن يقال : إن المحبة كما تقدم قسمان : محبة عرضية غرضية ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها ، يقارنها مقت المحبوب وبغض للمحب كثير ، إلا اذا كان له معه غرض مثل غرضه ، فانه يحبه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكل منهما غرض مع صاحبه •

والقسم الثاني محبة روحانية ، سببها المشاركة والاتفاق بين الروحين . فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولا بد ، فلو فتش المحب المحبة الصادقة ، قلب المحبوب . لوجد عنده من محبته نظير ما كان عنده ، أو دونه أو فوقه » [1] •

أقول : ولا يرد علينا اشكال في الحديث الصحيح .

---

(١) الروضة ص ٨٨ .

الأرواح جنود مجندة .... فقد سبق الكلام عليه وأزيد : إن التعارف والتناكر انما هو بعد وجودهما واتصالهما بأجسامنا ؛ وهذا مشاهد الآن فإنا نرى من اتصال أرواح المنومين تنويماً مغناطيسياً بأرواح المنومين ــ الوسطاء ــ وتسلطهم على نفوسهم ما نكاد نلمسه باليد فضلا عن إدراكه بالعقل .

ثم يذكر ابن القيم رحمه الله اختلاف الناس في وصال المحبوب . هل يزيد المحبة أم ينقصها ، فيذكر قول القائلين بزيادتها في الوصال وقول القائلين بنقصانها ، ويسرد حجج الفريقين ويورد من حكاياتهم ما يزيل اللبس ، ويمتع النفس . ويروح الغم . ويذهب الهم ، ويختم الفصل بقوله : « وفصل الخطاب بين الفريقين . أن الجماع الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي المحبة بينهما الى المعاداة والتباغض والقلى كما هو مشاهد بالعيان . فكل محبة لغير الله آخرها قلى وبغض فكيف إذا قارنها ما هو أكبر الكبائر ، وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى : التي قال الله فيها : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)[١] .

ثم ذكر في الباب السادس أحكام النظر وغائلته . وما يجني

---

(١) روضة المحبين ص ٩٨ .
(٢) الزخرف الآية ٦٧ .

على صاحبه ، وابتدأ الكلام بالآيــة الكريــة : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلــك أزكى لهم • إن الله خبير بما يصنعون • وقل للمؤمنات يغضضن مــن أبصارهن ويحفظن فروجهن » [1] •

ثم ذكر حكمه شرعا . وهو التحريم طبعــاً . إلا في حالات خاصة . ثم ذكر سؤالا وجه للعلماء فقــال : « وقعت مسألــة : ما تقول السادة العلماء في رجل نظر الى امرأة فعلق حبهــا بقلبه واشتد عليه الامر . فقالت له نفسه هذا كله من أول نظرة . فلو أعدت النظر اليها لرأيتها دون ما في نفسك . فسلوت عنها . فهل يجوز تعمد النظر ثانيا لهذا المعنى ؟ » [2] •

فكان جوابه تغمده الله برحمته : « الحمد لله . لا يجوز ذلك لعشرة أوجه » [2] ثم عددها وبين أضرارها واعقب ذلــك بذكر عشر فوائد يجنيها غضيض الطرف . كتخليص القلب مــن ألم الحســرة . فان من أطلق نظره دامت حســرته . واستشهد علــى ذلك بنوادر أدبية . ومقطوعات شعرية . منهــا ما رواه الاصمعي قال : « رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة . فجعلت أنظر اليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي : يا هذا ما شأنك

(1) النور : ٣٠ ـ ٣١ .
(2) الروضة ص ١٠٣ .

فقلت : وما عليك من النظر ؟ فأنشأت تقول :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا
لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

قال : ودخل أصبهان مغن كان يتغنى بهذين البيتين :

سماعا يا عباد الله مني
وكفوا عن ملاحظة الملاح
فان الحب آخره المنايا
وأوله شبيه بالمزاح

ومن هذه المختارات قول الشاعر :

وشادن لما بدا ... اسلمني الى الردى
بظرفه ولطفه ... وطرفه لما بدا
أردت أن أصيده ... فصاد قلبي وعدا

وقال آخر :

أنا ما بين عدويـ ... ـن هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى الـ ... ـقلب والمقصود حتفي

وقال آخر :

رمت عينها عيني وراحت سليمة
فمن حاكم بين الكحيلة والعبرى

فياطرف قد حذرتك النظرة التي
خلست فما راقبت نهيا ولا أمرا
ويا قلب قد أرداك طرفي مرة
فويحك لم طاوعته مرة أخرى

وقال آخر :

ما من يرى سقمي يزيـ
ـد وعلتي أعيت طبيبي
لا تعجبن فهكذا
تجني العيون على القلوب (١)

ثم نحن نلخص هذه الفوائد لعظم نفعها لمن أراد أن ينتفع قال :

الفائدة الثانية : أنه (٢) يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر في العين والوجه والجوارح .

الفائدة الثالثة : يورث صحة الفراسة .

الفائدة الرابعة : أنه يفتح له طريق العلم ويسهل عليه أسبابه وذلك بسبب نور القلب .

الفائدة الخامسة : يورث القلب قوة وشجاعة وثباتاً .

الفائدة السادسة : يورث القلب سروراً وانشراحاً . أعظم

---

(١) الروضة / ١١٠ .
(٢) الضمير في « انه » يعود على غض البصر .

من اللذة والسرور الحاصل بالنظر .

الفائدة السابعة : يخلص القلب من أسر الشهوة .

الفائدة الثامنة : يسد عليه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر باب من الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل .

الفائدة التاسعة : يقوي العقل ويزيده ويثبته .

الفائدة العاشرة : يخلص القلب من سكر الشهوة ، ورقدة الغفلة ؛ فإن إطلاق البصر . يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة . ويوقع في سكرة العشق ، كما قال تعالى عن عشاق الصور « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » [1] فالنظرة كأس من خمر . والعشق سكر ذلك الشراب ، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر ، فإن سكران الخمر يفيق ، وسكران العشق قلما يفيق . وهو في عسكر الاموات . كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة
ومتى إفاقة من به سكران

ثم ذكر مناظرة بين القلب والعين ، ولوم كل صاحبه ، والحكم بينهما ، فبعد أن يقدم لائحة المرافعة التي سوغت انعقاد المحكمة بين القلب والعين ، وجعل الكبد فيها حاكما ، يتقدم القلب فيقول للعين :

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٧٢ .

« أنت التي سقتني الى موارد الهلكـــات . وأوقعتني في الحسرات ، بمتابعتك اللحظـــات ، ونزهت طــرفك في تلــك الرياض ، وطلبت الشفاء من الحدق المراض . وخالفت قــول أحكم الحاكمين : « قل للمؤمنين » وقــول رسول اللــه صلى الله عليه وسلم : « النظر سهم من ســهام ابليس . فمن تركه من خوف الله عز وجل . آثابه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه » الى أن يقول : أوما سمعت قول العقلاء : مــن سرح ناظره . أتعب خاطره . ومــن كثرت لحظاتــه . دامت حسراته . وضاعت عليه أوقاته . وفاضت عبراته . وقول الشاعر :

نظر العيون الى العيون هو الذي
جعل الهــلاك الى الفــؤاد سبيــلا
مــا زالت اللحظــات تغــزو قلبه
حتــى تشــحط بينهــن قتيــلا

وقول الآخر :

تمتعتمــــا يــا مقلتــي بنظـــرة
وأوردتمـــا قلبي أمــر المــوارد
أعينيّ كفــا عــن فــؤادي فإنــه
من الظلم سعي اثنين في قتل واحــد

ثم تتقدم العين بمرافعتها فتقول :

ضلستني أولا وآخرا . وبؤت بإثمي باطناً وظاهرا . وما أنا إلا رسولك الداعي اليك . ورائدك الدال عليك .

واذا بعثت برائـد نحـو الـذي
تهـوى وتعتبـه ضلت الـرائـدا

فأنت الملك المطاع . ونحـن الجنود والاتباع . أركبتني في حاجتك خيل البريد . ثـم أقبلت علي بالتهديد . فلو أمرتني أن أغلق علي بابي . وأرخي علي حجابي . لسمعت وأطعت . ولما رعيت في الحمى ورتعت ... الى أن يقول : وبين ذنبي وذنبك عند الناس . كما بين عماي وعماك في القياس . وقد قال مـن بيده أزمـة الامور : « فانها لا تعمى الابصـار ولكـن تعمى القلوب التي في الصدور » [1] .

فتنبري الكبد للكلام . عندما نسمع حجـة الخصمين ، ومرافعة الطرفين ولكنها قبل الفصل في الحكم تخاطبهما بصوت خفي . لعلمها أن عليها كفلا من الالم الناتج عن تسريح الطرف ، ومتعة القلب فتقول : « أتتما علـى هلاكي تساعدتمـا . وعلى قتلي تعاونتما . ولقد انصف مـن حكى مناظرتكما . وعلـى لساني متظلما منكما :

---

(1) الحج : الآية ٤٦ .

يقول طـرفي لقلبي هجت لي سقمـا
والعين تـزعـم أن القلب أنكـاهـا
والجسم يشـهـد أن العين كـاذبـة
وهي التي هيجت للقلب بلـواهـا
لـو لا العيون ومـا يجنين مـن سقم
مـا كنت مطرحـاً من بعض قتلاهـا
فقـالت الكبـد المظلـومـة اتئـدا
قطعتمـانـي ومـا راقبتمـا اللـه

وقول الآخـر :

يقول قلبي لطـرفي أن بكى جـزعـاً
تبكي وأنت الـذي حملتني الوجعـا
فقـال طـرفي لـه فيمـا يعاتبـه
بـل أنت حملتنـي الآلام والطمعـا
حتـى إذا مـا خـلا كـل بصاحبـه
كلاهما بطـويل السـقم قـد قنعـا
نادتهمـا كبـدي لا تبعـدا فلقـد
قطعتمـاني بمـا لا قيتمـا قطعـا

وقول الآخـر :

عاتبـت قلبـي لمـا رأيـت جسمي نحيـلا
فألـزم القلـب طـرفي وقـال كنت الـرسولا

فقــال طــرفي لقلبــي بل كنت أنت الدليــلا
فقلــت كفــا جميعــاً تركتمانــي قتيــلا [1]

ثم بعد جلسة المذاكرة مع النائب العام . وهيئة المحكمة ، حكمت باسم دولة الحب العليا علــى الطرفين ، وألزمت نصيبا من التبعة كلا الخصمين . بموجب المادة قبل الواحد من قانون الغرام التي تنص على : « أن القلب والعين في البلية شريكان . كما أنهما في اللذة فرسا رهــان . فالعين تلتذ . والقلب يتمنى ويشتهي . كما نظمها صاحب ديوان الهوى والحرقة والجوى :

ولمــا ســلوت الحب بشــر ناظــري
لقلبي فقــال القلب لي ولــك الهنــا
تخلصت مــن إحيــاء ليلك ساهــراً
وخلصتني مــن لوعة الهجــر والضنا
كــلانــا مهنــا بالبقــاء فــإن تعــد
فــــلا أنت يبقيك الغــرام ولا أنــا

حكمت حكماً وجاهياً قابلا للتمييز ثم قالت : « والحاكــم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد ، اذا اختصما بين يديه فانه في الأثر المشهور : لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق

(١) المصدر السابق .

حتى يختصم الروح والجسد . فيقول الجسد للروح أنت الذي حركتني وأمرتني وصرفتني وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك . فتقول الروح له : وأنت الذي أكلت وشربت . وباشرت وتنعمت فأنت الذي تستحق العقوبة • فيرسل الله سبحانه اليها ملكاً يحكم بينهما فيقول : مثلكما مثل مقعد بصير . وأعمى يمشي دخلا بستاناً فقال المقعد للاعمى أنا أرى ما فيه من الثمار . ولكن لا أستطيع القيام ؛ وقال الاعمى أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئا . فقال له المقعد تعال فاحملني فأنت تمشي . وأنا أتناول فعلى من تكون العقوبة . فيقول : عليهما قال : فكذلك أنتما [1] •

ثم ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر الى من لا يحل له الاستمتاع به فقال : « قالت هذه الطائفة بيننا وبينكم الكتاب والسنة وأقوال أئمة الاسلام . والمعقول الصحيح •

أما الكتاب فقوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » [2] وهذا يعم جميع ما خلق فما الذي أخرج من عمومه الوجه المليح ؟ وهو من أحسن ما خلق[3] . وأما السنة فالحديث المشهور : « النظر

---

(1) الروضة ص ١٢٢ .
(2) سورة الاعراف الآية ١٨٥ .
(3) الروضة ص ١٢٢ .

الى الوجه المليح عبادة » وفي الحديث الآخر : « اطلبوا الخير من حسان الوجوه » وأما أقوال الأئمة . فذكر الاسترابادي في مناقب الشافعي . أن رجلا سأل سعيد بن المسيب :

يا سيد التابعين والبرره
نسيت في العشق سورة البقره
فكن بفتواك مشفقا رفقا
باهي بك الله أكرم البرره
هل حرم الله لثم خد فتى
أوصافه بالجمال مشتهره

فأجابه سعيد :

يا سائلي عن خفي أوعته
عليك بالصبر تحمدن أثره
ولا تكن طالبا لفاحشة
أو كالذي ساق سيله مطره
وراقب الله واخش سطوته
وخالف الفاسقين والفجره
وقبل الخد من حبيبك ذا
في كل يوم وليلة عشره

وذكر الحاكم في مناقب الشافعي أيضا عن الربيع قال : حضرت الشافعي بمكة وقد دفع اليه رجل رقعة مكتوب فيها :

أقــول لمفتــي خيف مكـــة والصفـا
لــك الخير هل في وصلهن حــرام
وهل في صسوت الحجل مهضومــة الحشا
عــذاب الثنــايــا إن لثمت أثــام

قال فوقع الشافعي فيها :

فقــال لي المفتــي وفاضت دموعــه
علــى الخــد مــن عينيه ، فهي تؤام
ألا ليتنـــي قبلت تلـــك عشيـــة
ببطــن منــى والمحـــرمــون نيـــام

وكتب الى الامام أحمد بن حنبل :

سألت إمــام النــاس نجل ابن حنبل
عن الضم والتقبيل هــل فيه من باس
فقــال : اذا جــل العــزاء فــواجب
لأنك قــد أحببت عبــداً مــن الناس

وكتب الى أبي حنيفة :

كتبت الى النعمــان يومــاً رســالــة
نسـائلـــه عــن لثـم حب ممنـع
فقـال لنـــا : لا إثــم فيــه وإنــه
شــهيٌ إذا كــانت لعشــر وأربـع

ثم ذكر بقية حجج هـذا الطائفة من مثل ما تقدم من سؤال أئمة الاسلام كأبي جعفر الطحاوي ، وأئمة المعتزلة ، كعمـرو بن عبيد ، وواصل بن عطـاء ، وانهم مجمعون علـى الاستمتاع بالنظر والتقبيل ، مرجحين المصلحة وذكر لهذه الطائفة عن شيخه ابن تيمية فقال ـ يحكي قولهم ـ : ونحن نحاكمكم الى واحد يعد بآلاف مؤلفة . وهو شيخ الاسلام ابن تيمية فانه سئل عن جواز ذلك فأجاب بخطه بجواب طويل ، ثم ان ابن القيم ذكر السؤال والجـواب .

وعقد الباب التاسع لدحض شبه هـذه الطائفة فقال مـا ملخصة : « وشبههم التي ذكروها دائرة بين ثلاثة أقسام : أحدها : نقول صحيحة لا حجة لهم فيها . والثاني نقول كاذبة عمن نسبت اليه من وضع الفساق والفجار . والثالث نقول مجملة محتملة لخلاف ما ذهبوا اليه »[1] .

فأما احتجاجهم بقوله تعالى : « أولـم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء »[2] فلا حجة لهم فيه . فالنظر الذي أمرنا به سبحانه وتعالى هو النظر المؤدي الى معرفته والايمان به وحجيته ، لا النظر الذي يوجب تعلق الناظر بالصورة التي يحرم الاستمتاع بها نظرا ومباشرة . .... وانمـا تسترت

---

(١) الروضة ص ١٣٢ و ١٣٤ .

(٢) الاعراف الآية ١٨٥ .

هذه الطائفة لهواها وشهواتها ، وأوهمت أنه تنظر عبرة واستدلالا . حتى آل ببعضهم الامر الى أن ظنوا أن نظرهم عبادة لانهم ينظرون الى مظاهر الجمال الالهي ، ويزعمون ان الله سبحانه وتعالى يظهر فى تلك الصورة الجميلة . ويجعلون هذا طريقا الى الله ، كما وقع فيه طوائف ممن يدعون المعرفة والسلوك »[1] .

ثم رد الحديث الاول وهو : النظر الى الوجه الحسن عبادة ، وذكر جواب شيخه لمن سأل عن صحة هذا الحديث فقال :

« هذا كذب باطل . ومن روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ما يشبهه فقد كذب ، وان هذا لم يروه أحد من أهل الحديث لا باسناد صحيح ولا باسناد ضعيف . بل هو من الموضوعات ، وهو مخالف لاجماع المسلمين ثم قال : وأما الحديث الآخر « اطلبوا الخير من حسان الوجوه » فهذا وان كان قد روي باسناد . الا أنه باطل ، لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو صح لم يكن فيه حجة لهذه الطائفة . فانه أمر بطلب الخير منهم . لا بطلب وصالهم ونيل المحرم منهم » .

---

(١) ملخص من ص ١٣٤ .
(٢) ملخص من ص ١٣٦ .

ثم أخذ يرد شبه هذه الطائفة واحدة واحدة فيما رووه عن الائمة العظام، كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والطحاوي وسعيد بن المسيب، وكذا ما رووه عن أئمة المعتزلة كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، وشيوخ الواسطيين فقال ما ملخصه : « هذه النقول اما صحيحة واما كاذبة فان كانت كاذبة فلا حجة لهم فيها . وان كانت صحيحة فليس مراد الائمة رضي الله عنهم الوصال المحرم الذي نهى الله عنه وأوعد عليه بأشد العقوبة . وما مرادهم الا الوصال المباح الذي أباحه الله . كوصال الزوجة والامة . والا فهذا غير المشهور المأثور عن سيرتهم وشدة ورعهم . وما هي الا تقول الفسقة المستهترين الذين يتسترون لمآربهم بالتقول على أئمة الدين » .

وهل يحل لأحد أن يصدق هذا عن الأئمة العظام كأبي حنيفة والشافعي ومالك والليث بن سعد انهم أجازوا تقبيل خد المرأة الاجنبية المعشوقة أو خد الامرد الجميل الصورة وهذه قصة الامام مالك مع الذي ضم صبيا اليه فأفتى بضربه ستمائة سوط فمات ، فقال له أبو الفتى : قتلت ابني . وفقال : بل قتله الله . فمن هذا تشديده وفتواه . هل يفتي بجواز تقبيل خدود المرد الحسان »[1] .

---

(1) الروضة ص ١٤٠ ــ ١٤٤ .

ثم قال وأما من حاكمتونا اليه وهو شيخ الاسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه ، فأين اباح لكم النظر المحرم ، وعشق المردان والنساء الاجانب ، وهل هذا الا كذب ظاهر عليه، وهذه فتاواه كلها ناطقة بخلاف ما حكيتموه عنه . وأما الفتيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه ... وكان بعض الامراء قد أوقفني عليها قديما . وهي بخط رجل متهم بالكذب ... ولولا الاطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذا كذب [1] .

ثم ذكر حقيقة العشق ، وأوصافه ، وكلام الناس فيه ، وأنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل ، وذكر أقوال الفلاسفة اليونانيين كأرسطو وأفلاطون ، وأقوال حكماء العرب وشعرائهم وأدبائهم واعرابهم وعقلاء مجانينهم ، وروى لنا سؤال المأمون ليحيى بن أكثم عن العشق واعتراض ثمامة بن أشرس على تعريف يحيى للعشق فقال : قال المأمون ليحيى بن أكثم ما العشق ؟ فقال : سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه ، فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى انما عليك أن تجيب في مسألة الطلاق ، أو محرم صاد ظبيا . فأما هذه فمن

---

(١) الروضة ١٥٢ .

مسائلنا نحن . فقال له المأمون : قــل يا ثمامة ، قــال : العشق جليس ممتع . وأليف مؤنس ، وصاحب ملك ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جارية ، ملك الابــدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعقول وآراءها ، قد أعطى عنانه طاعتها وقوة تصرفها . توارى عن الابصار مدخله ، وعمي في القلــوب مسلكه ، فقال لهالمأمون : احسنت يا ثمامة وأمر له بألف دينار »

ثم تساءل : هل العشق اضطراري خارج عــن الاختيار أم هو أمر اختياري . وذكر اختلاف الناس في ذلــك فذكــر أولا أقوال الطائفة القائلة بأنه اضطراري . وأورد ادلتها ، فمن أدلة هذه الطائفة قصة بريرة ومغيث قال : « ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من قصة بريــرة وأن زوجها كــان يمشي خلفها بعد فراقها له ، وقد صارت أجنبية عنه ، ودمــوعه تسيل علــى خديه ، فقالالنبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس الا تعجب من حب مغيث بريرة وبغض بريرة مغيثا ؟ ثم قال : لو راجعتيه ، فقالت : أتأمرني ؟ فقال : انما أنا شافع ، قالت : لا حاجة لي فيه ، ولم ينهه عن عشقها في هذه الحال ، اذ ذلك شيء لا يملــك ولا يدخل تحت الاختيار . » وقال : رؤي أبو السائب المخزومي ، وكان من العلم والدين بمكان ، متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحــم العاشقين وقو قلوبهــم ، واعطف عليهم قلــوب

المعشوقين . فقيل له في ذلك . فقال : والله للدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة ثم أنشد :

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى
للعاشقين يطيب يا هجر
ماذ تريد من الذين جفونهم
قرحى وحشو قلوبهم جمر
متبلدين من الهوى ألوانهم
ـ ما تجن قلوبهم ـ صفر
وسوابق العبرات فوق خدودهم
درر تفيض كأنها قطر

ثم ذكر أقوال الطائفة القائلة بأنه اختياري وأورد أدلتها وعقبها بقوله : « وفصل النزاع بين الفريقين . ان مبادىء العشق وأسبابه اختيارية . داخلة تحت التكليف ، فان النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري ، فاذا أتى بالاسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تولع بالحب حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة
فلما تمكن منها غرق

تمنى الاقالة من ذنبه
فلم يستطعها • ولما يطق

وهذا بمنزلة السكر مع شرب الخمر ، فان تناول المسكر اختياري وما تولد عنه من السكر اضطراري ، فمتى كان السبب واقعا باختياره ، لم يكن معذورا فيما تولد عنه بغير اختياره [1] •

ثم ذكر اللذة وأنها تابعة للمحبة في الكمال والنقصان ، وذكر انواعها • وأن منها ما يعقب ألما شديدا كلذة العشاق بتعاطيهم المحرمات ، ولذة الطغاة بعلوهم وفسادهم في الارض • بل نفى أن تكون هذه لذائذ قال : « وأي لذة لآكل طعام شهي مسموم يقطع أمعاءه عن قريب ؟ وهذه لذات الكفار والفساق بعلوهم في الارض وفسادهم وفرحهم بغير الحق ومرحهم »[2] •

ثم قسم اللذة ثلاثة اقسام فقال : « اذا عرف هذا فاقسام اللذة ثلاثة : لذة جثمانية ، ولذة خيالية وهمية • ولذة عقلية روحانية • فاللذة الجثمانية لذة الاكل والشرب والجماع • وهذه يشترك فيها مع الانسان الحيوان البهيم • أما اللذة الوهمية الخيالية فلذة الرئاسة والتعاظم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم ، وهذه أرقى من اللذة الجثمانية ، الا انها لا تخلو من

(1) الروضة ١٥٧ ـ ١٥٩ •
(2) الروضة ١٦٣ ـ ١٧٥ ـ ١٨١ •

المفاسد والمضار التي تربو على التذاذ النفس بها ، ورجح أن أرقى اللذات العقلية الروحانية كلذة العلم والمعرفة والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وتبلغ هذه اللذة أعلى الدرجات . اذا انضم اليها لذة المعرفة بالله ومحبته وعبادته ، فاللذة الفعلية لذة العلم والمعرفة ولذة الروح معرفة الله وعبادته ، كما قال بعض من جمعت له اللذتان : والله انه ليمر بالقلب أوقات ، أقول فيها : ان كان أهل الجنة في مثل هذه الحال انهم لفي عيش طيب ، واستشهد على ذلك بقول ابي تمام :

شكى المحبون الصبابة ليتني
تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها
فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم استطرد فذكر أقوال من مدح العشق فقال : « قالوا : وقد حبب الله سبحانه الى رسله وانبيائه نساءهم وسراريهم ، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء ، وحبه لها هو الذي حمله على موافقتها في الاكل من الشجرة ، قالوا : وأول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين ..... وكان مسروق اذا حدث عن عائشة رضي الله

عنها يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول رب العالمين المبرأة من فوق سبع سموات (١) .

وذكر من أقوالهم . أن العشق معراج الكمال وسلم النبوغ فقال : « قالوا : فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له وكذلك صاحب كل صناعة وحرفة » وهو ما نطلق عليه اليوم [هواية] .

ويكفي أن العاشق يرتاح لكريم الاخلاق والافعال والشيم لتحمد شمائله عند معشوقه . كما قيل :

ويرتاح للمعروف في طلب العلى
لتحمد يوما عند ليلى شمائله

ثم ذكر اقوال من ذم العشق وتبرم به وأحوال العاشقين وما يلقون منه وأنه اصل الجنون ، ان لم يكن فرعا منه فقال : « وكيف يمدح أمر يمنع القرار ، ويسلب المنام . ويوله العقل ويحدث الجنون ، بل هو نفسه جنون كما قال بعض العاشقين :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
العشق اعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وانما يصرع المجنون في الحين

(١) الروضة ١٨٧ .

ولما كان مبناه على الذل والخضوع . كان حتما أن نسمع الرشيد اعز الخلفاء العباسيين يقول :

ملك الثلاث الآنسات عناني
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها
واطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك الا ان سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطاني

ويقول عندما عشق جارية من جواريه . واخبرته ان اباه قد مسها فشغف بها وقال فيها :

ارى ماء وبي عطش شديد
ولكن لا سبيل الى الورود
أما يكفيك انك تملكيني
وان الناس عندي كالعبيد
وأنك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت من الرضى احسنت زيدي

وقال ابن الأحمر ملك الاندلس :

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكي
على كل حال انت لا بد لي منك

فاما بذل وهو أليق بالهوى
واما بعز وهو أليق بالملك

وقالوا : وكم من هرب من الحب الى مظان التلف . ليتخلص من التلف بالتلف . قال دعبل الشاعر : كنت بالثغر فنودي بالنفير فخرجت مع الناس ، فاذا بفتى يجر رمحه بين يدي ، فالتفت فنظر الي فقال : انت دعبل ؟ قلت نعم . قال اسمع مني . ثم أنشد فقال :

انا في امرَيْ رشاد
بين عز وجهاد
بدني يغزو عدوي
والهوى يغزو فؤادي

قالوا : وكم أكبَّت فتنة العشق رؤوسا على مناخرها في الجحيم ، وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم ، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين كخروج الشعرة من العجين ، وكم أزالت من نعمة ، وأحلت من نقمة ، وكم انزلت من معقل عزه عزيزا ، فاذا هو من الاذلين ، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب ، فاذا هو في أسفل سافلين . وكم كشفت من عورة،واحدثت من روعة،وأعقبت من ألم،وأحلت من ندم... الى أن قال : فلو سألت النعم ما الذي ازالك ، والنقم ما الذي

أذالك . والهموم والاحزان ما الــذي جلبك . والعافية ما الذي أبعدك وجنبك . والستر ما الذي كشفك . والوجــه ما الــذي أذهب نورك وكسفك . والحياة ما الذي كدرك . وشمس الايمان ما الذي كورك . وعزة النفس ما الذي اذلك . وبالهوان بعــد الاكرام بدلك ؟ لاجابتك بلسان الحال اعتبارا ، وان لــم تجب بالمقال حوارا . هذه والله بعض جنايات العشق ، على أصحابــه لو كانوا يعقلون • (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلــك لآية لقوم يعقلون) •

وقد اطال الشيخ رحمه الله في ذم العشق اكثر مما ذكر في مدحه ، وقال : ان اكثر هلاك الافراد والامم كان مــن عشقهم لبعض الصفات الذميمة والعادات السيئة . كقوم شعيب الذين حملهم عشق المال على بخس المكيال . وقوم فرعون الذين حملهم الهوى وعشق الرئاسة على تكذيب موسى . وكالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ــ لما تبع هــواه ــ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » وأيد قوله بحكايات غاية في الروعة •

ثم حكم بين الطائفتين . وبين ان العشق لا يحمد مطلقا ، ولا يذم مطلقا • وانما يحمد ويذم باعتبار متعلقه ، فمتى كان المحبوب مما يحب لصفات سامية غاية شريفة ، لم تــذم المبالغة في محبته •

---

(١) النمل آية ٢ ملخص من الروضة ص ٢٠٥ .

والمبالغة فيها مبالغة في الخير ، وذكر ان اعلا المحبة وأشرفها ، محبة الله ورسوله وتنيجتها على كل حال محسودة . وليس لقلب المحب صلاح ولا نعيم الا بأن يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما . وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله . فلا يجب الا لله كما في الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله . ومن كان يكره ان يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار »[١] .

ثم قال : « والعشق اذا تعلق بما يحبه الله ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه . وذلك أنواع ، أحدها : محبة القرآن بحيث يغنى بسماعه عن غيره . ويهيم قلبه في معانيه . ومراد المتكلم سبحانه منه . وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه ، فمن أحب محبوبا . أحب حديثه والحديث عنه كما قيل :

ان كنت تزعم حبي فلِمْ هجرت كتابي
أمـا تأملت ما فيـه من لذيذ خطابي

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله :

استدل على ذلك بما روي عن عائشة رضي الله عنها في سبب زواج النبي صلى الله عليه وسلم بجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار قالت : « لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق. وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، أو لابن عم له . فكاتبت على نفسها وكانت امرأة جميلة حلوة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها ، قالت : فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب الحجرة فكرهتها ، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى منها ما رأيت فقالت : يارسول الله انا جويرية بنت الحارث بن ابي ضرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك . فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعينه قال : فهل لك في غير ذلك قالت : وما هو ؟ قال أقضي كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم يا

رسول الله . قد فعلت ، وخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث . فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا ما بأيديهم . قالت : فلقد أعتق بتزوجه اياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت اعظم بركة على قومها منها .

ثم ذكر خبر خالد بن يزيد بن معاوية . وزواجه برملة بنت الزبير ، وخبر عبد الملك بن مروان مع زوجة يزيد بن سنان . وخبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع القائله : تطاول هذا الليل واخضل جانبه . وخبر عاشق آثر الموت على فراق من يحبه فقال : ذكر الخرائطي أن بشر بن مروان كان اذا ضرب البعث على أحد من جنده ثم وجده قد أخل بمركزه ، أقامه على كرسي ثم سمر يديه في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه ، فلا يزال يتشحط حتى يموت . وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهد بعرس ابنة عمه فلما صار في مركزه كتب الى ابنة عمه كتابا ثم كتب في أسفله :

لولا مخافة بشر أو عقوبته
وأن يرى بعد ذا في الكف مسمار
اذا لعطلت ثغري ثم زرتكم
ان المحب اذا ما اشتاق زوار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه ، ثم كتبت في أسفله :

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو
كانت عقوبتـــه في فجوة النار

بـــل المحب الذي لا شيء يفزعـــه
أو يستقر ومن يهواه في الـــدار

فلما قرأ الكتاب قال : لا خير في الحياة بعد هذا ، وأقبل حتـــى دخـــل المدينـــة فأتى بشـــر بن مروان في وقت غدائـــه فلما فرغ من غدائه أدخل عليه ، قال : ما الذي دعاك الى تعطيل ثغرك ؟ أما سمعت النـــداء ؟ قال : اسمع عـــذري فاما عفـــوت وإمـــا عاقبت ، فقال : ويلك و هل لك من عـــذر فقص عليـــه قصته وقصة ابنة عمه . فقال : أولى لكما ، ياغلام خط له علـــى اسمه من البعث . وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك .

ونقل عن الامام أحمد أنه قال : « كان النبي صلى اللـــه عليه وسلم يصبح وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ، ويحث عليه ونهى عن التبتل فمن رغب عـــن سنه النبي صلى اللـــه عليه وسلم فهو على غير الحق » .

أقول : إن مسألة الزواج وإعراض الشباب عنه لمن أهـــم مشكلات هذا العصر الاجتماعية لما يلقى الراغب فيه من فداحة النفقات وغلاء المهور . وضن الآباء بالبنات . الا لمـــن يؤدي

جميع المطالب مما تعارف عليه أهل الاجيال السابقة . وهذا لعمري من أكبر الدوافع لانتشار الفساد والفجور ، فعسى أن يتنبه الآباء للخطر الداهم نحو بناتهم وأبنائهم ، فانه من البدهي أن أحد نوعي الانسان لم يخلق الا للآخر ؛ فان لم يكن عن طريق النكاح فليس ثمة الا السفاح .

ثم ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس أليه فقال : « ان الجمال قسمان : ظاهر وباطن ، فالظاهر زينة خص الله بها بعض عباده [من جمال الصورة وحسن الصوت . وخفة الروح] والجمال الباطن هو جمال العلم والعقل والجود والشجاعة والعفة ، وغاية الجمال أن يجمع للمرء بينهما [أي جمال الظاهر والباطن] فقال : « وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضا على عبده يوجب شكره ، فإن شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله . وان استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه له شينا ظاهرا وقال منشدا :

يا حسن الوجه توق الخنا
لا تبدلن الزين بالشين
ويا قبيح الوجه كن محسنا
لا تجمعن بين قبيحين

وروي عن ابن عباس يرفعه : « من آتاه اللـه وجها حسنا واسما حسنا وخلقا حسنا . وجعله في موضع غير شائن له فهـو من صفوة اللـه من خلقه »

ولما كان الجمال مطلوبا لذاته مرغوبا فيه أيد قوله بجملة أخبار وحكايات عن اتصف بالجمال نختار منها بعضها قال :

« وقال عبد الملك بن قريب الاصمعي كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون : قد جاءت ، قد جاءت ، فقمت معهم . فاذا جارية قد وردت المـاء ما رأيت مثلها قط ، في حسن وجهها وتمام خلقها فلما رأت تشوف الناس اليها أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شمسا فقلت لم تمنعين النظر الى وجهك هذا الحسن فأنشأت تقول :

وكنت متى أرسلت طرفـك رائـدا
لقلبـك يومـا أتعبتـك المنـاظر
رأيت الـذي لا كلـه أنت قـادر
عليـه ولا عن بعضـه أنت صـابر

ونظر اليها أعرابي فقال : أنا واللـه ممن قل صبره ثم قـال :

أوحشيـة العينين أين لـك الأهـل
أبالحزن حلوا أم محلهـم السهل

وأيـــة أرض أحرجتـــك فـــإنني
أراك من الفردوس إن فتش الأصل

فقي خبرينـا مـا صنعت ومـا الذي
شربت ومن أين استقل بك الرحل

لأن عـلامـات الجنـان مبينـــة
عليـك وأن الشـكل يشبهه الشكل

تنـاهيت حسنا في النساء فإن يكـن
لبـدر الدجى نسل فأنت له النسل

وروي عن بعض أصحاب العباس بن الفضل قال : حججت سنة من السنين فاني لبالربذة اذ وقفت علينا جارية على وجهها برقع فقالت يامعشر الحجيج . نفر من هذيـل . ذهب بنعمهم السيل . وقعدت بهم الايام . ما بهم نجعة.فمن يراقب فيهم الدار الآخرة . ويعرف لهم حق الأخوة . جزاه اللـه خـيرا . قال : فرضخنا لها . فقلت لها : هـل قلت في ذلـك شيئا ؟ فأنشأت تقول :

كف الزمـــان توسدتنـا عنـوة
شـلت انـاملهـا عـــن الاعراب

قـــوم اذا حـل العفـاة ببـابهـم
القـوا نوافلهـم بغـير حسـاب

فقلنا لها : لو أمتعتينا بالنظر الى وجهك ، فكشف البرقع عن وجه لا والله لا تهتدي العقول لوصفه ، فلما رأتنا بهتنا لحسنها . أنشأت تقول :

الدهر أبدى صفحة قد صانها
أبواي قبل تمرس الايام
فتمتعوا بعيونكم في حسنها
وانهوا جوارحكم عن الآثام

ثم ذكر الحسن والجمال وأقوال الناس فيه ، وأن اقوالهم اختلفت فيه لاختلاف أذواقهم ، ثم وصف الحسن وصفا مفصلا قال : [وما يستحسن في المرأة طول أربعة ، وهن : أطرافها وقامتها وشعرها وعنقها . وقصر أربعة : يدها ورجلها ولسانها وعينها (١) فلا تبذل ما في بيت زوجها . ولا تخرج من بيتها ، ولا تستطيل بلسانها ، ولا تطمع بعينها ، وبياض أربعة : لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها ، وسواد أربعة : أهدابها وحاجبها وعينها وشعرها ، وحمرة أربعة : لسانها وخدها وشفتها مع لعس واشراب بياضها بحمرة ، ورقة أربعة : أنفها وبنانها وخصرها وحاجبها ،

---

(١) أراد بها المعاني لا الاعيان . فلهذا أعقبها بتفسير وبيان ..

فهذه أحق النساء بقول كثير :

لو أن عـزة خـاصمت شمس الضحى
في الحسن عنـد موفـق لقضى لهـا

وقول الآخر :

لو أبصر الوجـه منهـا وهو منهزم
ليلا وأعداؤه مـن خلفه وقفـا

وأنشد لثعلب :

خزاعيـة الأطراف مريّـة الحشـا
فزاريـة العينيـن ضـائيـة الفـم
ومكيـة في الطيـب والعطر دائمـا
تبـدت لنـا بـين الحطيم وزمزم

ثم قال : ولي من أبيات :

يـا صورة البـدر ، لا والـذي
صور ، ليس البـدر يحكيك
منـي عـلى العـين ولا تبخـلي
بنظـرة فـالعين تـفـديـك
وان تحـرجـت لهـذا فـكـم
قـد سبـح الرحمـن رائيـك

هـذا بهـذا فـارتجي أجـر مـن
ان غبـت عنـه ظـل يبكيـك

وممـا يستحسن في المرأة رقـة أديمها ونعومة ملمسه كما قال قيس بن ذريـح :

تعلـق روحي روحهـا قبـل خلقنـا
ومن بعـد ما كنـا نطـافا وفي المهد
فـزاد كمـا زدنـا فأصبـح ناميـاً
فليس وإن متنا بمنفَصِم العهـد
ولـكنـه بـاق على كـل حـادث
ومؤنسنا في ظلمـة القبر واللحـد
يكـاد مسيل المـاء يخدش جلدهـا
إذ اغتسلت بالمـاء مـن رقة الجلـد

وقـال : ولي مـن أبيات :

يـدمي الحـريـر أديمهـا من مسه
فـأديمهـا منـه أرق وأنعـم

ولم يدع القـارىء يجيل خياله بمحاسن نساء الدنيـا وفتنتهن بل استطرد بلطف بالقارىء الى ذكر نسـاء الآخرة الطاهرات المطهرات العـرُب الاتـراب القاصـرات الطـرف المقصورات في الخيام وذكر حديث أم سلمة قالت :

« قلت : يا رسول الله . أخبرني عن قول الله عز وجل : (حور عين) [1] قال : حور بيض عين ضخام العيون . شعر الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت : أخبرني عن قوله عز وجل : (كأمثال اللؤلؤ المكنون) [1] قال : صفاؤهن صفاء الدر الذي في الاصداف الذي لم تمسه الايدي . قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله : (فيهن خيرات حسان) [2] قال : خيرات الاخلاق حسان الوجوه . قلت : أخبرني عن قوله : (كأنهن بيض مكنون)[3] قال : رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو (الغرقيء) قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله عز وجل (عرباً أتراباً) [4] قال : هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن الله عذارى عرباً متعشقات متحببات أترابا على ميلاد واحد . قلت : يارسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة قلت : يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير . بيض الالوان خضر الثياب صفر الحلي . مجامرهن الدر . وأمشاطهن الذهب . يقلن : نحن

---

(١) الواقعة الآيتان ٢٢ و ٢٣ . (٢) الرحمن / ٧٠ . (٣) الصافات / ٤٩ . (٤) الواقعة / ٣٧ .

الخالدات فلا نموت ، نحن الناعسات فلا نبأس أبدا ، نحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا طوبى لمن كنا له وكان لنا . قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج الرجلين والثلاثة والاربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، فمن يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة انها تخير فتختار أحسنهم خلقاً فتقول : أي رب إن هذا كان أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة (١)

ثم قال : فان شاقتك هذه الصفات ، وأخذت بقلبك هذه المحاسن :

فاسم بعينيك الى نسوة
مهورهن العمل الصالح
وحدث النفس بعشق الاولى
في عشقهن المتجر الرابح
واعمل على الوصل فقد أمكنت
أسبابه ووقتها رائح

وختم الفصل بقطعة من قصيدته الشهيرة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية نقتطف منها بعض أبياتها

(١) الروضة ٢٥٨ وقد تفرد به سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي : عامة أحاديثه مناكير .

التي بصف فيها الحور العين قـال :

يا خـاطب الحور الحسـان وطالبـاً
لوصـالهـن بجنـة الحيـوان

لو كنت تدري مـن خطبت ومـن طلبـ
ـت بـذلت ما تحوي من الاثمـان

او كنت تعرف أيـن مسـكنهـا جعلـ
ـت السعي منك لها على الاجفـان

أسـرع وحث السـير جهدك انـما
مسـراك هـذا سـاعـة لزمـان

فاعشق وحدث بالوصال النفس وابـ
ـذل مهـرهـا مـا دمت ذا إمكـان

واجعـل صيـامـك دون لقيـاهـا ويو
م الوصـل يوم الفطر مـن رمضان

واجعـل نعوت جمـالها الحـادي وسر
نحـو الحبيب ولسـت بالمتوانـي

واسمع ــ إذن ــ أوصافهـا ووصالها
واجعـل حديثـك ربـة الاحسـان

* * *

والشمس تجري في محاسـن وجههـا
والليـل تحـت دوائـب الاغصـان

فيظل يعجب وهو مونسع ذاك من
ليل وشمس كيف يجتمعان
ويقول سبحان الذي ذا صنعه
سبحان متقن صنعة الانسان
لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنـ
ـد مجيئه حتى الصباح الثاني
والشمس لا تأتي بطرد الليل بل
يتصاحبان كلاهما أخوان
وكلاهما مرآة صاحبه اذا
ما شاء يبصر وجهه يريان
حمر الخدود ثغورهن لآلىء
سود العيون فواتر الاجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها
فيضيء سقف القصر بالجدران
ريانة الاعطاف من ماء الشبا
ب فغصنها بالماء ذو جريان
فالورد والتفاح والرمان في
غصن تعالى غارس البستان
لما جرى ماء النعيم بغصنها
حمل الثمار كثيرة الالوان

والقـــد منهـــا كالقضيب اللـــدن في
حسن القوام كـــأوســـط القضبـــان

في مغـــرس كالعـــاج تحسب أنـــه
عالي النقـــا او واحـــــد الكثبـــان

لا الظهـــر يلحقـــه وليس ثديهـــا
بـــلواحـــق لـــلبـــطن أو بـــــدوان

لـــكنهـــن كـــواعـــب ونـــواهـــــد
فثديهـــن كـــأحســـن الرمـــــــان

والجيـــد ذو طـــول وحســـن في بيـــا
ض واعتـــــدال ليـــس ذا نـــكران

يشكو الحلي بعاده فلـــه مـــدى الـــ
أيـــام وســـواس مـــن الهجـــران

والمعصـــان فـــان تشـــأ شبّهْهُمـــا
بسبيكتـــين عليهمـــــا كـــفـــان

كـــالزبـــد لينـــــا في نعومـــة ملس
أصـــــــداف در دورت بـــــوزان

يـــارب غفرا قـــد طغـــت أقـــلامنـــا
يـــارب معـــــذرة مـــن الطغيـــان

تاجـــع قـواك لمـــا هنـــاك وغض منـ
ـك الطرف واصبر ســاعــة لزمــان
مـــا ها هنـــ والله مـــا يسوى قـــلا
مـــة ظفـــر واحـــدة مـــن النسوان
ونصيفهـــا خـــير مـــن الدنيـــا ومـــا
فيهـــا اذا كـــانت مـــن الاثســـان
لا تؤثر الادنـــى علـــى الاعلـــى فـــان
تفعـــل رجعـــت بـــذلـــة وهـــوان
واذا بـــدن في حـــة مـــن لبســـهـــا
وتســـايلـــت كتســـايـــل النشوان
تهتـــز كـــالغصن الـــرطيب وحملـــه
ورد وتفـــاح عـــلى رمـــــــان
وتبختـــرت فـــي مشـــيهـــا ويحـــق ذا
ك لمثلهـــا في جنـــة الرضـــوان
ووصـــائف مـــن خلفهـــا وأمـــامهـــا
وعلـــى شمـــائلهـــا وعـــن أيـــمـــان
كالبـــدر ليلـــة تسـه قـــد حف فـــي
غسق الـــدجى بكـــواكب الميـــزان
فلســـانـــه وفـــؤاده والطـــرف في
دهشـــ وإعجـــاب وفي ســـبحـــان

نستنطق الافواه بالتسبيح اذ
تبدو فسبحان العظيم الشان
والقلب قبل زفافها في عرسه
والعرس اثر العرس متصلان
حتى اذا ما واجهته تقابلا
أرأيت اذ يتقابل القمران
وسل المتيم أين خلف صبره
في أي واد أم بأي مكان
وسل المتيم كيف حالته وقد
ملئت له الأذنان والعينان
من منطق رقت حواشيه ووجـ
ـه كم به للشمس من جريان
وسل المتيم كيف عيشته اذا
وهما على فرشيهما خلوان
يتساقطان لآلنا منثورة
من بين منظوم كنظم جمان
وسل المتيم كيف مجلسه مع الـ
محبوب في روح وفي ريحان
وتدور كاسات الرحيق عليهما
بأكف أقمار من الولدان

يتنازعان الكأس هذا مرة
والخود أخرى ثم يتكئان

غاب الرقيب وغاب كل منكد
وهما بثوب الوصل مشتملان

اتراهما ضجرين من ذا العيش لا
وحياة ربك ما هما ضجران

يا عاشقا هانت عليه نفسه
اذ باعها غبنا بكل هوان

اترى يليق بعاقل بيع الذي
يبقى وهذا وصفه بالفاني

تعليق الاستاذ أحمد عبيد :

هذا وقد علق الاستاذ الاديب السيد أحمد عبيد ناشر كتاب روضة المحبين بعد ذكر مقتطفات من هذه القصيدة الكافية الشافية تعليقا قيما ، رد فيه مزاعم الذين يقولون : ان نعيم الجنة نعيم روحي لا نصيب للجسم فيه . نذكر هذا التعليق اللطيف بنصه أمانة للعلم ولان هذا التعليق لم يبق حجة لاولئك المتحذلقين ، قال : « لقد انكر بعض الناس أن يكون نعيم الجنة ماديا يباشره الخلق بأجسامهم ويرونه بأبصارهم، وهم يدعون أن النعيم في الآخرة روحي محض ليس للاجسام علاقة به ولا يخفى ما في هذا الرأي من الزيغ والضلالة . وأي زيغ أشد من رد ما جاءت به الآيات البينات والاحاديث الصحيحة الثابتة ان أحوال البرزخ والقيامة وما بعدهما من الامور المغيبة التي لا يمكن أن يكون المرجع فيها الى الرأي والاجتهاد ، بل لا بد من المصير فيها الى ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإذن ليس لنا من محيد عن أن نعتقد اعتقادا جازما لا تردد فيه ، أن الحال في الآخرة على ما وصف في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وهو ما عليه عامة السلف والخلف .

على أن الجنة ليست كما يفهمها آخرون مقصورة على التمتع بالشهوات من النساء والطعام والشراب ونحوها وانما هنالك أمور هي أسمى من ذلك وأعلى؛ منها، اجتماع أهل الجنة

بعضهم ببعض وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا ومنها : — وهو أفضلها وأعظمها على الاطلاق — رؤية اللـــه سبحانه وتعالى عياناً بغير حجاب وسماع كلامه بلا واسطة ومحاضرته العباد . وتذكيره عز وجل اياهم بما اتوا في الدنيا من غدرات وغير ذلك مما هو ثابت لا يمتري فيه الامن هم في ريبهم يترددون •

وبعد فلا أدري ما هو السبب الحامل على انكار كون نعيم الجنة مما يشترك في الاحساس به الاجسام والارواح مـــع أن الناس جميعا انما يسعون في الدنيا لتحصيل اللذة والنعيم وهما لديهم الغاية القصوى من الحياة المشوبة بالآلام والأسقام والفقر وخوف الانقطاع وما منا من أحد الا وهو يتوخى بعمله أي عمل كان ما يتوخاه العامل من الاجر حتى أولئك الذين يدعون أنهم انما يعملون ما يعملون قياما بالواجب واجابة لداعي الضمير . فان قصاراهم منه اللذة، وموضعها النفوس والاجسام وإن تعجب فعجب شأن أولئك الذين يستنكرون عيش الآخرة لما فيه مـــن الاقبال علـــى النعيم الخالص . ويعدون التقلب في أفنانه وامتاع النفس بلذاته من الامور التي يحسن بالعاقل أن يربأ بنفسه عن الرضى بها والركون اليها . وانمـــا هي شيمة العاطلـــين أولي النفوس الشهوانية والهمم الدنيئة . يقولون ذلك وهم يركبون رؤوسهم في اتباع الشهوات الموبقة بين سمع الخالـــق وبصرهم وينعون على أهل الصلاح أنهم عن صراطهم ناكبون ، وانهم عن

صفو هذا العيش ونعمته غافلون ولقد قال قائلهم ، وكان في تيه غيه وهواه سادرا :

ومن أجل كرهي للسخانيث انكـــرت

يـــدي ان تحلـــى في الجنان أساورا

الا فليعلم هؤلاء أن للمتقين مفازا . وان لهـــم في الجنة ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون . نزلا من غفور رحيم وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وهم فيها خالدون . تلـــك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار [1] .

وعلى هذا المنوال أخذ ينسج وفي هـــذه البراعة أخذ يرسم ويصف محاسن أعضائها وحليها وزينتها وأخلاقها ، وحبهـــا لمن هي له . وقصر طرفها عليه حيث ختم الفصل كما رأيت بقوله :

يا عاشقـــا هانـــت عليـــه نفســـه

اذ باعهـــا غبنـــا بكل هـــوان

أترى يليق بعاقـــل بيـــع الـــذي

يبقـــى وهـــذا وصفـــه بـــالفـــاني

ثم ذكر علامات المحبة وشواهدها فقال : « فمنها ادمـــان النظر . واقبال العين عليه ... فالمحب نظره وقف علـــى محبوبه كمـــا قيل :

---

(1) الروضة ص ٢٧٧ .

ان يحجبوها عن العيــون فقــد

حجبت عيني لهــا عــن البشر

ومنها : إغضاؤه عند نظر المحبوب اليه ورميه بطرفه نحــو الارض . وذلك من مهابته له وحيائه منه وعظمته في صدره ... قال الله تعالى مخبرا عن كمال أدب رسوله في ليلة الاســراء : (ما زاغ البصر وما طغى[1]) وهذا غاية الادب فان البصر لــم يزغ يمينا ولا شمالا . ولا طمح متجاوزا الى ما هو رائيه ومقبل عليه كالمتشارف الى ما وراء ذلك . .

ومنها : كثرة ذكر المحبوب ، واللهج بذكره فمــن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الاحوال وأمرهم بذكــره أخوف ما يكونون فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »[2] والمحبون يفتخرون بذكر احبابهم وقت المخاوف . وملاقاة الاعداء كما قال :

ذكرتــك والخطي يخطــر بيننــا

وقد نهلت منــا المثقفة السمر

---

(١) النجم الآية / ١٧ .

(٢) الانفال / ٤٥ .

ولقد ذكرتــك والرمــاح كأنهــا
اشطان بئــر في لبان الأدهــم

فوددت تقبيــل السيوف لانهــا
برقت كبــارق ثغــرك المتبسم

ومنها : الانقياد لامر المحبوب وايثاره على مراد المحب ... فالطاعة للمحبوب عنوان المحبة كما قيل :

تعصي الالــه وأنت تزعــم حبــه
هذا محــال في القياس بديــع

لو كــان حبــك صادقا لاطعتــه
ان المحــب لمــن يحب مطيــع

ومنها : قلة صبر المحب عــن المحبوب وايثاره علــى مراد المحب كمــا قيل :

والصبر يحمد في المــواطن كلهــا
وعن الحبيب فانــه لا يحمــد

ومنها : الاقبــال على حديثه وإلقاء ســمعه اليــه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ... فالمحبون لا شيء الذ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم ، وفيه غاية مطلوبهم ، ولهذا لم يكن شيء ألذ لاهل المحبة من سماع القرآن ، وقد ثبت في الصحيحين

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علي قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل . قال اني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى اذا بلغت قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الآن . فرفعت رأسي فاذا عيناه تذرفان[1] . وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي ، فهؤلاء قتلى القرآن لا قتلى عشاق المردان والنسوان .

ومنها محبة دار المحبوب وبيته ، وهذا هو السر الذي لاجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول اليها هجر الاوطان والاحباب ... واذا كان من يحب مخلوقا مثله يحب داره كما قيل :

أمر على الديار ديار سلمى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

---

(1) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

فكيف بمن ليس كمثله شيء . وليس كمثل محبته محبة .

ومنها : الاسراع اليه في السير وحث الركاب نحوه . ومحبة أحباب المحبوب وجيرانه . وخدمه . وما يتعلق به كما قال :

أحب بنـــي العوام طـــرا لاجلهـــا
ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

ومنها : انجلاء همومه وغمومه اذا زار محبوبــه أو زاره

يزور فتنجلــي عنــي همـــومي
لان جــلاء همــي في يديـــه

ومنها : قصر الطريق حين يزوره

وكنت اذا ما جئت ليلـى أزورهـا
أرى الارض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفـرات البيض ود جليسهـا
اذا ما انقضت احدوثة لو تعيدها

ومنها : غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه . وبذل المحب في رضى محبوبه ما يقدر عليه وسروره بما يسر به محبوبه . كائنا ما كان كما قال أبو الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخـــر عنـــه ولا متقـــدم

وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا
ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم
اذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة
حبا لذكرك فليلمني اللوم

ومنها : حب الوحدة والانس بالخلوة والاستكانة للمحبوب وخضوعه وذله له . والحب مبني على الذل للمحبوب . بل كثير منهم يعد ذله عزا كما قال :

اذا كنت تهوى من تحب ولم تكن
ذليلا له فاقر السلام على الحب
تذلل لمن تهوى لتكسب عزة
فكم عزة قد نالها المرء بالذل

ومنها : امتداد النفس وتردد الانفاس وتصاعدها وهذا نوعان : احدهما ما يقارنه حزن واهف كما قال القائل :

تردد أنفاس المحب تدلنا
على كنه ما أخفاه من ألم الحب

اذا خطرات الحب خامـرن قلبـه
تنفس حتـى ظـل منقطع القلب

والثاني ما يكون سببه طربا ولذة وسبب وجـود النوعيز انحصار القلب وانفراجه بسبب الوارد الذي يرد عليه

ومنها: هجره كل سبب يقصيه من محبوبه ويبغضه المحبوب، وارتياحه لكل سبب يدنيه منه ويستحمد بـه عنده اذا بلغه عنه، وفي هذا الباب عجائب للمحبين . فكثـير منهم هجـر طعاما أو لباسا أو أرضا أو صناعة أو حالـة من الحالات كـان محبوبه يمقتها فلم يعد اليها أبدا ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة . وكثير منهم حمله الحب على اكتساب المعالي والفضائل وغيرها مما يعلم أن المحبوب يعظمه ويحبه . وهـذا نوعان أيضا : أحدهما : أن يكون المحبوب مؤثرا لذلك محبا له يبذل جهده فيه لينال منـه اعلاه ان أمكنه فان كان المحبوب مشغوفا بجمع المال أثر ذلـك في محبه شغفا أشد من شغفه ، وان كان مشغوفا بالعلم اجتهـد المحب في طلبه أشد من اجتهاده ، وان كـان مشغوفا بحرفة أو صناعة حرص المحب على تعلمها ... فالمحبة النافعة ان تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب الكمال .

والبلية كل البلية أن تبتلى بمحبة فارغ بطال صفر من كل خير فيحملك حبه على التشبه به .

والثاني : ان يكون المحبوب فارغا من محبة ذلك وايثاره ، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزما وارادة وحرصا على ما يعظم به في عين المحبوب وقلبه ، فتجده أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويرتاح للمعروف في طلب العلى
لتحمد يوما عند ليلى شمائله

وهذا قد يكون له سبب آخر ، وهو معاداة الناس له ، وتنقصهم اياه ، وازدراؤهم به فيحمله الانتماء لنفسه والغيرة لها ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد ؛ وهذا من شرف النفس وعزتها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فانني
أحبو بصالح شكري الاعداء
هم صيروا طلب المعالي ديدني
حتى وطئت بنعلي الجوزاء
ولربما انتفع الفتى بعدوه
والسم أحيانا يكون شفاء

وقال الآخر :

عداي لهم فضل علي ومنة
فلا أعدم الرحمن عني الأعاديا

هـم بحثوا عـن ذاتي بالجـ[illegible]

[illegible] الشمس [illegible]

ثم ذكر أن اقتضاء [illegible] الحب [illegible] عدم التشريك بينه وبين غيره [illegible]

هذا من موجبات [illegible] في هوى الحب متى انصرف الى جهة [illegible] عنها [illegible] ومن أمثال الناس : ليس في القلب [illegible] أبو محمد بن حزم في [illegible] على من يزعم انه يعشق أكثر من واحد وقال في ذلك شعرا قال بعد كلام طويل : ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين . وانما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفا . وهي علـى المجاز تسمى محبة لا على التحقيق . وأما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثان وفي ذلـك أقـول :

كذب المدعي هوى اثنـين حتمـا
مثل ما في الاصول أكذب ماني

ليس في القلـب موضـع لحبيبيـ
ـن ولا احـدث الامـور اثنان

فكما العقل واحد ليس يدري
خالقا غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يقوى
غير فرد مباعد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شـ
ـك بعيد من صحة الايمان
وكذا الدين واحد مستقيم
وكفور من عنده دينان

وبعد أن حقق المسألة قال : والتحقيق انالمحبوب لا يمكن الا أن يكون واحدا .

وذكر غيرة المحبين فقال : هي نوعان : غيرة للمحبوب ، وغيرة عليه فالغيرة له ، نحو غيرة الرسل واتباعهم لله من أن تنتهك حرماته . ثم قسم الغيرة على المحبوب الى ممدوحة ومذمومة ، فالممدوحة ان يغار عند الريبة . والمذمومة عند مجرد سوء الظن . قال : وهذه الغيرة تفسد المحبة ، وتوقع العداوة وأطال في ذكر الامثلة من غيرة المحبين على أحبابهم فذكر غيرة سارة من أمتها هاجر بعدما وهبتها لسيدنا ابراهيم عليه السلام وغيرةالسيدة عائشة الصديقة من خديجة الكبرى رضي الله

عنهما ، وغيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم على مارية القبطية من قريب لها ، وغيرة ابن عمر على زوجه لانها كلمت قريبا لها من خلف الجدار ، وكان لا يعلم بقرابته لها ، وغيرة معاذ على زوجه لانها رمت بتفاحة أكلت منها لغلامه ، واستطرد كما هي عادته لذكر غيرة الله على قلب عبده المؤمن وأنه تعالى يكره ان يكون قلب المؤمن معطلا من حبه وخوفه ورجائه ، وأنه تعالى يغار على توحيده ودينه وكلامه ان يحظى به من ليس من أهله ثم ذكر الغيرة على دقيق العلم ، وذكر الغيرة عند المتصوفة ، وأن منهم من بلغت به الغيرة لدرجة ، أنه يغار ان يذكر الله احد غيره ، بل منهم من يغار من نفسه ، وينزه لسانه عن ذكر الله . ثم رد شبه هؤلاء وأظهر جهلهم ثم قال : وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيرة العبد لربه ان تنتهك محارمه ، وتضيع حدوده ، وغيرته على قلبه أن يسكن الى غيره وأن يأنس بسواه ، وغيرته على حرمته وأن يتطلع اليها غيره .

ولما كانت الغيرة والعفة متلازمتين ، ذكر عفة المؤمنين الموصوفين بقوله تعالى : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم

او ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . وذكر عفة يوسف الصديق عليه السلام ، وأنه اجتمع له من الدواعي ما لو حصل بعضه لغيره لزلت به قدمه . وهوى في حمأة الرذيلة . وأن الله ضرب لعباده مثلا أعلى بقصة يوسف عليه السلام في العفة لمن وقع بمثل ما حدث له مع امرأة العزيز . وأن العاقبة للمتقين ، ولسوف تظهر الحقيقة ولو بعد سنين . كما اعترفت امرأة العزيز في ختام قصتها معه ، وشهادة من أشاع السوء عنها من النسوة عندما واجهن الحقيقة . قال تعالى على لسان الملك : « ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن . حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

العفة والهوى العذري :

وعقب على ذلك بذكر غيرة اهل الدين وعفافهم نساء ورجالا ، ثم ذكر الهوى العذري وأسباب العفة ، ولذة أهل العفاف وأنها تفوق لذة الوصال المحرم بمراحل . وأورد اخبارا وحكايات نذكر منها بعضها على سبيل المثال وليست هي أروعها وأبدعها قال : « ذكر المبرد عن ابي كامل عن اسحاق

ابن ابراهيم عن رجاء بن عمرو النخعي قال : كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد ، فنزل في جوار قوم من النخع ، فنظر الى جارية منهن جميلة فهويها وهام عقله بها ونزل بالجارية ما نزل به . فارسل يخطبها من أبيها ، فأخبره ابوها أنها مسماة لابن عمها . فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى ارسلت اليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي . وقد اشتد بلائي بك . فان شئت زرتك وان شئت سهلت لك ان تأتيني الى منزلي .

فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلتين . اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . اخاف نارا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها ، فلما أبلغها الرسول قوله . قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ، والله ما أحق بهذا من احد . وان العباد فيه مشتركون ، ثم انخلعت من الدنيا والقت علائقها خلف ظهرها وجعلت تتعبد ، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا اليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ، ويدعو لها . فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر . فقال : كيف أنت . وما لقيت بعدي ؟ قالت :

نعم المحبة ياسؤلي محبتكم
حب يقود الى خير واحسان

فقال على ذلك إلامَ صرت ؟ . فقالت :

الــى نعيــم وعيش لا زوال لــه

في جنة الخلد ملك ليس بالفــاني

فقال لها اذكريني هناك فانى لست انساك فقالت : ولا انا والله أنساك ولقد سألت مولاي ومولاك ان يجمع بيننا فأعني على ذلك بالاجتهــاد ، فقال لهــا : متى أراك فقالت ستأتينا عن قريب فلم يعش الفتى بعد هذه الرؤيا الا سبع ليال حتى مــات رحمــه اللــه .

وقال عبد الملك بن قريب : قلت لاعرابي حدثني عن ليلتك مع فلانه قال : خلوت بها والقمر يرينيها فلما غاب القمر أرتنيه قلت فما كان بينكما ؟ قال : اقرب ما أحل اللــه مما حرم اللــه : الاشارة بغير ما بأس ، والدنو من غير مساس . ولعسرك لئن كانت الايام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معهــا . وحسبك بالحب :

مــا ان دعاني الهــوى لفاحشــة

ولا مشت بــي لريبــة قــــدم

فــلا الــى فاحش مــددت يــدي

ولا مشت بــي لريبــة قــدم

وقال عثمان بن الضحاك الحزامــي : خرجت اريــد الحج

فنزلت بالابواء فاذا جارية على باب خيمة ، فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل ان يرحل الركب
وقل : ان تملينا فما ملك القلب

فقالت : ياهذا اتعرف قائل هذا الشعر ؟ قلت : نعم . نصيب قالت: فتعرف زينبه ؟ قلت لا قالت : فأنا زينبه، قلت : حياك الله . قالت : اما ان اليوم موعده من عند امير المؤمنين خرج اليه عام أول فوعدني هذا اليوم لعلك لا تبرح حتى تراه قال : فبينا أنا كذلك اذ أنا براكب ، قالت : ترى ذلك الراكب ؟ اني لاحسبه اياه ، قال : فأقبل ، فاذا هو نصيب ، فنزل قريبا من الخيمة ثم اقبل فسلم حتى جلس قريبا منها يسائلها وتسائله أن ينشدها ما احدث فأنشدها ، فقلت في نفسي : محبان طال التنائي بينهما لا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة ، فقمت الى بعيري لأشد عليه ، فقال : على رسلك اني معك فجلست حتى نهض معي فتسايرنا ثم التفت الي فقال : أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول التنائي فلا بد أن يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة ؟ قلت نعم قد كان ذلك قال : ورب هذه البنية ما جلست منها مجلسا هو اقرب من هذا .

ثم يروي ابن القيم رحمه الله جملة طريفة ونكتة طريفة عن بعض ظرفاء الحجاز يبين فيها تطور الاخلاق والفرق بين عفة السلف ورذالة الخلف . اي العشق العذري الرفيع والعشق البهيمي الوضيع فيقول : « قال عمر بن شبة : حدثنا أبو غسان قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولا يفرح أن يرى من يراها فان ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الاشعار واليوم يشير اليها وتشير اليه فيعدها وتعده فاذا التقيا لم يشك حبا ولم ينشد شعرا وقام اليها كأنه قد أشهد على نكاحها ابا هريرة رضي الله عنه » .

وبعد ان يروي عدة اخبار بهذا المعنى يعود الى اخبار أهل العفة فيقول : « قيل لا حدهم وقد زوجت عشيقته من ابن عمها وقد هيأها اهلها على اهدائها اليه ، أيسرك ان تظفر بها الليلة ؟ قال : نعم والذي امتعني بها وأشقاني بطلبها ، وقيل : فما كنت صانعا ؟ قال : كنت اطيع الحب في لثمها . وأعصي الشيطان في اثمها ولا افسد عشق عشر سنين بما يبقى عاره وتنتشر بالقبيح أخباره في ساعة تنفذ لذتها وتبقى تبعتها إني ـ اذا ـ للئيم ولم يغذني اصل كريم وقال : « دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وهو لا يعرفها ترفع مظلمة لها ، فلما سمع كلامها تعجب منه ، فقال له

بعض جلسائه : هذه عزة كثير فقال لها عبد الملك : ان أردت أن أرد عليك مظلمتك فأنشديني ما قال فيك كثير . فاستحيت وقالت : والله ما اعرف كثيرا ولكني سمعتهم يحكون انه قال في :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

فقال عبد الملك ليس عن هذا أسألك . ولكن انشديني من قوله :

وقد زعمت اني تغيرت بعدها
ومن ذا الذي ياعز لا يتغير

تغير جسمي والخليقة كالذي
عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

قالت ما سمعت هذا ولكني سمعت الناس يحكون عنه انه قال فيَّ :

كأني انادي صخرة حين أعرضت
من الصم ، لو تمشي بها العصم زلت

صفوح فما تلقاك الا بخيلة
فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فقضى حاجتها ورد مظلمتها ، وقال : أدخلوها على الجواري يأخـذن من أدبهـا .

وقال : دخلت عزة يوما على ام البنين أخت عمر بن عبـد العزيز : فقالت ياعزة ما قول كثير ؟

قضـى كـل ذي ديـن فوفـى غريمـه
وعـزة ممطـول معنـى غريمهـا

ما كان هذا الدين فقالت : كنت وعدته بقبلة فتحرجت منها ، فقالت : أم البنين أنجزيها ، وعلى اثمها ، قالت : فاعتقت ام البنين بكلمتها هذه اربعين رقبة ، وكانت اذا ذكرتها بكت وقالت : ليتني خرست ولم اتكلم بهـا .

وقال : كان اخوان من ثقيف من بني كنة بينهما من التحاب شيء لا يعلمه الا اللـه وكل واحد منهما اخوه عنـده عـدل نفسه . فخرج الاكبر منهما الى سفر له وله امرأة فأوصى اخاه بحاجة أهله ؛ فبينا المقيم في دار الظاعن اذ مرت امرأة اخيه في درع تجوز من بيت الى بيت وكانت من اجمل البشر فرأى شيئا حيره فلما رأته ولولت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتا ووقـع حبها في قلبه . فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه وقدم أخوه فقال : مالك يا أخي متغيرا، ما وجعك ؟ قال: مابي من وجع، فدعى له الاطباء فلم يقف على دائه غير الحارث بن كلدة ، وكان طبيبـا فقال : أرى عينين صحيحتين وما أدري ما هذا الوجع وما اظنه

الاعاشقا . فقال له اخوه : سبحان الله أسألك عن وجع أخي وانت تهزأ بي . فقال : مافعلت . وسأسقيه شرابا عندي فان كان عاشقا فسيتبين لكم . فأتاه بشراب فجعل يسقيه قليلا قليلا فلما أخذه الشراب هاج وقال :

ألمـــا بـــي علـــى الأبيـــا
ت مـــن خيـــف نـــزرهنــــه
غـــزال مـــا رأيـــت اليـــو
م فـــي دور بنـــي كنـــه
أســـيل الخـــد مربـــوب
وفـــي منطقـــه غنــــه

فقال: انت طبيب العرب فبمن؟ قال : سأعيد له الشراب ولعله يسمي فأعاد له الشراب فسمى المرأة فطلقها اخوه ليتزوجها فقال المريض : علي كذا وكذا ان تزوجتها ، فقضى ولم يتزوجها ، ثم ختم الباب بقصة بثينة وجميل عندما وشت بهما الجارية ، وراقبها ابوها واخوها فسمعاه يقول لها : يا بثينة أرأيت ما بي من الشغف والعشق الا تجزينه ، قالت : له بماذا قال بما يكون بين المتحابين . فقالت له يا جميل اهذا تبغي والله لقد كنت بعيدا مني فاذا عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهي ابدا ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لاعلم ما عندك ولو علمت انك تجيبنني اليه لعلمت انك تجيبين غيري ، ولو رأيت منك

مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما إستمسك في يدي ان طاوعتني نفسي أو هجرتك أبدا . او ما سمعت قولي :

وإني لأرضى مـن بثينة بالـذي
او ابصره الواشـي لقرت بلابلـه
بـلا وبـأن لا اسـتطيع وبالمنـى
وبالامـل المرجـو قـد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضـي
آواخـره . لا نلتقـي وأوائلـه

فقال ابوها لأخيها : فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم ان نمنع هذا الرجل من إتيانهـا .

عقاب مرتكبي الحرام :

ولم ينس ان يذكر عقاب مرتكبي سبل الحرام . وما تفضي اليه من المفاسد والآلام . وبين مضـار هذه السبل دينـا وأدبا واجتماعا . وابتدأ الكلام على مضار الزنى من الوجهة الدينية . وأورد ما ذكره البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب وفيه : « وأما الرجال والنساء في مثل بناء التنور . فانهم الزناة والزواني » وروى غيره كثيرا من الاحاديث الزواجر عن هـذه السبل الممقوتة . ثم قال : « ويكفي في قبـح الزنـى أن اللـه سبحانه وتعالى مع كمـال رحمته شرع فيه أوحش القتـلات وأصعبها وأفضحها . وأمر ان يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله.

قال : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ومن قبحه ان اللـه سبحانه فطر عليه ــ اي عقاب الزناة ــ بعض الحيوانات البهم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الاودي قال : « رأيت في الجاهلية قردا زنى بقردة فاجتمع عليهما القردة فرجموهما حتى ماتا وكنت فيمن رجمهما » ثم من مضاره من الوجهة الاجتماعية : أنه محور خلال الشر فقال ما ملخصه : « والزنى يجمع خلال الشر كلهـا : من قلة الدين • وذهـاب الورع • وفساد المروءة وقلة الغيرة والحياء • ومن موجباتـه غضب الرب سبحانه وتعالى وسواد الوجـه • وظلمة القلب • وطمس نور الوجه • والفقر اللازم وأنه يسلب فاعله اسم البر والعفة والعدالة والايمان » وأطال كثيرا في تعداد مخازيه وموجباته ثم ذكر ماهو اشنع ذكرا وأقبـح فعلا سبيل الامـة الملعونة ، وذكـر اختلاف العلماء في حد فاعله هل يحرق بالنار ام يرمى من شاهق • ثم ذكر قصة سيدنا لوط عليه السلام ، والصحيح في تفسير قوله تعالى : (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) وانه يريد ان ينكحن قومه نكاحا شرعيا • ثم عقب القصة بما ورد من الآثار في الكتاب والسنة في عقاب فعلة ذلك ما في بعضه اكبر رادع وأعظم زاجر ، وأن اللـه انزل عليهم من العذاب انواعا • عمى الابصار وخسـف الديـار والقذف بالاحجار ، ودخول النار • ثم قال : فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الاليم ، وتسوق صاحبها الى مرافقـة اصحـاب

الجحيم ، تذهب اللذات وتعقب الحسرات وتفنى الشهوة وتبقى الشقوة ...

تفنى اللـــذاذة ممن نال صفوتهـــا
من الحرام ويبقى الخزي والعـــار
تبقى عـــواقب ســـوء في مغبتهـــا
لاخـــير في لذة من بعـــدها النـــار

وأما ان كانت الفاحشة مع ذي رحم محرم ، فذلك الهلك كل الهلك ويجب قتل الفاعل بكل حـــال وكان في الآخـــرة من الهالكين لقول النبي الكريم صلى اللـــه عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من أتى ذات محرم » وقوله : من تخطى الحرمتـــين فخطوا وسطه بالسيف .

الشفاعة للمحبين :

ولم ينس أن يذكر الشـــفاعة للمحبين لـــدى أحبابهم ، ففسر أولا قوله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) وبين النكتة في كون الله تعالى ذكر الشفاعة الحسنة مقرونة بالنصيب والشفاعة السيئة مقرونة بالكفل فقال : « ان لفظ الكفل يشعـــر بالحمل الثقيل ولفظ النصيب يشعـــر بالحظ الـــذي ينصب طالبـــه في تحصيله ، وإن كان كل منهما يســـتعمل بالامرين عند الانفراد

ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل » واستدل على استحسان الشفاعة للمحبين بشفاعة سيد الشافعين صلى الله عليه وسلم لمغيث عند بريرة • وانها لما قالت : أتأمرني أن أرجع اليه ؟ قال : لا انما أنا شافع . وبما جاء في صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : إن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته له . وكان خطبها قبل ذلك عم بنتها فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنهـا كارهة هذا الذي زوجها أبوها • وأنه كان يعجبها أن يتزوجها عم بنتها • فأهـدر النبي صلى الله عليه وسلم نكاح أبيها وزوجهـا عم بنتهـا •

أقول : فلينظر أولئك الذين يزعمون نصرة المرأة واعطاءها حقوقها هل هضمها الاسلام حقهـا حتى ينبري أولئك لنصرتها وإعادة حقها لها •

وفات أولئك أن من بعض أسلحة الاستعمار هذه المخازي التي انتشرت في مجتمعنا من تخنفس وتخنث واسترجال الفتيات بتقليد الشبان بلبس البنطلونات الضيقة والبيجامات الزاهيـة التي تلبس في غرف النوم حتى اختلط الامر على كثير من الناس وصعب على الكثير منهم التمييز بين الفتى والفتاة •

وبإدمان النظر الى هذه المناظر المخزيـة والمشاهد المؤذية

ماتت الغيرة في النفوس ، واندثرت الحمية من الرؤوس ، فترى أحدهم يتأبط ذراع زوجته أو أخته أو ابنته وهي بأبهى زينتها عارية الزنود ، بادية النهود ، حاسرة الشعر والنحر والصدر كاشفة الساقين حتى الفخدين يعرضها وليها عرض الجواري بسوق النخاسين . لا بل كان أولئك أستر من هؤلاء والنخاسون أشد غيرة على جواريهم من هؤلاء على زوجاتهم وبناتهم .

ولسوف يكون عاجلا أو آجلا — ان لم يتدارك الامر — مصير المرأة الشرقية مصير المرأة الغربية ملايين منهن خليلات غير حليلات يبعن أجسادهن في سوق الشهوات والملذات بأبخس الاثمان . وسيكون عشرات الملايين من الاطفال غير معروفي الآباء .

هل إعطاء المرأة حقها من الحرية هو زجها في هوة الرذيلة وحمأة الفساد . أوليس كان الاجدر بهؤلاء أن يعيدوا لها حقها الطبيعي الذي منحها اياه من أوجدها على هذه الصورة والذي هو أعلم بما تحتاجه من نظام لخصسه بعد ما فصله بقوله : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) .

بعد هذه الإشارة العابرة المظاهر وضع المرأة بصورة عامة وبخاصة الى المرأة العربية المسلمة التي بدأت تتقفى سير المرأة الغربية ، نعود لما نحن بسبيله من ذكر الشفاعة للمحبين

عند ابن القيم في روضته قال :

« سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه جارية تنشد :

وهويته مـن قبـل قطـع تمائمي
متمايسـاً مثـل القضيب الناعـم
وكـأن نور البدر سنـة وجهـه
ينمي ويصعد في ذؤابـه هاشـم

فطرق عليها الباب فخرجت اليه فقال : ويلك أحرة أنت أم مملوكة ؟ فقالت بل مملوكة ياخليفة رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم . قال فمن هويت ؟ فبكت ثم قالت : بحق اللـه إلا انصرفت عني . قال لا أريم أو تعلميني فقالت :

وأنـا التي لعبَ الغـرام بقلبهـا
فبكت لحبِ محمـد بن القاسـم

فصار الى المسجد وبعث الى مولاها . فاشتراها منه ، وبعث بهـا الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب .

وذكر عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب نحـو ذلك وروى قصة عاتكة بنت زيد قال : « كانت تحت عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكانت قد غلبته على عقلـه وشغلته عن سوقه فأمره أبو بكر بطلاقها واحدة ففعل فوجد عليهـا ،

فقعد لابيه على طريقه وهو يريد الصلاة فلما بصر بأبي بكر بكى وأنشأ يقول :

ولم أرَ مثلي طلق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير جرم يطلق
لها خلق جزل وحلم ومنصب
وخلق سوي في الحياة ومصدق

فرق له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بمراجعتها .

وذكر شفاعة عمر بن أبي ربيعة للعاشق الذي رآه يطوف بالبيت ويتتبع آثار أقدام ابنة عمه يضع رجله موضع رجلها يكتفي منها بذلك ولما سأله وعلم أنها ابنة عمه وأنه عاشق لها مملق . سعى في زواجه منها وساق المهر لعمه من ماله . وكان عمر قد ترك الشعر ونذر على نفسه بكل بيت يقوله هدي بدنة فلما تم له ما أراد وجمعهما جميعا . أتى منزله واستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه وجعل جوفه يجيش بالشعر . فأنكرت جاريته ذلك فجعلت تسأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي قد دهاك ! فلما أكثرت عليه جلس وأنشد :

تقول وليدتي لما رأتني
طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا
وهاج لك البكا داءً دفينا

بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك أم رأيت لها خدينا
فقلت شكا الي أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلينا
فعز عليَّ ما يلقى بهند
فوافق بعض ما كنا لقينا
وذو القلب المصاب وإن تعزى
يهيَّجُ حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها
لغير قلى وكنت بها ضنينا
رأيت صدودها فصددت عنها
ولو هامَ الفؤاد بها جنونا

ثم نقل عن الزمخشري في ربيع الابرار « أن زبيدة بنت جعفر قرأت في طريق مكة على حائط :

أما في عباد الله أو في إمائه
كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل
له مقلة أما المآقي فقرحة
وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمع بينه وبين من تحبه قالت فإني لبمزدلفة اذ سمعت من ينشدهما فاستدعيت به فزعم

أنه قالهما في بنت عم له ، وقد حلف أهلها أن لا يزوجها منه . فوجهت الى الحي وما زالت تبذل لهم من المال حتى زوجوه وإذا المرأة أعشق من الرجل ، فكانت زبيدة تعده في أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسر مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة » .

وفي الربع الاخير من الكتاب يتجلى في ابن القيم رحمه الله ذلك الروح الطاهر فيتحدث وهو المرشدالواعظ بأسلوبه الادبي ، فيشوب مرارة النصح والوعظ والارشاد بحلاوة الحب الطاهر العذري . ويمزج روادع الزواجر بأنوار البشائر ، فيعقد هذا الباب في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما فيقول : « هذا باب لا تدخل منه الا النفوس الشريفة الابية التي لا تقنع بالدون ، ولا تبيع الأعلى بالادنى بيع العاجز المغبون . . . وقد عاب الله أقواما استبدلوا طعاما بطعام أدنى منه فنعى عليهم وقال : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) وذلك دليل على وضاعة النفس وقلة قيمتها ثم يذكر أمثلة وعظات وحكايات عن العلماء والحكماء في هذا المعنى ما يشوق القارىء لترك الادنى لما هو خير منه ويذكر ما كان يتمثل به عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو أحسن ما قيل في هذا المعنى :

اذا المرء لـم يترك طعـامـا أحبـه
ولـم ينـه قلبـا غادياً حيث يسما
قضى وطراً منـه وغـادر سبـة
اذا ذكرت أمثـالهـا تسأ الفمـا

ولما كان الكلام في الزواجر والنواهي عن المعاصي . قال: إن أبلغ زاجر ورادع هو الزاجر القلبـي . والواعظ النفسـي . واستشهد بقصة أبي العتاهية مع أبي نواس فقال : « قال أبو العتاهية : لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته وقلت له : أما آن لك أن ترعوي وتنزجر فرفع رأسه الي وقال :

أتـراني يا عتـاهي تاركا تلـك الملاهي
أتراني مفسداً بالنسـ ـك عند القوم جاهي

فلمـا ألححت عليـه في العذل أنشأ يقول :

لا ترجـع الأنفس عـن غيهـا
مـا لـم يكـن منهـا لهـازاجر

يقول أبو العتـاهة : فوددت أني قلت هذا البيت بكـل شيء قلتـه »

الغاية من تأليف روضة المحبين :

ولما كانت غاية ابن القيم تغمده الله برحمته من وضعه لكتابه روضة المحبين هو ارشاد النفوس الزكية لطرق السلامة من عار الدنيا ونار الآخرة لم يفته أن يذكر ماأخرجه الامام أحمد في مسنده من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران . وفي السورين أبواب مفتحة . وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعرجوا . وداع يدعو فوق الصراط فاذا أراد أحد فتح شيء من تلك الابواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك ان فتحته ولجته ، فالصراط الاسلام والستور المرخاة حدود الله . والابواب المفتحة محارم الله . والداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل . والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » ثم سرد بضعة أحاديث وآثار في المعنى الى أن يقول : « وملاك الامر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه . والتقرب اليه بأنواع الوسائل والشوق الى الوصول اليه والى لقائه . فإن لم يكن للعبد همة الى ذلك ، فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعده الله فيها

لأوليائه فان لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعده الله فيها لمن عصاه ، فان لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم . ولا يقدر على ذلك [الا عبد قدر الله توفيقه] الا بمخالفة هواه » ثم يورد ما جاء في ذم متابعة الهوى من الآيات والحكم والآثار .

ثم تكلم على الرغبة في الله وأنها رأس مال العبد فيقسم الراغبين ثلاثة أقسام : راغب في الله، وراغب فيما عند الله. وراغب عن الله . فيقول : «فالمحب راغب فيه. والعامل راغب فيما عنده . والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه . ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم وتولاه في جميع اموره . ودفع عنه مالا يستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقاية الوليد . وصانه من جميع الآفات ، ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره ، ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه . ومن عرف الله لم يكن شيء احب اليه منه . ولم تبق له رغبة فيما سواه الا فيما يقربه اليه ويعينه على سفره اليه » .

ثم ذكر المعرفة بالله وأنها تدعو الى حبه . ومن علاماتها الهيبة . وذكر حد المعرفة عند المتصوفة ، امثال الجنيد . ويحيى ابن معاذ وابي سليمان الداراني وذي النون . فمنها قول بعضهم : « يخرج العارف من الدنيا ، ولا يقضي وطره من شيئين بكاؤه على نفسه ، وشوقه الى ربه، وقول الآخر : «لا

يكون العارف عارفاً حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين » ، وقال : « العارف أنس بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر الى الله فاغناه الله عن خلقه ، وذل لله ، فأعزه الله في خلقه » ثم تكلم على المحبة وحدها في اصطلاح العارفين فيروي عن المحاسبي في حدها قوله : « المحبة ميلك الى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وزوجك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا » .

وبينما نرى ابن القيم مسترسلا في ذكر المحبة عند أمثال الجنيد والمحاسبي وابن المبارك يتذكر موضوع كتابه وأنه وضعه لكل الطبقات ولربما تطرق الملل لنفس القارىء الذي لم يألف مثل هذا النوع من المطالعة فاستدراكا لذلك يروي هذه النكتة ، عن بعض الظرفاء ليوقظ من شعور القارىء وينبه افكاره فيقول : « يحكى ان رجلا ادعى الاستهلاك في محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخي أحسن مني وجها وأتم جمالا ؟ فالتفت الرجل اليه فدفعه الشاب وقال : من يدعي هوانا ينظر الى سوانا ؟ » ثم يختتم الفصل بقول سمنون : « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : المرء مع من احب ، فهم مع الله في الدنيا والآخرة » .

ثم لما كانت المحبة من لازم المعرفة ، وكان يتكلم على المعرفة

عند القوم رأى أن يتبعهـا بلازمها فقال : « المحبـة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته. وورقها الحياء منه ، وثمرتها طاعته ، ومادتها التـي تسقيهـا ذكره . فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصا » . وهنا يفيض في الكلام كأنما يغرف من بحر ، فيشرح حديث أنس بن مالك عند البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وما تقرب اليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر بـه . ويده التي يبطش بهـا ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنـه . وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبـدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » ، فيعلق عليه بشرح لطيف ثم يورد بضعة احاديث صحاح في هذا المعنى كقول رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : « ان اللـه اذا احب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا ، فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء قال: ثم يوضع له القبول في الارض. واذا أبغض عبدا دعا

جبريل فيقول : اني أبغض فلانا فابغضه قال : فيبغضه جبريل ثم ينادي في السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء في الارض » .

قال : وجاء في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة . فقال : وما اعددت لها ؟ قال لاشيء الا اني احب الله ورسوله فقال : انت مع من احببت . قال انس رضي الله عنه فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . قال انس : فأنا احب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وارجو ان اكون معهم بحبي اياهم وان لم اعمل اعمالهم . » ثم ذكر ماورد في المتحابين في الله وانهم يوم القيامة على منابر من نور يغبطهم الانبياء والشهداء .

ثم يتكلم على ثمرة المحبة فيقول : ولو لم يكن في محبة الله الا أنها تنجي محبه من عذابه ، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً . وسئل عبد الله بن عباس : أين نجد في القرآن ان الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : في قوله : وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم » .

ولهذا كان من افضل ما سئل اللـــه عز وجل حبه . وحب من يحبه . وحب عمل يقرب الى حبه . ومن اجمع ذلك أن يقــول : اللهم اني اسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني الى حبك اللهم ما رزقتني مما احب فاجعله قوة لي فيما تحب وما زويت عني مما احب فاجعله فراغا لي فيما تحب . اللهم اجعل حبك أحب الي من اهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ . اللهم حببني اليك والى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين . واجعلني ممن يحبــك ويحب ملائكتــك وأنبيــاءك ورســلك وعبادك الصالحين . اللهم احي قلبي بحبك واجعلني لــك كما تحب . اللهم اجعلني احبك بقلبي كله . وأرضيك بجهدي كله اللهم اجعل حبي كله لك وسعيي كله في مرضاتك .

ثم يروي حديث « ان اللــه جميل يحب الجمال » ويتكلم على جمال الله عزو جل . وأنه لا يستطيع بشر النظر الى جلاله وجماله . في هذه الدار ثم يروي حديث جابر بن عبد الله عنــد ابن ماجه عن رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم قال : « بينــا أهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فاذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فيقول : السلام عليكم يا أهل الجنة . وذلك قوله [سلام قولا من رب رحيم] فيرفعــون رؤوســهم فينظرون اليه . وينظر اليهم ، ولا يلتفتون الى شيء من النعيم حتى

يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم»: ثم ذكر حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في زيارة أهل الجنة ربهم وفيه « فعند ذلك ينظرون الى وجه رب العالمين ، فيقولون حين ينظرون الى وجهه : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، فيقول : كرامتي امكنتكم من النظر الى وجهي ، وأحلتكم داري ، فيأذن الله للجنة أن تكلمي فتقول : طوبى لمن سكنني، وطوبى لمن يخلد في ، وطوبى لمن أعددت له ، وذلك قوله تعالى : (طوبى لهم وحسن مآب) وقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) .

ثم على ذكر رؤية الله عز وجل يسرد ما ورد في هذا الموضوع من الاحاديث الصحيحة ردا على منكري الرؤية في الآخرة ، ثم يذكر نعيم الجنة وما أعد الله فيها لأحبابه ويذكر ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه في بعض نعيمها وفيه .. فتأتي سوقا قد حفت به الملائكة ، فيه مالم تنظر العيون الى مثله ، ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ، فيحمل الينا ما اشتهينا ليس يباع فيها شيء ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا ، فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك انه

لا ينبغي لاحد ان يحزن فيها ؛ وبعد أن يشوق القارىء الى ذلك النعيم يقول :

يامن شكى شوقه من طول فرقته
اصبر لعلك تلقى من تحب غدا
وسر اليه بنار الشوق مجتهدا
عساك تلقى على نار الغرام هدى

ثم يعقد فصلا يخاطب فيه أولئك الذين لم تصل كلماته الى اعماق قلوبهم فيقول : فان تقاصرت همتك الدنية عن ترك الفواحش محبة لهذا المحبوب الاعلى ولست هناك . فاتركها محبة للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه • وبعث رسوله داعيا الى وصالهن في جنة المأوى . وقد تقدم ذكر بعض صفاتهن ولذة وصالهن ، فان تقاصرت همتك عنهن ولم تكن كفء لخطبتهن ، ودعتك نفسك الى ايثار ما هاهنا . فكن من عقوبته العاجلة والآجلة على حذر •

ثم يتكلم على العقوبات وأنها تختلف « فتارة تعجل ، وتارة تؤجل . وتارة يجمع الله على العاصي بينهما . وأشد العقوبات العقوبة بسلب الايمان . ودونها العقوبة بموت القلب . ومحو لذة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة ، وربما دبت عقوبة القلب

فيه دبيب الظلمة الى ان يمتلىء القلب بها فتعمى البصيرة ، وأهون العقوبة ما كان واقعا بالبدن في الدنيا. وأهون منه ما وقع بالمال . وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة ، أو في البصر أو فيهما » .

ثم يختم الفصل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء في مغبتها
لا خير في لذة من بعدها النار

فصل مهم في أن الجزاء من جنس العمل :

ثم قال : ان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه . واستدل على قوله بحجج دامغة وشواهد صادقة ، منها قصة يوسف الصديق عليه السلام. وأنه لما اختار السجن على الفاحشة عوضه الله أن مكنه من ملك مصر يتبوأ منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرة معترفة بجريرتها وبراءته . وان سليمان عليه السلام لما عقر الخيل [١] التي شغلته عن الصلاة عوضه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر يسير على متنها حيث اراد ، وان المهاجرين تركوا اوطانهم وديارهم لله فأعاضهم الله عنها ان فتح عليهم

---

(١) لم يصح العقر عن سيدنا سليمان ، وانما مسح اعرافها واكفالها إكراما لها واعجابا بها ، وكيف يعقرها . وفي ذلك اتلاف المال . ومعاقبة من لا ذنب له .

الدنيا . ومصداق هذا قول سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم : النظر سهم من سهام ابليس مسموم من تركه خوف الله . آثابه الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه . وقوله عليه الصلاة والسلام : من قدر على امرأة أو جارية فتركها مخافة من الله أمنه الله يوم الفزع الاكبر . وحرمه على النار ، وأدخله الجنة . وذكر عن مالك بن دينار انه قال : جنات النعيم بين الفردوس وجنات عدن . فيها جوار خلقهن من ورد الجنة يسكنها الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل ، وذكر في الباب خمسة عشر قصة شاهدة بذلك نذكر منها بعضها قال : « قال ابو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : بلغني عن بعض الاشراف انه اجتاز بمقبرة فاذا جارية حسناء عليها ثياب سواد فنظر اليها فعلقت بقلبه فكتب اليها :

قد كنت أحسب آن الشمس واحدة
والبدر في منظر بالحسن موصوف
حتى رأيتك في أثواب ثاكلة
سود وصدغك فوق الخد معطوف
فرحت والقلب مني هائم دنف
والكبد حرى ودمع العين مذروف

ردي الجواب ففيه الشكر واغتنمي
وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة اليها فلما قرأتها كتبت :

ان كنت ذا حسب زاكٍ وذا نسب
ان الشريف بغض الطرف معروف

ان الزناة أناس لا خلاق لهم
فاعلم بأنك يوم الدين موقوف

واقطع رجاك لحاك الله من رجل
فان قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال : اليس امرأة تكون اشجع منك .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بمصر رجل فوجد على بعض عماله فحبسه وقيده . فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت اليه :

ايها الرامي بعينيـ
ـه وفي الطرف الحتوف

ان ترد وصلا فقد
امكنك الظبي الألوف

فأجابهــا الفتى :

ان تــرينــــي زانــــــي العيـــ
ـــنين فــالفــــرج عفيـــف

ليـــس إلا النظـــــــرُ الفـــــ
تـــــر والشـــعـــــر الظــريف

فأجــابته :

قــــد اردنـــاك فــــآلفيــــ
ـــنـــاك انســـانـــا عفيفـــا

فتـــأبيت فــــــلا زلـــــ
ـــت لتبـــديـــك حليفـــــا

فأجــابهـــا :

مـــــا تـــأبيـــت لانــــــي
كنــــت للظــــي عيــوفـــا

غــــير أنـــي خفــت ربـــــا
كــــان بـــي بــــــراً لطيفـــا

فذاع الشعر وبلغت القصة الوالي فدعا به وزوجه اياهـا ودفعها اليه ؛ وروي عــن أبي الفرج أيضا عن رجل مــن بعض المياسير قال بينا أنا يوما في منزلي اذ دخل علي خادم لي وقال لي :

رجل بالباب معه كتاب ، فقلت أدخله أو خذ كتابه . فأخذ الكتاب منه فاذا فيه :

تجنبك الردى ولقيت خيرا
وسلمك المليك من الغموم

شكون بنات احشائي اليكم
وما إن تشتكين الى ظلوم

وسالتني الكتاب اليك فيما
يخامرها ـ فدتك ـ من الهموم

وهن يقلن يا ابن الجود انا
برمنا من مراعاة النجوم

وعندك لو مننت شفاء سقم
لأعضاء دمين من الكلوم

فلما قرأت الابيات . قلت : عاشق ، فقلت للخادم : ادخله فخرج فلم يره . فارتبت في امره . فجعل الفكر يتردد في قلبي ، فدعوت جواري كلهن . فجمعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب فحلفن لي وقلن : يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سببا ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني. وما أردت سؤالكن الا أني ظننت له هوى في بعضكن . فمن عرفت منكن انها صاحبته فهي له فلتذهب اليه ولتأخذ كتابي اليه وكتبت كتابا اشكره على

فعله وأسأله عن حاله ووضعت الكتاب في موضع من الدار فمكث الكتاب في موضعه اياما لا يأخذه احد ولا أرى الرجل فاغتممت غما شديدا ثم قلت لعله بعض فتياننا ثم قلت : ان هذا الفتى قد اخبر عن نفسه بالورع وقد قنع ممن يحبه بالنظر فدبرت عليه ، فحجبت جواري عن الخروج فما كان الا يوم وبعض الآخر اذ دخل علي الخادم ومعه كتاب قال : ارسل به اليك فلان وذكر بعض اصدقائي ففضضته فاذا فيه مكتوب :

ماذا اردت الى روح معلقة
عند التراقي وحادي الموت يحدوها
حثثت حاديها ظلما فجد بها
في السير حتى تولت عن تراقيها
حجبت من كان تحيي عند رؤيتها
روحي ومن كان يشفيني ترائيها
فالنفس تجنح نحو الظلم جاهلة
والقلب مني سليم ما يواتيها
والله لو قيل لي تأتي بفاحشة
وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذي اخشى عقوبته
ولا بأضعافها ماكنت آتيها

لولا الحياء لبحنا بالذي كتمت

بنت الفؤاد وابدينا تسنيهـ

قال : فبهت وقلت : لا ادري ما أحتال في امر هذا الرجل

وقلت للخادم : لا يأتيك أحد بكتاب الا قبضت عليه حتى تدخله علي ؛ ثم لم اعرف له خبرا بعد ذلك . فبينا أنا أطوف بالكعبة اذ فتى قداقبل نحوي وجعل يطوف الى جنبي ويلاحظني وقد صار مثل العود . فلما قضيت طوافي خرجت واتبعني فقال : ياهذا أتعرفني ؟ قلت : لا انكرك لسوء قال : انا صاحب الكتابين ؛ فما تمالكت أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبي أنت وأمي والله لقد شغلت قلبي وأطلت غمي بشدة كتمانك لامرك فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال بارك الله لك وأقر عينيك انما أتيتك أستحلك من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة ؛ والهوى داع الى كل بلاء واستغفر الله العظيم فقلت ياحبيبي احب أن تصير معي الى منزلي فآنس بك وتجري الحرمة بيني وبينك قال : ليس الى ذلك سبيل . فقلت : غفر الله ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار . ولك في كل سنه كذا وكذا . قال : بارك الله لك فيها ؛ فلولا عهود عاهدت الله عليها. وأشياء أكدتها علي لم يكن فيالدنيا شيء أحب الي من

هذا الذي تعرضه علي ولكن ليس الى ذلك سبيل والدنيا منقطعة . فقلت له : فاذا أبيت أن تقبل مني ذلك فاخبرني من هي حتى اكرمها لاجلك ما بقيت ، فقال : ماكنت لاذكرها لاحد ثم قام وتركني » .

وروى حكاية المبرد عن شيخه ابي عثمان المازني قال : « قصده بعض اهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار فامتنع ورده ، فقلت له : أترد هذا القدر مع شدة فاقتك ؟ فقال ان هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى تمكين هذا الذمي منها غيرة على القرآن . فاتفق ان غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي :

أظلوم ان مصابكم رجلا

أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف أهل مجلسه في اعراب رجل فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم ان ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية اصرت على النصب وقالت لقنني اياه كذلك شيخي ابو عثمان المازني . فأمر الواثق بإحضاره الى بين يديه قال : فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل ؟ قلت من بني مازن ، قال أي الموازن ؟

امازن تيم ام مازن قيس ام مازن ربيعة ؟ قلت من مازن ربيعة . فكلمني بكلام قومي ، فقال لي : با اسك ، وقومي يقلبون الميم باء والباء ميما . فكرهت ان اواجهه بلفظة (مكر) فقلت : بكر يا امير المؤمنين . ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

اظلوم ان مصابكم رجلا
اهدى السلام تحية ظلم

اترفع رجلا ام تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا امير المؤمنين فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لان مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدي في معارضتي فقلت : هو بمزلة قولك « ان ضربك زيداً ظلم » فرجلا مفعول مصابكم ومنصوب به . والدليل عليه أن الكلام معلق الى أن تقول : ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد قلت نعم يا أمير المؤمنين ، بنية قال : فما قالت لك عند مسيرك الينا قلت : أنشدت قول الاعشى :

ايا أبتا لا ترم عندنا
فانا بخير اذا لم ترم

ترانا اذا اضرتك البلا
د نجفى وتقطع منا الرحم

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقـي باللـه ليس لـه شـريـك
ومـن عنـد الخليفة بالنجـاح

فقال : علي النجاح ان شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار . وردني الى البصرة مكرما . فلما عاد الى البصرة قـال لي : كيف رأيت يا آبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوضنا الله ألفاً » .

وفيمن آثر عاجل العقـوبة والآلام علـى لذة الوصـال الحـرام قـال :

« هذا باب انما يدخل منه رجلان : أحدهما : من تمكن من قلبه الايمان بالآخرة . وما اعد اللـه فيهـا من الثواب والعقاب لمن عصاه فآثر أدنى الفوتين . واختار أسهل العقوبتين . والثاني : رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد وما في العدول عنها من المصالح فآثر الاعلى على الادنى ... وقـد جرت سنة اللـه في خلقه أن من آثر الالم العاجل على الوصال الحرام اعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة .

ثم ذكر ثلاث حكايات عن بعض عباد بني اسرائيل ، وأنهم آثروا الالم العاجل علـى لذة الدنيا ففازوا بالنعيم ، وروى عـن جابر بن نوح قال : كنت بالمدينة جالسا عند رجل في حاجة فمر

بنا شيخ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام اليه ذلك الرجل ، فسلم عليه وقال : يا ابا محمد أسأل اللـــه ان يعظم أجرك وأن يربط على قلبك بالصبر فقال الشيخ :

وكان يميني في الوغى ومساعدي
فأصبحت قد خانت يميني ذراعهـــا

وقـــد صرت حيرانا مـــن الثكل باهتـــاً
أخـــا كلف ضـــاقت علـــي ربـــاعهـــا

فقال له الرجل : أبشر فان الصبر معول المؤمن ، واني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك : فقلت لــــه : من هـــذا الشيخ ؟ فقال : رجل منا من الانصار فقلت وما قصته ؟ قـــال : أصيب بابنه وكان به باراً . قد كفاه جميع مايعنيه ومنيته عجب ، قلت : وما كانت ؟ قال : أحبته امرأة فارسلت اليه تشكو حبه وتسأله الزيارة، وكان لها زوج فألحت عليه فأفشى ذلك الى صديق له فقال له : لو بعثت اليها بعض اهلك فوعظتها وزجرتها رجوت ان تكف عنك : فأمسك وارسلت اليه : اما ان تزورني واما ان أزورك فأبى فلما يئست منه ذهبت الى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب في تهييجه، فعملت لها في ذلك، فبينا هو ذات ليلة مع ابيه اذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه امر لم يكن يعرفه ،

واختلط ، فقام مسرعا فصلى واستعاذ والامر يشتد فقال : يا أبه ادركني بقيد فقال : يابني ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيده وأدخله بيتا . فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ثـم هدأ فاذا هو ميت والدم يسيل من منخره .

خاتمة الكتاب في ذم الهوى :

ثم ختم الكتاب في ذم الهوى وبين ما في مخالفته من نيل المنى . فعرف الهوى أولا، ثم بيّن ما يذم منه وما لا يذم . وبيّن أسباب قوته وضعفه ، وسرد في موضوع ذم الهوى وأثره وعلاجه خمسين وجهاً وكيفية التغلب عليه ، فاذا ما استعمل المرء أحدها غلب هواه وفاز بخيري الدنيـا والآخـرة . وكنت عزمت على تلخيصها ولكني بعد الامعان وجدتها في الذروة العليا من البلاغة وربما كان في تلخيصها خلل مخل واضاعـة للمعنى المراد ، اذ لم يخرج منها وجه عن مطابقة مقتضى الحال فأثبت بعضها لجزالة فائدتها وقد اخترت مـن الخمسين وجهاً ما كـان أصلا لغيره وتركت ما كان فرعاً عن غيره . قال رحمه اللـه : « الهوى ميل الطبع الى ما يلائمـه . وهـذا الميل خلق في الانسان لضرورة بقائه . فإنه لولا ميلـه الى المطعم والمشرب والمنكح . ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحث لمـا يـريـده . كما أن

الغضب دافع عنه ما يؤذيه . فلا ينبغي ذم الهوى مطلقا ولا مدحه مطلقا . وإنما يذم المفرط من النوعين . وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار . ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به اطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك . ويقف عنده . كما انه يندر في الامزجة المزاج المعتدل من كل وجه . بل لا بد من غلبة أحد الاخلاط ، والكيفيات عليه . فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه كحرص الطبيب على تعديل المزاج من كل وجه . وهذا يتعذر وجوده الا في حق أفراد من العالم . فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه وكذلك في السنة لم يجىء إلا مذموماً . إلا ما جاء منه مقيدا . كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . وقد قيل : الهوى كمين لا يؤمن . قال الشعبي : وسمي هوى . لأنه يهوي بصاحبه . ومطلقه يدعو الى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة . ويحث على نيل الشهوات عاجلا . وإن كان سببا لأعظم الآلام عاجلا وآجلا . فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة والهوى يعمي صاحبه عن ملاحظتها . والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألمآ وشهوة تورث ندماً . فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك لا تفعلي والطاعة لمن غلب . ألا ترى

أن الطفل يؤثـر ما يهـواه وإن أدّاه الى التلف لضعف ناهي العقل عنده • ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أدّاه الى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي المروءة ؛ فأين هـذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لـو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لمـا شربته » •

« ولما امتحن المكلف بالهوى من بين سائر البهائم • وكان كـل وقت تحدث لـه حوادث جعل فيه حاكمان . حاكم العقل وحاكم الدين وأمران يرفع حوادث الهوى لهذين الحاكمين وان ينقاد لحكمهمـا • وينبغي أن يتمرن علـى دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بـذلك على ترك مـا تؤذي عواقبه • وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون الى حالة لا يلتذون بها • وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه • ولهـذا ترى مدمن الخمر لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرا في الاحيان • غير أن العادة مقتضية ذلك فيلتقي نفسه في المهالك لنيل ما تطلبه به العـادة • ولـو زال عنه رين الهوى لعلم أنه قد شقي مـن حيث قـدر السعادة ؛ واغتم من حيث قـدر الفرح . وألم مـن حيث أراد اللذة فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح . لا هـو نال الحبة ولا هو تخلص مما هو فيه •

فصل في كيفية التخلص من الهوى :

فان قيل كيف يتخلص من هذا من وقع فيه . قيل : يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور :

١ ــ عزيمة حر يغار لنفسه وعليها .

٢ ــ جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

٣ ــ قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعه .

٤ ــ ملاحظته حسن موقع العاقبة .

٥ ــ ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

٦ ــ ابقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده .

٧ ــ ايثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .

٨ ــ التفكر في أنه لم يخلق للهوى وإنما هيء لأمر عظيم .

٩ ــ أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن منه حالا . فان الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه فيؤثر النافع على الضار . والانسان أعطي العقل لهذا المعنى فاذا لم يميز به ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان الحيوان البهيم أحسن منه .

١٠ ــ أن يألف لنفسه من ذل طاعة الهوى . فانه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلا .

١١ ــ أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه . وبين نيل اللذة المطلوبة فانه لا يجد بينهما نسبة البتة .

١٢ ــ أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئا إلا أفسده فان وقع في العلم أخرجه الى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الاهواء . وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه الى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه الى الظلم ... وهكذا ما خالط شيئاً إلا أفسده .

١٣ ــ أن يعلم أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه .

١٤ ــ أن يعلم أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه لأنه خان الله في عقله فأفسده عليه وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمر من الامور فانه يفسده عليه .

أقول : لما كان ابن القيم رحمه الله يعلم أن النفوس ليست كلها تصبر على مثل هذا الاستقصاء ؛ ولربما طرأ على بعضها ملل ، أدمج في ثنايا الموضوع خبرا صغيرا فيه بعض الطرافة تنبيهاً للاعصاب وإيقاظا للشعور فقال في الوجه الثامن والثلاثين عند الكلام على مغالبة الهوى وأن الشجاع من يغلب هواه : « دخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً فقال له سليمان : كيف ترى هذه الجارية فقال : أصلح الله الامير ما رأت عيناي

أحسن منها قط . فقال له خذ بيدها فقال : ماكنت لأفجع الامير بها وقد رأيت شدة عجبه بها ، فقال ويحك خذهـا على شدة عجبي بها ليعلم هواي اني له غالب ، فأخذ بيدها وخرج وهو يقول :

لقـد حبـاني وأعطـاني وفضلني
عـن غير مسألـة منه سـليمـان
أعطـاني البدر خوداً في محاسنهـا
والبدر لـم يعطه إنس ولا جـان
ولست يومـاً بناس فضلـه أبـداً
حتـى يغيبنـي لحـد وأكفـان

ثم قال :

١٥ ــ « أن يعلـم أن لكـل عبد بدايـة ونهايـة فمـن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايتـه الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع هواه بل يصير له ذلـك في نهايته عذابا يعذب به قلبه كما قيل :

مـآرب كانت في الشباب لأهلهـا
عذاباً فصارت في المشيب عذابـا

١٦ ــ أن يعلم أن الهوى رق في القلب وغل في العنق .... ممن خالفه عتق من رقه وصار حراً كما قيل :

رُبَ مسـتور سبتـه شـهـوة
فتعـرى سـتـره فـانهتكـا

صاحب الشهوة عبد فإذا
غلب الشهوة أضحى ملكا

وختم الكتاب بالحديث الصحيح : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل . وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1] .

فقال : إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى ، فالامام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفته هواه . والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لو لا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك . والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له الى أماكن اللذات ، والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله ، لو لا قهره لهواه لم يقدر على ذلك ، والذي دعته المرأة الجميلة

---

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد ومالك عن أبي هريره رضي الله عنه .

الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه ، والذي ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله الى ذلك مخالفة هواه . فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة . وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم بعد ذلك ينتظرون دخول سجن الهوى فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء أنفسنا الامارة بالسوء . وأن يجعل هوانا تبعاً لما يحبه ويرضاه إنه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير •

فصل في ما امتاز كتاب الروضة عن الطوق :

وبعد فلقد أطلنا جداً في المقارنة بين الكتابين : طوق الحمامة للامام ابن حزم . وروضة المحبين للامام ابن القيم ، وخرج بنا الكلام من المقارنة الى دراسة روضة المحبين ، وبتعبير آخر الى اختصاره . ولكن هذه الاطالة دليل ساطع على أن روضة المحبين يمتاز عن الطوق بميزات ، وان الامام ابن القيم يعد بحق في الادباء المحبين لأسمى أنواع الحب وهو الحب الإلهي • فروضة المحبين يمتاز عن الطوق بميزات منها :

١ ـ بعده عن فلسفة الحب . والحب في رأي ابن القيم أمر عاطفي وجداني لا مجال للفلسفة فيه •

٢ ــ استدراج القارىء من ذكر الحب الشهواني الوضيع الى الحب الإلهي الرفيع •

٣ ــ الروح الدينية المهيمنة على صفحاته •

٤ ــ ارتباطه الوثيق بروح القارىء وعقله مهما كانت درجة ثقافته •

٥ ــ تضمينه أخبار المحبين ونوادرهم بمناسبة لكل باب •

٦ ــ تضمينه الشيء الكثير من غرر الشعر في كل فنون الحب

٧ ــ الترغيب بعشق مكارم الاخلاق •

٨ ــ وصف الجنة ونعيمها ، والحور العين ولذة وصالهن وأن هذا أولى بالحب والسعي إليه •

٩ ــ حسن انشائه وفصاحة اسلوبه •

فهذا ما حدا بي عند الكلام على روضة المحبين . ونحن لو اردنا دراسة الطوق دراسة عميقة كما فعلنا في الروضة ، لما آستطعنا الا بعد صبر طويل وعناء شديد . ولتسرب الملل لنفس الكاتب قبل القارىء •

أما من أراد النزهة في هذه الروضة الأنف فلا بد وأن يخرج منها بفائدة بل فوائد جمة : فمثله كمن يدخل روضة غناء إن فاته جني الثمار وقطف الازهار لم يفته متعة البصر

وترويح النفس بمنظرها الجميل وهوائها العليل واستنشاق أريجها العطر .

ثم لا يسعنا وقد ألممنا بهذا السفر النفيس الا أن ندعن لمؤلفه الامام ابن القيم بأنه من رجال الادب العظام هذا بالاضافة لأرفع الالقاب التي استحقها بجدارة في حياته وبعد مماته ، كمشيخة الاسلام ، وعلم الاعلام ، تغمده الله برحمته ورضوانه .



الباب الرابع

جوانب من شخصية الإمام

من خلال بعض كتبه

ابن القيم وكتابه « الروح » :

ان خير ما نستهل به الكلام عن الامام ابن القيم وكتابه « الروح » هو ما ذكره سيد قطب رحمه الله : في ظلال القرآن عند الكلام على قوله تعالى :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فقد جلا المعنى أتم جلاء ،وأوضحه بعبارة سهلة خالية من تعقيدات الفلاسفة وسفسطة الخراصين الذين حاولوا كشف سر استأثر خالقه به دون جميع المخلوقين فعادوا يتعثرون بأذيال الخيبة ، ويرجمون بالغيب .

فسيد قطب رحمه الله جلا المعنى وحبره بلسان الشرع والعقل والحس ولم يخرج من دائرة (قل الروح من أمر ربي) .

ونحن نورد ما حبره قلمه ليرتسم في ذهن القارىء صورة حية مظللة بظلال الشرع عن الروح ، حتى اذا ما قارن القارىء بين ما كتبه الفلاسفة الأقدمون والمحدثون عن الروح ، وما

كتبه ابن القيم في كتابه الروح تجلى له طول باع ابن القيم في الموضوع وأن ما كان يهدف اليه من وراء ذلك هو هداية السارين الحيارى الى غاية هي أسمى ، وحقيقة مثلى ، وذلك بأن يجعل المرء دنياه ممرا لآخرته التي هي الحياة الحقيقية لا ما يتمتع به في دنياه من ظل زائل وعرض حائل ، وسنعرف حقيقة ذلك عندما تقرأ بإمعان ما ننقله لك من كتابه « الروح »

قال سيد قطب رحمه الله :

وراح بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم — عن الروح ما هو ؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن — وهو المنهج الاقوم — أن يجيب الناس عما هم في حاجة اليه ، وما يستطيع ادراكهم البشري بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر . وفي مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله بأن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل ، ولكنّ فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في

---

(١) الاسراء : ٨٤ .

حدوده وفي مجاله الذي يدركه ، فلا جدوى من الخبط في التيه . ومن انفاق الطاقة فيما لا يملك العقل ادراكه لانه لا يملك وسائل ادراكه ، والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لانعلم حقيقتها ، وعلم الانسان محدود بالقياس الى علم الله المطلق وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، والانسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، انما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الارض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه في حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الانسان في هذه الارض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيراً أما ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدري ما هو . ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ، ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل (١) .

ونحن مع هذا نورد ما ذكره العلماء قديماً وحديثا عن الروح . وأنهم لم يتفقوا على تعريف لها ، فضلا عن ادراك كنهها ليثبت لدينا ما ذكره سيد قطب تغمده الله برحمته ورضوانه من أنها سر من أسرار الله تعالى الذي استأثر بعلمه .

جاء في محاسن التأويل للمرحوم الشيخ جمال القاسمي

---

(١) في ظلال القرآن ج ١٥ ص ٦٥ .

في تفسير قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » قال القاشاني: أي الذي يحيا به بدن الانسان ويدبره ، « قل الروح من أمر ربي » أي ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين الذين لا يتجاوز ادراكهم الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، بل من عالم الأمر أي الابداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى . والجواهر ، المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين ، فلا يمكنكم ادراكه أيها المحجوبون بالكون لقصور ادراككم وعلمكم عنه « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » هو علم المحسوسات ، وذلك شيء نزر يسير بالنسبة الى علم الله تعالى والراسخين في العلم — هذا ما قاله القاشاني —

وقال الشهاب : والسؤال — على هذا — عن حقيقتها . والجواب اجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة ، ولذا قيل : إنه من الاسلوب الحكيم . كما في قوله : « يسألونك عن الأهلة » إشارة الى أن حقيقتها لا تعلم [آنذاك] وانما يعلم منها هذا المقدار .

وقال ابو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه :« إنماأمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين ، سواء أكان الكائن من

عالم الأمر أو من عالم الخلق • بل إنه من الابداعيات الكائنة بمحض الأمر التكويني من غير تحصل مادة • وحكى عليه الرحمة قولا آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن قال : والإضافة للاختصاص العلمي لا الايجادي لاشتراك الكل فيه • وفيها من تشريف المضاف مالا يخفى ، كما في الاضافة الثانية من تشريف المضاف إليه ، أي : هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر وعليه فـ (من) بيانية أو تبعيضية ، ويكون نهيا لهم عن السؤال عنها وتركا للبيان • وهذا رأي كثيرين أمسكوا عن الخوض فيها • وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحدا من خلقه فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود •

ثم الاقاويل فيها من الحكماء والعلماء الاقدمين مختلفة • ولا يتم الجواب في محل الخلاف فأتى الجواب مجملا على وجه يصدق على كلٍ من ذلك مرموزاً ليعلمه العلماء بالله • واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم لأن الافهام لا تحتمله خصوصا على طريقة الحكماء ، اذ من غلب على عقله الجمود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري فكيف يصدق به في حق الروح الانساني •

وحاصل ما تقدم أن الروح موجود ومحدث بأمر الله تعالى بلا مادة وتولدٍ من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاقتصار في الجواب على قوله :(قل الروح من أمر ربي) كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون (وما رب العالمين) على قوله : (رب السموات والارض) إعلاما بأن إدراكه بالكنه على ما هو عليه لا يعلمه الا الله تعالى .

وأنه ـ الروح ـ شيء بمفارقته يموت الانسان وبملازمته يبقى كما أومأ اليه قوله تعالى : (وما اوتيتم من العلم إلا قليلا) أي علما قليلا لا تستفيدونه من طريق الحواس ، وهو هذا القدر الاجمالي .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها أثرت عنهم أقوال شتى ـ كما أشرنا سابقا ـ وقد افردت لذلك تآليف قديمة وحديثة . والذي يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ونقدوها بمحك الكتاب والسنة فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الامام ابن حزم قال رحمه الله في كتابه (الفصل في الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : « وذهب سائر أهل الاسلام والملل المقرة بالمعاد الى أن النفس جسم طويل عريض عميق

ذات مكان عاقلة مميزة مصرفة للجسد ، قال : وبهذا نقول ، والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناهما واحد ، ثم قال : وأما من ذهب الى ان النفس ليست جسما فقول يبطل بالقرآن والسنة والإجماع .

فأما القرآن . فان الله عزو جل قال : (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) [١] وقال تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) [٢] وقال تعالى (كل امرىء بما كسب رهين) [٣] فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى : (ان النفس لأمارة بالسوء) [٤] وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) [٥] وقال تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) [٦] وقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا . بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله)[٧] فصح ان الانفس منها : ما يعرض على

---

(١) يونس الآية ٣٠ .
(٢) غافر الآية ١٧ .
(٣) الطور الآية ٢١ .
(٤) يوسف الآية ٢٣ .
(٥) غافر الآية ٤٦ .
(٦) البقرة الآية ١٥٤ .
(٧) آل عمران الآية ١٦٩ ، ١٧٠

النار قبل يوم القيامة، فيعذب ومنها : مايرزق وينعم فرحا ويكون مسرورا قبل يوم القيامة • ولا شك أن اجساد آل فرعون ، واجساد المقتولين في سبيل الله قد انقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء • فصح أن الانفس منقولة من مكان الى مكان ولا شك ان العرض لا يلقى العذاب ولا يحس فليس عرضا • وصح انها تتنقل في الاماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به •• فصح ضرورة انها جسم •

وأما السنة فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ارواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « انه رأى نسم بني آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره » فصح أن الانفس مرئية في اماكنها •

وأما من الاجماع فلا اختلاف بين أحد من اهل الاسلام في أن انفس العباد منقولة بعد خروجها من الاجساد الى نعيم ، او الى صنوف ضيق وعذاب وهذه صفة الاجسام •

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي) • انما هو لا ن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظما ثم لحما ثم

امشاجا ، وليس الروح كذلك • وانما قال اللــه تعالى آمـرا لــه بالكون : (كن فكان) فصح أن الروح والنفس والنسـمة اسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح ايضا على غير هذا : فجبريل عليه السلام الروح الامين ، والقرآن روح من عند الله •

اقول : هذا ملخص ما ذكره المرحوم القاسمي في تفسيره عن ابن حزم في ما يتعلق بالروح ولكن احسن منه ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه اللــه في تفسير سورة الاخـلاص • فبعد ان ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة هل هي متحيزة ام لا ؟ وكذلـك نزاعهـم في روح الانسـان التي تفارقـه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضا من اعراض البدن كالحياة وغيرها ، ولا جزءا من اجزاء البدن كالهواء الخارج منه • فان كثيرا من المتكلمين زعموا انها عرض قائم بالبدن . او جزء من اجزاء البدن ، لكن هـذا مخالف للكتاب والسنة واجمـاع السـلف والخلف ولقـول جماهير العقلاء من جميع الامم . ومخالف للادلـة . وهـذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام :

قال القاضي ابو بكر : اكثر المتكلمين على ان الروح عرض من الاعراض • وبهذا نقول ، اذا لم يعن بالروح النفس • فانـه

قال : الروح الكائن بالجسد ضربان : احدهما : الحياة القائمة به والآخر النفس • والنفس ريح ينبث به • والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من اجزاء الهواء المتحلل من المسام ، وهذا قول الاسفراييني وغيره ، وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء ، وابو المعالي خالف هؤلاء واحسن في مخالفتهم فقال : ان الروح اجسام لطيفة مشابكة للاجسام المحسوسة ، أجرى الله العادة لحياة الاجساد ما استمرت مشابكتها لها، فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة •

ومذهب الصحابة التابعين لهم بإحسان وسائر أئمة السنة وسلف الامة ، ان الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم ، وتعذب ، ليست هي البدن ولا جزءا من اجزائه كالنفس المذكور ثم قال : « والناس لما لم يشهدو لها نظيرا • عسر عليهم التعبير عن حقيقتها » انتهى •

هذا بعض ما ذكره الاقدمون من فلاسفة ومتكلمين عن الروح وهو لم يخرج بكليته عن تكهنات وتخرصات ونظريات غير مدعمة بحجة قاطعة او دليل ساطع • اما ماذكره المدققون المحدثون من علماء روحيين عصريين يزعمون أن لهم اتصالا بالارواح واستحضارها لا يخرج عما يزعمه بعض الدجالين من اتصالهم بالجن وتسخيرهم لمآربهم ، وقد كتب بعض المنقبين

عن مباحث المدققين العصريين في الروح ملخصه : (ان نظرية الروحيين التي يستدلون عليها في أوربا بالحس في هذه الايام ، هي ان للانسان روحا هبطت عليه من الملأ الاعلى لا يصل العقل الى ادراك كنهها ، وانها متصلة بهذا الجسد الطيني . بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماما ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوما بقوانينه . وانه كغلاف للسر الالهي المسمى روحا . ولعل في هذا ما يشبه قول الامام مالك بن انس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون ان الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص الى عالم غير هذا العالم . ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة ، ولكننا لا نراها بأعيننا لعدم استعداد أعيننا لذلك ، كما أنها ــ أعيننا ــ ليست مستعدة لرؤية اشعة رونتجن مع انها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب ، وأفادت العلم الطبيعي فائدة كبرى .

هذا وان جميع ما قدمناه بناءً على ان المراد بالروح في الآية روح الانسان .

رأي ابن القيم في الروح :

اما ابن القيم رحمه الله فانه لم يرتض كل ما ذكره المتكلمون والفلاسفة عن الروح وحقيقتها لاختلافهم في إدراك كنهها ، لذلك يقول في كتابه [الروح] : وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف ــ كما مر ــ واكثر السلف بل كلهم على ان الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم ، بل هو الروح الذي اخبر الله عنه في كتابه انه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم . وقد ثبت في الصحيح [1] عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة ، وهو متكىء على عسيب ، فمررنا على على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه عسى ان يخبر فيه بشيء تكرهونه ،

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب العلم باب قول الله تعالى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

وقال بعضهم : نسأله ، فقام رجل فقال : يا ابا القاسم ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، فعلمت انـه يوحى اليه فقمت فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اتيتم مـن العلم الا قليلا) ومعلوم أنهم انما سألوه عن امر لا يعرف الا بالوحي ، وذلك هو الروح الذي هو عند اللـه لا يعلمها الناس ، وأما ارواح بنـي آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم ، ثم قال والروح في القرآن على عدة أوجه :

١ ــ الوحي كقوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) [١] وقوله : (يلقي الروح من أمره علـى من يشاء من عباده) [٢] وسمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والارواح •

٢ ــ القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال : (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهـم بروح منه) [٣] •

---

(١) الشورى / ٥٢ .
(٢) غافر / ١٥ .
(٣) المجادلة / ٢٢ .

٣ ـ جبريل كقوله تعالى : (نزل به الروح الامين على قلبك) ، وقال تعالى : (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)[٥] قال تعالى : (قل نزله روح القدس) .

٤ ـ الروح التي سأل عنها اليهود . فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل : انها الروح المذكورة في قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون)[١] وانها الروح المذكورة في قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم)[٢] .

٥ ـ المسيح عيسى بن مريم قال تعالى : (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه)[٣] .

اما ارواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن الا بالنفس . قال تعالى : (يا ايتها النفس المطمئنة) وقال : (ولا اقسم بالنفس اللوامة) وقال : (ان النفس لأمارة بالسوء) . وقال : (اخرجوا

---

(٣) الشعراء / ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٥) البقرة / ٩٧ .
(٦) النحل / ١٠٢ .
(١) النبأ / ٣٨ .
(٢) القدر / ٤ .
(٣) النساء / ١٧١ .

أنفسكم) . وقال : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) . وقال : (كل نفس ذائقة الموت) .

٦ ــ الروح الذي يحيا به البدن ــ بدن الانسان والحيوان ــ وهو قول الجمهور يؤيد هذا ماروي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه عسى ان يخبركم بشيء تكرهونه وقال بعضهم : نسأله . فقام رجل فقال : يا ابا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمت انه يوحى اليه ، فقمت . فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي) .

هذا وان للعلماء في تعريف الروح أقوالاً كثيرة اولاها بالاعتبار قولان :

١ ــ « ان الروح جسم نوراني متحرك من العالم العلوي ، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في الورد ، والدهن في الزيتون ، لا يقبل التبديل والتفريق والتمزيق . يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا

لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت » وهذا رأي الرازي وابن القيم في كتاب الروح •

٢ ـ انه ليس بجسم ولا جسماني متعلق بالبدن تعلق التدبر والتصرف • والى هذا ذهب حجة الاسلام الغزالي وابو القاسم الراغب الاصفهاني •

وأخيرا اليك ما ذكره الامام ابن القيم في هذا الموضوع وفيه القول الفصل . قال : وأما المسألة التاسعة عشرة • وهي ما حقيقة النفس ؟ هل هي جزء من اجزاء البدن ، او عرض من أعراضه ، أو جسم ساكن له مودع فيه ، أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح او غيرها • وهل الامارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات ام هي ثلاث انفس •

فالجواب ان هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت اقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم . وهدى الله اتباع الرسل واهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، فنذكر اقوال الناس وما لهم وما عليهم في تلك الاقوال ، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه :

١ ـ قال ابو الحسن الاشعري في مقالاته : اختلف الناس

في الروح والنفس والحياة • وهل الروح هي الحياة او غيرها ؟ وهل الروح جسم ام لا • فقال النظام : الروح هي جسم وهي النفس • وزعم ان الروح حي بنفسه وأنكر ان تكون الحياة والقوة معنى غير الحي القوي •

٢ ـ وقال آخرون : الروح عرض •

٣ ـ وقال قائلون : منهم جعفر بن حرب : لا ندري الروح جوهر او عرض واعتلوا في ذلك بقوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي) • ولم يخبر عنها ماهي لا انها جوهر ولا عرض قال ـ أي ابن القيم ـ : وأظن جعفرا أثبت الحياة غير الروح رأثبت الحياة عرضا •

٤ ـ وكان الجبائي يذهب الى ان الروح جسم ، وأنها غير الحياة . والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة : خرجت روح الانسان • وزعم ان الروح لا تجوز عليها الاعراض •

٥ ـ وقال قائلون : ليس الروح شيئا أكثر من اعتدال الطبائع الاربع • ولم يرجعوا من قولهم [اعتدال] الا الى المعتدل• ولم يثبتوا شيئا الا الطبائع الاربع التي هي : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة . واليبوسة •

٦ ــ وقال قائلون : ان الروح معنى خامس غير الطبائع الاربع •

٧ ــ وقال قائلون : الروح : الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات وكذا قالوا في القوة •

٨ ــ وقال قائلون : الحياة هي الحرارة الغريزية •

وكل هؤلاء الذين حكينا اقوالهم في الروح من اصحاب الطبائع يثبتون ان الحياة هي الروح •

٩ ــ وكان الاصم لا يثبت الحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول : ليس أعقل الا الجسد الطويل العريض العميق الذي اراه واشاهده وكان يقول : النفس هي هذا البدن بعينه لا غير وانما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا على انها معنى غير البدن •

١٠ ــ وذكر عن أرسطاطاليس : ان النفس معنى مرتفع من الوقوع تحت التدبير والنشوء والبلى غير دائرة ، وأنها جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الاعمال له والتدبير وأنه لا تجوز عليه صفة قلة ولاكثرة قال : وهي على ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية

وانها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير (١) .

١١ ــ وقال آخرون : بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق وانها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية [وهذا قول طائفة من الثنوية يقال لهم المنانية] .

ثم ذكر تعريف [الديصانية] للروح . وتعريف جعفر بن مبشر ، وأبي الهذيل . وجعفر بن حرب ، والمشائين ، الذين يقولون : ان تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة وانما هو التدبير له فقط واختار هذا القول البوشنجي ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد ومعمر بن عباد الغزالي . وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أردأ المذاهب وأبطلها وابعدها من الصواب .

---

(١) اقول : ان وصف ارسطاطاليس للروح يشبه الى حد ما ما تصفت به القوة الكهربائية المنبعثة في ارجاء الكون حتى ان كل جسم حيوان لا يخلو من الكهرباء والحيوان موصل كهرباء جيد كما ذكر ذلك علماء الكهرباء وكما هو المشاهد من التقاط الصورة والصوت بـ (اللاسلكي) .

قال ابو محمد بن حزم : وذهب سائر اهل الاسلام والملل المقرة بالمعاد الى ان النفس جسم طويل عـريض عميـق ، ذات مكان عاقلـة مميزة مصرفة للجسد قال : وبهـذا نقول ، قال : والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناهما واحد •

وقد ضبط أبو عبد اللـه بن الخطيب مذاهب الناس في النفس فقال : ما يشير اليه كل انسان بقوله : انا ، اما ان يكون جسما أو عرضا ساريا في الجسم ، أو لا جسما ولا عرضا ساريا فيه . أما القسم الاول : وهو : انه جسم ، فذلك الجسم اما : أن يكون هذا البدن ، وإما أن يكون جسما مشاركا لهذا البدن ، واما أن يكون خارجا عنه . أما القسم الثالث : وهـو ان نفس الانسان عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن ، فهذا لـم يقله أحد . وأما القسم الاول : وهو ان الانسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص . فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين •

قلت ـأي : ابن القيمـ : هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازي أقوالهم مـن أهل البدع وغيرهم من المضلين • وأمـا أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلـم يكن له بها شعور البتة . ولا أعتقد ان لهم قولا علـى عادته في حكايـة المذاهب

الباطلة في المسألة . والمذهب الحق الذي دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره وهذا الذي نسبه الى جمهور الخلق من أن الانسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شيء هو من ابطل الاقوال في المسألة بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الانسان هو البدن والروح معا . وقد يطلق اسمه على احدهما دون الآخر بقرينة ، فالناس لهم اربعة اقوال في مسمى الانسان هل هو الروح فقط ، او البدن فقط ، او مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، وهي الاقوال الاربعة لهم في كلامه [1] هل هو اللفظ فقط ، او المعنى فقط ، او مجموعهما ، او كل واحد منهما ؟ فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

فالامام ابن القيم في كتابه الروح لم يبحث عن كنهها وحقيقتها لانه سلفي العقيدة ، والسلف الصالح لم يبحثوا في ذلك وكل ما ورد من آثار يحوم حول متعلق الروح وآثارها ، لذلك جعل كتابه الروح مسائل اي ابوابا وتحت كل باب عدة فصول

(١) الضمير في كلامه يعود على الله عزوجل . والمعنى ان اقوالهم في النفس او الروح ، لا تخرج عن هذه الاقوال الاربعة وكذا قولهم في كلام الله لا يخرج عن هذه هذه الاقوال الاربعة .

جمع تلك المسائل وورتبها وبوبها ليجعل منها كتابا يشفي الغليل وينير السبيل ولكن جاء كتابه بدون مقدمة ، والذي يتبادر للذهن ان ذلك يعود لأحد أمرين :

١ ــ اما ان يكون كتب له مقدمة ولكنها ضاعت عندما كان أولاده يبيعون كتبه بعد وفاته . أو انه عاجلته المنية عن كتابة مقدمة لهذا الكتاب ، فعثر على نسخة منه برهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ وجعل لها مقدمة واطلق على الكتاب [سر الروح] اذ يقول البقاعي في مقدمة الكتاب : « وبعد فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير الفائدة ما صنف مثله في معناه فلا تكاد تجد ما تضمنه من بدائع الفوائد ، وفرائد القلائد ، في كتاب سواه ، ويشتمل على جملة من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الاموات والاحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار ، وأقوال العلماء والاخيار ، لا أدري اسئل مصنفه ــ قدس الله روحه ــ عنها فأجاب ، ام سئل عن البعض ولكن هو اطال الخطاب ، فاني رأيته مجردا عن خطبة وسؤالا أصلا مبتدئا فيه بقوله : « أما المسألة الاولى هل تعرف الاموات زيارة الاحياء وسلامهم أم لا » ؟ فأحببت ــ أي البقاعي ــ بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتتحه بهذه الخطبة

المباركة العظيمة لكونه كتابا في ضمن مسائله التي تتأملها وتشاهدها كل درة يتيمة ؛ لينشرح صدر الناظر فيه . لتقوي همته على النظر في بدائع فوائده ودقائق معانيه »[1] اهـ من المقدمة .

جعل ابن القيم كتابه الروح على احدى وعشرين مسألة ، ووراء كل مسألة بحوثا فرعية يتعلق فيها . فجاء الكتاب حافلا بفوائد ، قل أن تجدها الا في العديد من الكتب ، وإليك فهرساً للمسائل فقط ومنه تعلم قيمة الكتاب العلمية قال :

١ ـ المسألة الاولى : في معرفة الأموات بزيارة الاحياء وسلامهم .

٢ ـ المسألة الثانية : في أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا .

٣ ـ المسألة الثالثة : هل تتلاقى أرواح الاحياء وأرواح الاموات أم لا .

٤ ـ المسألة الرابعة : إن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده .

---

(١) كتاب الروح ص ٣ .

٥ ـ المسألة الخامسة : أن الارواح كيف تتميز بعد مفارقة الابدان بعضها من بعض .

٦ ـ المسألة السادسة : هل تعاد الروح في قبره وقت السؤال أم لا .

٧ ـ المسألة السابعة : في جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونعيمه .

٨ ـ المسألة الثامنة : في أن : ما الحكمة في عدم ذكر القبر في القرآن مع شدة الحاجة اليه ؟؟ .

٩ ـ المسألة التاسعة : وهي ما الاسباب التي يعذب بها أصحاب القبور .

١٠ ـ المسألة العاشرة : في الاسباب المنجية من عذاب القبر .

١١ ـ المسألة الحادية عشرة : في أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق .

١٢ ـ المسألة الثانية عشرة : في أن سؤال منكر ونكير هل مختص بهذه الامة أو يكون لها ولغيرها .

١٣ ـ المسألة الثالثة عشرة : أن الاطفـال هل يمتحنون في قبورهم •

١٤ ـ المسألة الرابعة عشرة : وهي قوله : هل عذاب القبر دائم أو منقطع •

١٥ ـ المسألة الخامسة عشرة : في أيـن مستقـر الارواح ما بين الموت الى يوم القيامة ؟ •

١٦ ـ المسألة السادسة عشرة : هل تنتفع أرواح الموتى من سعي الاحياء أم لا •

١٧ ـ المسألة السابعة عشرة : وهي هل الروح قديمـة أو محدثة مخلوقة ؟

١٨ ـ المسألة الثامنة عشرة : وهي هل تقدم خلق الارواح على الاجساد أو تأخر عنها •

١٩ ـ المسألة التاسعة عشرة : وهي مـا حقيقـة النفس ، وهذه المسألة أكبر فصول الكتاب فبعد أن ذكر أقوال القائلين بجسمية الروح ارتضى قـول الرازي : « وهـو أن (الانسان) ـ كذا ولعل الصواب [الروح] وهو ما يقتضيه السياق ـ عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل هـذا البدن ، فالقائلون

بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه : الأول : أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التي منها يتولد هـذا البدن • الثاني: أنه الدم• الثالث: أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الايسر من القلب • وينفذ في الشريانات الى سائـر الاعضاء • والقول الرابع : أنه الروح الذي يصعـد في القلب الى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر والخامس : أنه جزء لا يتجزأ من القلب • والسادس : أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الاعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد . وسريان الدهن في الزيتون . والنار في الفحم[1] فما دامت هذه الاعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم مشابكا لهذه الاعضـاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الارادية . واذا فسدت هذه الاعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصـل الى عالـم الأرواح •

وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح

---

(١) قد سبق الكلام على ذلك انظر ص ٢٧٩ .

غيره وكل الاقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ونحن نسوق الادلة على نسق واحد .

الدليل الاول : قوله تعالى : (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى)[1] ففي الآية ثلاثة أدلة : الإخبار بتوفيها ، وإمساكها ، وإرسالها .

هذا وقد واصل سرد الادلة حتى بلغت مائة وستة عشر دليلا اذ يقول : الوجه السادس عشر بعد المائة : ان عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه الى هذه البنية وما قام بها وساكنها . وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلا قال : المأمور والمنهي والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه . وكل ما شهدت بدائه العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالا على صحة وجود المحال وبالله التوفيق[2] .

---

(١) الروم /٤٢ .
(٢) الروح ص ٣٣٨ .

ونحن نورد نسوذجين من ادلته هذه ليعلم المطلع على سيرة هذا الامام مدى سعة علمه وطول نفسه بالكتابة اذ في هذه الادلة المختصر والمطول فاستمع اليه يقول :

الدليل المائة : هو ما اشترك في العلم به عامة أهل الارض من لقاء ارواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم اياهم بأمور خفيت عليهم فرأوها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف ايراده [1] وقد أورد المسائل الثلاث الاولى من هذا الكتاب لهذا المعنى وبلغ ما حرر لذلك اربعا وخمسين صفحة ثم قال : وأعجب من هذا الوجه الحادي والمائة ان روح النائم يحصل لها في المنام آثار فتصبح تراها على البدن عيانا وهي من تأثير الروح في الروح كما ذكر القيرواني في كتاب البستان عن بعض السلف قال : كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني فانصرفت الى منزلي وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) الروح ص ٣٣٨ .

في المنام فقلت يارسول اللـه : فلان يسب أصحابك قال : من أصحابي ؟ قلت : ابو بكر وعمر ، فقال : خذ هذه المدية فاذبحه بها فأخذتها وأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت بيدي الى الارض لامسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ ؟ قالوا فلان مات فجأة فلما أصبحنا جئت فنظرت اليه فاذا خط موضع الذبح .

وذكر مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت : كنت عند عائشة رضي الله عنها، فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها فقالت : ماأتيتك إلا من أجل يدي ، إن أبي كان رجلا سمحا وإني رأيت في المنام حياضا عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم فرأيت أبي فقلت أين أمي ؟ فقال : انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال : انها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول : واعطشاه . قالت : فأخذت إناء من

---

(١) الكنود : كفران النعمة والبخل ـ قاموس .

لآنية فسقيتهم . فنوديت من فوقي : من سقاها أيبس الله يده فأصبحت يدي كما ترين .

ويذكر الحارث بن أسد المحاسبي وأصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال : بينما امرأة عند عائشة اذ قالت : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا اشرك بالله شيئا ، ولا أسرق ، ولا أزني . ولا أقتل ولدي ، ولا آتي ببهتان أفتريه بين يدي ورجلي ، ولا أعصي في معروف ، فوفيت لربي ووفى لي ربي فوالله لايعذبني الله . فأتاها في المنام ملك فقال لها انك تتبرجين ، وزينتك تبدين . وخيرك تكندين [1] وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال : خمس بخمس ولو زدت زدناك فأصبحت وأثر الاصابع في وجهها .

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك : سمعت مالكا يقول : ان يعقوب بن الاشجع كان من خيار هذه الامة نام في اليوم الذي استشهد فيه فقال لاصحابه : اني رأيت أمرا ولأخبرنه . اني رأيت كأني أدخلت الجنة فسقيت لبنا . فاستقاء فقاء اللبن . واستشهد بعد ذلك . قال ابن القاسم : وكان في غزوة في البحر بموضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك

(١) الكنود : كفران النعمة والبخل ـ قاموس .

يذكره ويذكر أنه معروف فقال : اني رأيت كأني أدخل الجنة فسقيت فيها لبنا فقال له بعض القوم أقسمت عليك لما تقيأت ؟ فقاء لبنا يصلد ــ أي يبرق ــ وما في السفينة لبن ولا شاة فقال ابن قتيبة قوله : يصلد ــ أي يبرق ، يقال : صلد اللبن يصلد . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أن الطبيب سقاه لبنا فخرج من الطعنة أبيض يصلد .

وكان نافع القارىء اذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فقيل له : كلما قعدت تتطيب فقال : ما أمس طيبا ولا أقربه ولكن رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقرأ في فمي فمن ذلك الوقت يشم من فيّ هذه الرائحة .

وذكر مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن زيد الرقاشي قال : أتاني رجلان فقعدا الي فاغتابا رجلا فنهيتهما ، فأتاني أحدهما بعد فقال : اني رأيت في المنام كأن زنجيا أتاني بطبق عليه جنب خنزير،لم ار لحما قط أسمن منه ،فقال لي : كل،فقلت: آكل لحم خنزير ، فتهددني فأكلت فأصبحت وقد تغير فمي فلم يزل يجد الريح في فمه شهرين .

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة : اني أجد فترة فاذا كان وقت كذا فأيقظوني ، فلم يفعلوا

قال فأتاني آت في منامي فقال: قم ياعلاء بن زياد اذكر اللـه يذكرك ، وأخذ بشعرات في مقدم رأسي فقامت تلك الشعرات في مقدم رأسي ، فلم تزل قائمة حتى مات • قال يحيى بن بسطام : فلقد غسلناه يوم مات وانهن لقيام في رأسه • • •

وقال القيرواني : أخبرني شيخ لنا من اهل الفضل قـال أخبرني أبو الحسن المطلبي امام مسجد النبي صلى اللـه عليه وسلم • قال : رأيت بالمدينة عجبا كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي اللـه عنهما • فبينا نحن يوما من الايام بعد صلاة الصبح اذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه فسألناه مـا قصتك ؟ فقال رأيت البارحة رسول الله صلى اللـه عليهوسلم وعلي بين يديه ومعه ابو بكر وعمر • فقالا يارسول اللـه : هذا الذي يؤذينا ويسبنا فقال لي رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من أمرك بهذا يا أبا قيس فقلت له : علي وأشرت اليه فأقبل علي عليّ بوجهه ويديه وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها الى عيني فقال ان كنت كذبت ففقأ اللـه عينيك وأدخـل أصبعيه في عيني ، فانتبهت من نومي وأنا على هذه الحال • فكان يبكي ويخبر الناس وأعلن التوبة • • •

وأعجب من هذا : الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والآلم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء ، فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله ، وقد رأى الناس من **هذا** عجائب •

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها ان جارية لها سحرتها وأن سنديا دخل عليها وهي مريضة فقال : انك سحرت ، فقالت : ومن سحرني قال : جارية في حجرها صبي قد بال عليها ، فدعت جاريتها ، فقالت : حتى أغسل بولا في ثوبي فقالت أسحرتني قالت نعم ، قالت وما دعاك الى ذلك • قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أخاها أن يبيعها من الاعراب ممن يسيء ملكتها فباعها ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضا فاستسقي لها فاغتسلت فبرئت •

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى ابراهيم الخليل عليه السلام في المنام فمسح على عينيه وقال اذهب الى الفراش فانغمس فيه ثلاثا ففعل فأبصر •

وكان اسماعيل بن هلال الحضرمي قد عمي فأتي في المنام فقيل له : قل ياقريب يامجيب ياسميع الدعاء يالطيف بمن شاء

رد عليّ بصري فقال الليث بن سعد : أنا رأيته قد عمي ثم أبصر »[1] .

وقد أطال الامام ابن القيم رحمه الله في سرد أمثال ما رأيت واني اخترت بعضها ليعلم القارىء طول نفسه بالكتابة وسرد الحجج والبراهين على ما يرى من رأي .

وما ذكرنا وهو الدليل المائة من أصل مائة وخمسة عشرة دليلا أتى بها على جسمية الروح ، وأن لها تصرفا مع اتصالها بالاجسام .

ولعل قائلا ممن لا يؤمن بتصرف الارواح ممن ظفر بشذرة من العلوم المادية ينكر ذلك ويزعم ان الثقافة العصرية تنكر ذلك وتعده خرافة . أذكر له ما شاهدته وشاهده ملايين البشر وهو ما عرضه التلفزيون الاردني منذ شهر تقريبا اذ عرض فلما امريكيا خلاصته : ان استاذا جامعيا رأى في منامه انرجلا جرحله يدهفلما استيقظ رأىاثر الجرح في يده، فذهب لمن يفسر له حلمه . فقال المفسر ان هذا الجرح قديم وقد كثرت له الرؤى وكلما استيقظ في اليوم التالي يرى تحقيق ما رأى ، وكان ممن يستمعون الى محاضراته طالب مادي لايؤمن بالروح ينكر على المحاضر ما يزعمه من تأثير الارواح فقال له الاستاذ : أنا رأيتك الليلة في المنام وقد أطبق باب

(١) الروح ص ٣٣٠ .

السيارة على رجلك ، وأنت تمشي على عكاز ، قال الطالب ومتى كان ذلك ، قال : أمس حوالي منتصف الليل فنهض الطالب وقال نعم في الوقت نفسه كنت أصعد الى غرفتي فزلت قدمي والتوت وهاأناذا أمشي على عكاز مستعينا بها .

وقد عرض الفلم مشاهد كثيرة لرؤى رآها الاستاذ فتحققت الى أن رأى أنه يموت غدا ، فأخبر زوجته بذلك فنهرته وقالت : هلوسة اصابتك ، تصدق أضغاث أحلام فلما كان اليوم الثاني ، أقبلت امرأته توقظه فوجدته ميتا .

وأخيرا وقد أطلت على القارىء في بحث الروح وكان بودي ان أختصر ولكني عند دراستي للكتاب ـ الروح للامام ابن القيم ـ وجدت البحث ممتعا لذيذا لما حواه من فرائد وفوائد وطرائف قلما أن توجد في كتاب غيره ، وهذا الكتاب طبع مرارا وآخر طبعاته كانت عام ١٣٨٣ هـ و ١٩٦٣ م أي منذ عشر سنوات بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند وقد عز وجود نسخة منه بمكاتب سورية ومصر التجارية الى أن عثرت على نسخة منه بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومثله كتاب روضة المحبين أيضا عز وجوده في المكاتب التجارية بمصر وسورية حتى تفضل بعض الاخوان فأعارنيه مشكورا ، فعسى أن يلهم الله إحدى دور النشر لاعادة طبعهما

مشكورين مأجورين .

وأخيرا أحيل من شاقه البحث وأراد التعمق فيه الى ما كتبه الاقدمون والمحدثون في هذا الموضوع فمن كتب فيه قديما :

مؤلفو التوراة اذ جاء ذكر استحضار الارواح في قصة طالوت المسمى في التوراة شاول

٢ ـ حجة الاسلام الامام الغزالي في بداية النهاية له ابحاث ممتعة في علم الارواح والحياة بعد الموت ، وفي حادي الارواح للامام ابن القيم فصول قيمة .

٣ ـ اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة ابحاث فلسفية شيقة .

وممن كتب في هذا الموضوع من المتأخرين المحدثين :

١ ـ روبرت هير الامريكي في كتابه « ابحاث عرفية في ظهور الارواح »

٢ ـ روبرت دال روين في كتابه « عثار في حدود عالم الغيب »

٣ ـ روسل والاس وهو مساعد داروين في اعماله في كتابه « عجائب الروحانية الحديثة »

٤ ـ مجلة أشباح الاحياء التي تصدر في أمريكا

٥ ــ المذهب الروحاني للشيــخ الاستــاذ الحكيــم طنطاوي جوهري

٦ ــ الارواح للشيخ الاستاذ الحكيم طنطاوي جوهري

ثم قد يغني عن مطالعــة هذه الكتب ما حرره طنطاوي جوهري في تفسيره للآيات من سورة البقرة « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي اللــه الموتى » وقوله تعالى: « قال كم لبثت ، قال لبثت يوما أو بعض يوم » وقوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم اللــه موتوا ثم أحياهم »

وقوله تعالى في سورة يوســف : (اذ قال يوسف لابيه يا أبت اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لــي ساجدين) •

وقوله تعالى في سورة الكهف : (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) •

وقوله عز وجل في سورة الاسراء : (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) •

ابن القيم بين شكره وصبره :

يؤثر عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله : لو كان الشكر والصبر بعيرين لما باليت أيهما ركبت •

ويقول ابن القيم رحمه الله : « لما كان الايمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقا على من نصح نفسه واحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الاصلين العظيمين • ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين ، وأن يجعل سيره الى الله بين هذين الطريقين ، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين •

ولهذا جعل كتابه « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين »[١] للتعريف بشدة الحاجة اليهما ، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما . فجاء كتابا جامعا حاويا نافعا فيه من الفوائد ما هو حقيق على ان يعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، ممتعا لقارئه صريحا للناظر فيه . مسليا للحزين . منهضا للمقصرين ، محرضا للمشمرين . مشتملا على نكات حسان من تفسير

---

(١) قوله : عدة . مصدر بناء مرة من الوعد بوزن (علة) .

القرآن ، وعلى احاديث نبوية معزوة الى مظانها . وآثار سلفية منسوبة الى قائليها ، ومسائل فقهية حسان مقررة بالدليل . ودقائق سلوكية على سواء السبيل ... فهو كتاب يصلح للملوك والامراء والاغنياء والفقراء . والصوفية والفقهاء . ينهض القاعد الى المسير ويؤنس السائر في الطريق وينبه السالك على المقصود[1] .

ثم ذكر معنى الصبر لغة فقال : « اصل هذه الكلمة هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع . واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدودوشق الثياب ونحوهما .. ويقال : صبرت فلانا إذا حبسته ، وصبرته اذا حملته على الصبر ، وفي حديث الذي أمسك رجلا وقتله آخر : « يقتل القاتل ويصبر الصابر »[2] أي يحبس للموت كما حبس من امسكه للموت »[3] .

ثم قال : « وأما حقيقته فهو خلق فاضل من اخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل . وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام امرها »[4] .

---

(١) عدة الصابرين ص ٧ .
(٢) في النهاية لابن الاثير (مادة صبر) : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر .
(٣) عدة الصابرين ص ١٠ .
(٤) عدة الصابرين ص ١١ .

ثم ذكر تعريف الصبر عند العارفين أمثال الجنيد وذي النون ، فرضي منها ماوافق ظاهرة الكتاب والسنة واحتمال النفس البشرية له ، ورد منها مالا يطاق ولا يمكن للنفس البشرية احتماله . وآخر ما ذكر من التعاريف قول ابي علي الدقاق : (حد الصبر ان لا يعترض على التقدير) فاما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر . قال الله تعالى في قصة أيوب : (انا وجدناه صابرا) مع قوله (مسني الضر) وقد علق على هذا التعريف بتعليق لطيف شرح فيه معنى الشكوى فقال : اما قوله : « على غير معنى الشكوى » فالشكوى نوعان احدهما : الشكوى الى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب عليه السلام : « انما اشكو بثي وحزني الى الله » مع قوله : « فصبر جميل » . وقال ايوب « مسني الضر » مع وصف الله له بالصبر « انا وجدناه صابرا » وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » .

أقول : ان هذا النوع من الشكوى مطلوب بل مأمور به اذ انه لا يخرج عن الدعاء وهو الشكوى الى الله لا شكوى من قضائه وقدره . وهو النوع الثاني الذي رده ابن القيم لانه ينافي الصبر ويبطله ، وهو شكوى الخالق الى المخلوق او

شكوى من يرحم الى من لا يرحم ، والفرق ظاهر بين الشكوى منه والشكوى اليه .

ثم قال : « وحفظ من خطب الحجاج « اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة الى كل سوء » [1] فرحم الله امرءا جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها الى طاعة الله ، وصرفها بزمامها عن معاصي الله ، فان الصبر عن محارم الله ايسر من الصبر على عذابه » [2] .

قلت : والنفس فيها قوتان : قوة الاقدام ، وقوة الاحجام ، فحقيقة الصبر ان يجعل قوة الاقدام مصروفة الى ما ينفعه وقوة الاحجام امساكا عما يضره ، ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه اقوى من صبره عما يضره

---

(1) اورد ابن الاثير في النهاية عن الحجاج « اقدعوا هذه الانفس فانها أسأل شيء إذا اعطيت وامنع شيء اذا سئلت » اي كفوها عما تتطلع اليه من شهوات . ومنه حديث الحسن « اقدعوا هذه النفوس فأنها طلعة » . وفي البيان والتبين للجاحظ ج ١ ص ١٦٢ عن حفص قال سمعت عيسى بن عمر يقول : سمعنا الحسن يقول : اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة واعصوها فانكم ان أطعتموها تنزع بكم الى غاية الشر . وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور » .

(2) عدة الصابرين ص ١٣ .

فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه الى ارتكاب ما نهي عنه ، كالمرابي الذي يقوم الليل ويصوم النهار ولا صبر له عن جمع المال وكنزه ومنع الزكاة ، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات اقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا على هذا ، وافضل الناس اصبرهم على النوعين » [1] .

فاذا كانت القوة والغلبة لداعي الهوى يستسلم البائس للشيطان وجنده ، فيقودونه حيث شاؤوا وله معهم حالتان :

احداهما ، ان يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف . والثانية : ان يصير الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قيل :

وكنت امرءا من جند ابليس فارتقى

بي الحال حتى صار ابليس من جندي

قال ابن القيم رحمه الله :

وهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها ، وينبغي اخلاء القلب لتأملها وهي ان هذا المغرور لما اذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ، ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض اعدائه اليه وجعله اسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه ، سلط الله عليه من كان

---

(١) عدة الصابرين ص ١٤ .

حقه هو ان يسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ، ويسخر منه ، ويسخر منه جنده وحزبه فكما اذل سلطان الله وسلمه الى عدوه اذله وسلط عليه عدوه الذي امره ان يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه الى اعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد ان يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه ، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له تسلط عليه عقوبة له . قال الله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » [1] فان قيل فقد اثبت له على اوليائه هاهنا سلطانا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقررا له : (وقال الشيطان لما قضي الامر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي) [2] . وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) [3] . قيل : السلطان الذي اثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين :

---

(١) النحل الآية ٩٨ و ٩٩ .
(٢) ابراهيم الآية ٢٢ .
(٣) سبأ الآية ٢٠ و ٢١ .

احدهما : ان السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه اياهم كيف اراد بتمكينهم اياه من ذلك بطاعته وموالاته . والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان .

الثاني : ان الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة ، ولكن هم سلطوه على انفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه . فلم يتسلطن عليهم بقوته فان كيده ضعيف ، وانما تسلطن عليهم بارادتهم واختيارهم ، والمقصود ان من قصد اعظم اوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ اولاده وحاشيته وسلمهم الى عدوه كان من عقوبته ان يتسلط عليه ذلك العدو نفسه .

أقسام الصبر باعتبار متعلقه :

قال ابن القيم رحمه اللـه : الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الاوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها . وصبر على الاقدار والاقضية حتى لا يتسخطها . وهذه الانواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني في فتوح الغيب : « لا بد للعبد من امر يفعله ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه » .

وهذا الكلام يتعلق بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى ، وطرف من جهة العبد ، فأما الذي من جهة الرب ، فهو ان اللـه تعالى له على عبده حكمان : حكم شرعي ديني ، وحكم كوني قدري ، فالشرع متعلق بأمره ، والكوني متعلق بخلقه ، وهو سبحانه له الخلق والامر . وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب ؛ فان المطلوب ان كان محبوبا له فالمطلوب فعله اما واجبا واما استحبابا ؛ ولا يتم ذلك الا بالصبر وان كان مبغوضا له ؛ فالمطلوب تركه اما تحريما واما كراهة . وذلك ايضا

موقوف على الصبر . فهذا حكمه الديني الشرعي ، واما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، ففرضه الصبر عليها وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء ، وهما وجهان في مذهب أحمد ، أصحهما أنه مستحب فرجع الدين كله الى هذه القواعد الثلاث فعل المأمور : وترك المحظور . والصبر على المقدور .

واما الذي من جهة العبد ، فانه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفا ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبوديته الامر والنهي والقدر على ساقه الصبر لا تستوي الا عليه ، كما لا تستوي السنبلة الا على ساقها .

تقسيم الصبر باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به :

وهو ينقسم بهذا الاعتبار الى واجب ، ومندوب ، ومحظور . ومكروه ، ومباح .

١ ــ فالصبر الواجب ثلاثة انواع : احدها الصبر عن المحرمات ، والثاني الصبر على اداء الواجبات ، والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالامراض والفقر وغيرها .

٢ ــ الصبر المندوب : فهو الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر عن مقابلة الجاني بمثل فعله .

٣ ــ الصبر المحظور : الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت ، وكذا الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة

حرام ، اذا خاف بتركه الموت • قال طاووس وبعده الامام احمد : « من اضطر الى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار » •

ومن الصبر المحظور . صبر الانسان على ما يقصد إهلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله •

٤ ـ والصبر المكروه فله أمثلة : احدهما : أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه ، وصبره عن جماع زوجته اذا احتاجت الى ذلك ولم يتضرر به . وصبره على المكروه ، وصبره عن فعل المستحب •

٥ ـ الصبر المباح هو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين . خير بين فعله وتركه والصبر عليه •

وبالجملة فالصبر على الواجب اوجب وعن الواجب حرام • والصبر عن الحرام واجب ، وعليه حرام • والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب ، وعليه مكروه . والصبر عن المباح مباح • والله اعلم •

وقد روي عن الامام أحمد رضي الله عنه انه قال : « ذكر الله الصبر في القرآن في تسعين موضعا » وقيل في خمس وتسعين موضعا ، وهو صريح كقوله تعالى : (واصبر وما صبرك الا بالله) (واصبر لحكم ربك) (يا أيها الذين آمنوا

اصبروا وصابروا) (ان الله مع الصابرين) (واستعينوا بالصبر والصلاة) وغيرها كثير •

وجزى الله الصابرين على صبرهم جزاءا موفورا ، قال سليمان بن القاسم : كل عمل يعرف ثوابه الا الصبر ، قال الله تعالى : (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) •

وقد اثنى الله تعالى على نبيه أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال : (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا ، وهذا يدل على ان من لم يصبر اذا ابتلي فانه بئس العبد ، وقد حكم سبحانه حكما عاما على كل من لم يؤمن ولم يكن من اهل الحق والصبر ، بالخسران المبين ، وهذا يدل على انه لا رابح سواهم فقال : (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) هذا بعض ما ورد في الكتاب العزيز في الصبر وثوابه والثناء على أهله •

اما ما ورد في السنة في مدحه والحث عليه فنجتزىء منها شذرات ، ففي الصحيحين من حديث انس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى عليه وسلم اتى على امرأة تبكي على صبي لها ، فقال لها : « اتقي الله واصبري » فقالت : وما تبالي بمصيبتي ؟ فلما ذهب ، قيل لها : انه رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه ، فلم تجد على بابه بوابين فقالت : يارسول الله لم اعرفك فقال : « انما الصبر عند اول صدمة » وفي لفظ : « عند الصدمة الاولى » .

وفي صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : انا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها ، الا اخلف الله له خيرا منها ». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة ، أول بيت هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اني قلتها فأخلف الله لي رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال اشتكى ابن لابي طلحة فمات وابو طلحة خارج ، فلما رأت امرأته انه قد مات هيأت شيئا وسجته في جانب البيت ، فلما جاء ابو طلحة قال : كيف الغلام قالت : هدأت نفسه وأرجو ان يكون قد استراح ، فظن أبو طلحة أنها صادقة قال : فبات معها فلما اصبح اغتسل ، فلما اراد ان يخرج اعلمته انه قد مات فصلى مع رسول الله صلى عليه وسلم ، ثم اخبره بما كان منهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله يبارك لكما في ليلتكما ». قال ابن عيينة : فقال رجل من الانصار فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن .

تنازع الناس في الافضل من الصبر والشكر :

حكى أبو الفرج بن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها : ان الصبر أفضل ، والثاني : ان الشكر أفضل ، والثالث : انهما سواء ، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت » .

حجج القائلين بأن الصبر أفضل :

قال الصابرون : قد اثنى الله سبحانه على الصبر واهله ومدحه وامر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله في كتابه في نيف وتسعين موضعا .

فمما احتج به القائلون بأفضلية الصبر :

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » فذكر ذلك بمعرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر ، فانه ألحق الشاكر بالصابر ، وشبهه به ، ورتبة المشبه به اعلى من رتبة المشبه .

٢ ـ قالوا : الصبر يدخل في كل مسألة من مسائل الدين ، ولهذا كان من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد .

٣ ـ قالوا : وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم له الا الصوم

فانه لي وأنا أجزي به » . وما ذاك الا لانه صبر النفس ومنعها من شهواتها ، كما في الحديث : « يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلـــي » .

٤ ــ قالوا : ويكفي في فضل الصبر على الشكر قولــه تعالى : (اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هــم الفائزون) ، فجعل فوزهم جزاء صبرهم .

٥ ــ قالوا : وقال اللــه تعالى : (واللــه مع الصابرين) . ولا شيء يعدل معيته لعبده سبحانه وتعالى ، وقال جل ذكــره (واصبر لحكم ربك فإنك باعيننا) ، وهــذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه .

٦ ــ قالوا : وقد وعــد اللــه الصابرين بثلاثة اشــياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها ، وهي صلواته تعالى عليهم ، ورحمته لهم ، وتخصيصهم بالهدايــة ، وذلك في قوله تعالــى : (وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا للــه وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمــة ، وأولئك هم المهتدون) ، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم .

٧ ــ قالوا : وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما امكن ، خير من الاستكثار منها ، والزهد فيها حــال الصابرين والاستكثار منها حال الشاكرين .

٨ ــ قالوا : وقد سئل المسيح صلوات اللـــه وسلامـه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه احدهمـــا ولم يلتفت اليـــه ، وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة اللـــه تعالى . أيهما أفضل ؟ فقـــال : الذي لم يلتفت اليه وأعرض عنه افضل عند اللـــه •

٩ ــ قالوا : ويدل على صحة هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضت عليه مفاتيح كنوز الارض فلم يأخذها ، وقال : بل اجوع يوما وأشبع يوما ، ولو اخذها لأنفقها في طاعة اللـــه ومرضاته فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيهـــا •

هذا وقد أفاض تغمده اللـــه برحمته ورضوانه بسرد ادلة القائلين بافضلية الصبر على الشكر بمـــا يربو علـــى الخمسين دليلا واغلب الظن ان ما ذكره من ادلة مطولة ينهج فيها نهـــج المناظرين لما في تلك الادلة من شواهد واستنتاجات هي من وحي خاطره وكنوز علمه اذ يبعد مثل هذه الخواطر والسوانح عـــن فئة الزهاد الصابرين فسبيلهم بأدلتهم على منهجهم ، اختصـــار الكلام والبعد عن فلسفة المتكلمين والمناظرين كما هو المعروف من سيرتهم رضي اللـــه عنهم •

أدلـــة الشاكرين :

لئن ذكر من ادلة الصابرين على افضلية الصبر بضع عشر دليلا لقد ذكر من ادلة الشاكرين ما يربو على مائة دليل مشفوعة

بشرح آيات الكتاب العزيز الواردة بتعظيم الشاكرين وجزائهم.
وقد استنتج من الآيات الواردة في الشكر والشاكرين من المعاني مالايتاح لغيره من أئمة الاسلام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، واليك شاهدا على ذلك قوله في الفصل الذي عقده على لسان الشاكرين وهو من أمتع فصول الكتاب قال رحمه الله :

« قال الشاكرون : لقد تعديتم طوركم ـ الضمير هنا للصابرين ـ وفضلتم مقاما ، غيره افضل منه ،وقدمتم الوسيلة على الغاية ، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه ، والعمل الكامل على الاكمل، والفاضل على الافضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره، وكلاهما المراد بالخلق والامر، والصبر خادم لهما،ووسيلة اليهما ، وعون عليهما ؛ قال تعالى :(واذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) وقرن سبحانه الشكر بالايمان ، واخبر انه لا غرض له في عذاب خلقه ان شكروا وآمنوا به فقال : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم بعد هذا .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا

أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين . »

أقول : فانظر يا أخي الى هذا الاستنتاج الباهر الذي أغلق فهمه على كثير ممن سبق ابن القيم رحمه الله .

ثم قال : وقسم الله سبحانه وتعالى الناس الى شكور وكفور ، فأبغض الاشياء الى الله عز وجل الكفر وأهله ، وأحب الاشياء اليه سبحانه الشكر وأهله ، قال تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » وقال سبحانه فيما حكاه عن نبيه سليمان عليه السلام : « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم» وقال تعالى: «وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » وقال تعالى : « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم » وهذا كثير في القرآن يقابل الله سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده .

وقال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين .» والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم .

وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره .

(فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقوله في الرزق : (يرزق من يشاء) وفي المغفرة : (يغفر لمن يشاء) والتوبة : (ويتوب الله على من يشاء) .

وأطلق جزاء الشكر اطلاقا حيث ذكر ، كقوله «وسيجزي الله الشاكرين » «وسنجزي الشاكرين » .

ولما عرف عدو الله ابليس مقام الشكر وانه من اجل المقامات **واعلاها** ، جعل غايته ان يسعى في قطع الناس عنه فقال «ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين » .

ووصف الله سبحانه وتعالى الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : «وقليل من عبادي الشكور » وذكر الامام احمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه سمع رجلا يقول : اللهم اجعلني من الاقلين ، فقال ماهذا فقال ياامير المؤمنين ان الله قال «وما آمن معه الا قليل » وقال : « وقليل من عبادي الشكور ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » فقال عمر : صدقت : وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه الى اهل الارض بالشكر فقال « ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا »وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب

العباد بأنهم من ذريته اشارة الى الاقتداء به فانه ابوهم الثاني . فان الله سبحانه وتعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا الامن ذريته كما قال تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » فأمر الذرية ان يتشبهوا بأبيهم في الشكر «أنه كان عبدا شكورا » وقد آخبره سبحانه : أنه انما يعبده من شكره . فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : « واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون »

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى : « يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين »

وأول وصية وصى الله بها الانسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال : « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير »

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى : «وإن تشكروا يرضه لكم » وأثنى سبحانه على خليله ابراهيم بشكر نعمه فقال : « إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » فأخبر سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه كان قانتا، والقانت

هو المطيع المقيم على طاعته ،والحنيف هو المقبل على اللـــه المعرض عما سواه ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله .

وأخبر سبحانه بأن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بـــل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها فقال : « والله أخرجكم مـــن بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصـــار والأفئدة لعلكم تشكرون »

فهذه غاية الخلق وغاية الامر .

قالوا : فالشكر مراد لنفسه ، والصبر مراد لغيره ، والصبر إنما حمد لإفضائه وايصاله الى الشكر ، فهو خادم الشكر ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى اللـــه عليه وسلم أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر اللـــه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » .

أقول : ثم سرد ابن القيم رحمه الله كثيرا من أقوال السلف الصالحين والعلماء العاملين ، والعباد والزهاد وأهل الحديث ، فيما يجب على العبد تجاه ربه من الحمد والشكر على جزيـــل إنعامه وعظيم إكرامه وأن العبد لو عاش حامدا شاكرا لما وفى حق اللـــه من الشكر ، نقتطف من أقوالهم بعضها ليدل المؤمن على ما يجب عليه تجاه هذه النعم الظاهرة والباطنة من الشكر على

فضل اللـه سبحانه وتعالى وكان فضله عظيما ، وكرمه جسيمـا فكيف وهو القائل : « وإن تعدوا نعمـة اللـه لا تحصوها » والقائل : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » • فمن هذه الاقوال : ما روي عن مروان بن الحكم انه كان يقول اذا ذكر الاسلام : « بنعمة ربي وصلت اليـه ، لا بما قدمت يداي ولا بإرادتي ، اني كنت خاطئاً ، وكم من مدخل لو مت فيـه لكنت فيه نكالا في العشيرة ، ووقيت السوء والمكروه فيه ــ الاسلام ــ ورحت بنعمة منه كبيرة ، وكم من نعمة للـه تمسي وتصبح في العيان وفي السريرة »

ودعي عثمان بن عفان رضي الله عنه الى قوم على ريبـة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يأخذهم ، فاعتنق رقبـة شكراً للـه على أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم •

وقال يزيد بن هارون : أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحا عليه السلام كان اذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأذهب عني أذاه، فسمي عبدا شكورا •

وقال ابن أبي الدنيا حدثني العباس بن جعفر عن الحارث ابن شبل قال حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يقم عن خلاء قط الا قاله •

أقول : وهكـذا شأن المؤمن كما أخبر صلى اللـه عليه

وسلم : أن الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدهـا التقطها ومن أجدر بالكلمة الحكمة الضالة ، من سيد المؤمنين وإمام المرشدين من أن يلتقطها .

وسأل رجل أبا حازم فقال : ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ قال : ان رأيت بهما خيرا أعلنته ، وان رأيت بهما شرا سترته . قال : فما شكر الاذنين ؟ قال : ان سمعت بهما خيرا وعيته ، وان سمعت بهما شرا دفنته . قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخـذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقا للـه هو فيهما . قـال : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعاما وأعلاه علما ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال : قال اللـه تعالى : « والذين هـم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » قال: فما شكر الرجلين؟ قال : ان علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله ، وان مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر للـه . وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر » .

ثم قال : اذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به وانما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الاغلب عليه والاظهر منه . والا فحقيقة الشكر

انما يلتئم من الصبر والارادة والفعل ، فان الشكر هو العمل بطاعة اللـه وترك معصيته ، والصبر أصل ذلـك فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، واذا كان الصبر مأمورا به فأداؤه هو الشكر ، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عـن الحس والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل •

فالمأمور لا يؤدى الا بصبر وشكر ، والمحظور لا يترك الا بصبر وشكر ، وأما المقدور الذي يُقدَّر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شـكره •

أما مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل ؟، فهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل ؟ حيث قال: للناس فيها ثلاثة أقوال، وقد مرت أقواله وحجج الفريقين • والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما لله تعالى فـإن استويا في التقوى استويا بالفضل ، فاللـه سبحانه لـم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال سبحانه وتعالى « إن أكرمكم عند اللـه أتقاكم » والتقوى مبنية على أصلين : الصبر ، والشكر وكل مـن الغني والفقير لا بد له منهما فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضـل •

فأتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله هو الافضل ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة .

وقد احتج لحكمه هذا بأن الله سبحانه وتعالى جمع لنبيه وحبيبه صلى الله عليه وسلم بين المقامين كليهما على أتم الوجوه فكان سيد الاغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ؛ فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لاحد سواه ، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه ؛ ومن قرأ سيرته صلى الله عليه وسلم وجد الامر كذلك ، فكان صلى الله عليه وسلم أصبر الخلق في مواطن الصبر ، وأشكر الخلق في مواطن الشكر .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن الغنى والفقر امتحان من الله للعبد كما أن الموت والحياة والصحة والسقم كلها امتحان من الله ليبلو العباد أيهم أحسن عملا ، كما قال عزت كلمته : « ..الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » فليس للفقراء الحق بأن يفخروا على الاغنياء، وليس للاغنياء حق أن يفخروا على الفقراء ، وان كان لا بد من المفاخرة فلتكن من المفاخرة المحمودة التي يتنافس فيها المتنافسون بالعمل الصالح ليحظوا بالدرجات العلى لدى رب العالمين .

أما المنافسة في الدنيا ؛ وهي التكاثر في الاموال والاولاد فيحب أن يكثر بني جنسه في ذلك ، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر

من غيره مالاً وولداً ، فهذا من أعظم ما يلهي النفس عن الترقي في درجات الكمال، كما قال تعالى « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون »

وليس التكاثر بالمال والولد فحسب ، بل يكون التكاثر والتفاخر بالجاه والعلم والحسب والنسب ، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الامور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية ، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال والولد ، ومنهم من يلهيه التكاثر بالعلم ، فيجمعه تكاثرا وتفاخرا وهذا أسوأ حالا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه ، لانه جعل أسباب الآخرة للدنيا ، والمكاثر بالمال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها .

وعلى ذكر الدنيا وأسباب التكاثر والتفاخر فيها ذكر أنها لا تذم لذاتها. فهي دار صلاح للصالحين، ودار فساد للمفسدين.

ولما كان حب الدنيا هو الدافع للتكاثر والتفاخر وهو رأس كل الخطايا . لأنه يقتضي تعظيمها ، وهي حقيرة ، ملعونة ، ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه ، ولانها اذا أحبها العبد صيرها غاية وهي وسيلة للآخرة ولان محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما ينفعه في الآخرة .

ولان محبتها تجعلها أكبر هم العبد . ولهذا جاء الاثر من

أدعية النبي صلى الـله عليه وسلم « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنـا » فمحبها من أشد الناس عذابا كما هو مشاهد ملموس ، وكذا فان عاشقها من أسفه الناس عقلا ، لانـه يعشق ما لا بقاء له ولا قدرة له على امتلاكها ونيل بغيته منها .

وعلى ذكر الدنيا وذمها وأنها ليست بدار قرار ، بل هي ممر لحياة أطول مدى ، وأبعد أثرا ، في بؤسها ونعيمها ضرب نيفا وعشرين مثالا لها من الكتاب والسنة وسيرة النبي صلى اللـه عليه وسلم وسيرة أصحابه الكرام ، وذكر عمر الدنيا بأكملها منذ أن وجدت الى يوم فنائها بالنسبة للأزل القديم والباقي المستديم فقال : « للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئا. وهي ما قبل أن يوجد . وحالة أخرى : وهي من ساعة موته الى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي ، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إمـا في الجنة ، وإما في النار ، ثم تعاد الى بدنه فيجازى بعمله ويسكن احدى الدارين في خلود دائم ، ثم بين هاتين الحالتين وهي مابعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته ، فانظر الى مقدار زمانها وانسبه الى الحالتين تعلم انـه أقل من طرفة عين .

وقد اخترت من هذه الأمثلة هذا المثال :

قال رحمه اللـه : « المثال الثالث لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة ، وما يعقبهم من الحسرات ، مثل أهلهـا في

غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة ، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الابطاء ، وخوفهم مرور السفينة ، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادروا الى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الاماكن وألينهــا وأوفقها لمراده • وتوقف بعضهم في الجزيرة ، ينظر الى أزهارها وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ، ويعجبه حسن احجارها ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها • فلم يصادف الا مكانا ضيقا فجلس فيه،وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والازهار الفائقة فحمل منها حمله فلما جاء لم يجــد بالسفينة الا مكانا ضيقا ، وزاده حمله ضيقا فصار محموله ثقلا عليه ووبالا ، ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حمله بدا ، ولم يجد له في السفينة موضعا فحمله على عنقه وندم على أخذه ، فلم تنفعه الندامة ، ثم ذبلت الازهار وتغيرت أراييجها وآذاه نتنها ، وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة ، وأبعد في نزهته حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة ، فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه ، فهو تارة يتناول من الثمر ، وتارة يشم تلــك الانوار ، وتارة يعجب من حسن الاشجار ، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ، ويدخل في قدميه أو غصن يجرح بدنه ، أو عوسج يخرق ثيابه ، ويهتك عورته ، أو صوت هائل يفزعه • ثم من هؤلاء من لحق السفينة

ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل ؛ ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ، ونهشته الحيات ؛ ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك .

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم ، وما أقبح العاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيما قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه .

ومثلها بالبحر الذي لا بد للخلق من ركوبه ليقطعوه الى الساحل .

ومثلها بالعسل وأهلها بالذباب .
ومثلها بالفخ فيه الحب وأهلها بالطير .
ومثلها بالنار وأهلها تتهافت فيها كالفراش .
ومثلها بالوادي المخصب والعدو خلفه .
ومثلها بالماء المالح وأهلها عطاش .
ومثلها بالمرأة الجميلة على طريق المنزل المقصود .
ومثلها بشجرة زائلة في طريق مدينة خالدة .

ثم ختم هذا الفصل فقال : « عرضت الدنيا بحذافيرها على النبي صلى الله عليه وسلم فدفع في صدرها باليدين ، وردها على عقبيها . ثم عرضت بعده على اصحابه وتعرضت لهم ، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه ، وهم قليل ، ومنهم من استعرضها وقال

ما فيك ؟ قالت : فيَّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام ، فقالوا هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم ؛ فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروهها وشبهها فقالت: قد أخذه من قبلكم فقالوا: هاتي حرامك، فأخذوه فطلبه من بعدهم فقالت : هو في ايدي الظلمة قد استأثروا بـه عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة ، فلا يمد فاجر يده الى شيء من الحرام الا وجد أفجر منه وأقوى قـد سبقه اليه هذا. وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية فالضيف مرتحل، والعارية مستردة » .

ولكي لايفهم من كلامه انه يدعو الى الاعراض عن الدنيـا والزهد فيهـا والكسل والخمول ، عقب علـى ما ذكر بأحاديث الاخلاص لله في العمل دون أن يشرك بعبادته وزهده سمعة أو رياء . واختار مـن باب الاخلاص أحاديث الجهاد فقال : وفي المسند وسنن النسائي عـن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : ان رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم قال : « من غزا في سـبيل اللـه عز وجل وهو لا ينوي في غزاته الا عقالا فله ما نوى » وفي المسند والسنن عن يعلى بن منية قال : كـان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم يبعثني في سرايا ، فبعثني ذات يوم في سـرية وكان رجل يركب بغلا . فقلت له: ارحل فان النبي صلى الله عليه وسلم بعثني في سرية ، فقال : ما انا بخارج معك حتى تجعل لـي

ثلاثة دنانير ، ففعلت فلما رجعت من غزاتي ، ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته الا ثلاثة دنانير» .

وفي سنن ابي داود أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال يارسول الله اخبرني عن الجهاد والغزو فقال : « ياعبد الله ابن عمرو ان قاتلت صابرا محتسبا ، بعثك الله صابرا محتسبا ، وان قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا ، ياعبد الله ابن عمرو على أي حال قاتلت او قتلت بعثك الله على تلك الحال» .

وهكذا لئلا يفهم من كلامه انه يدعو الى الفقر والذلة والمسكنة ، فقد ذكر في الفصل الذي عقده لاحتجاج الاغنياء الصالحين المنفقين من اموالهم في مرضاة الله ، ذكر آيات واحاديث وشذرات ممتعة من سيرة السلف الصالح وبين ان الانفاق في سبيل الله ، ربما كان اعلى درجة من الجهاد بالنفس لذلك قال : والجهاد ذروة سنام العمل . فتارة يكون بالنفس ، وتارة يكون بالمال ، وربما كان الجهاد بالمال انكى وانفع .

وبأي شيء فضل عثمان على علي ، وعلي اكثر منه جهادا بنفسه وأسبق اسلاما من عثمان ، وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف افضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر . وتأثيرهم في الدين اعظم من تأثير اهل الصفة ... وقد استعاذ رسول الله

صلى اللـه عليه وسلم من الفقر وقرنه بالكفر فقال : اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر •• ونحن لا ننكـر ان رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم كان فقيرا ثم اغناه اللـه ، واللـه فتح عليه وخوله ووسع عليه ، وكان يدخر لاهله قوت سنة ؛ ويعطي العطايا التي لم يعطها احد غيره ، وكان يعطي عطاء من لا يخـاف الفقر • ومات صلى اللـه عليه وسلم عن فدك والنضير واموال خصه اللـه بها . وقال تعالى : « ما أفاء اللـه على رسوله مـن أهل القرى ؛ فلله وللرسول •» فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة • وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال واحله وافضله ؛ وهو ما أخذ بظل رمحه قائم سيفه من اعداء اللـه الذين كان مال اللـه بأيديهم ظلما وعدوانا ؛ فانه خلق المال ليستعان به على طاعته وهو بأيدي الكفار والفجار ظلما وعدونا فاذا رجع الى اوليائه وأهل طاعته ؛ فاء اليهم ما خلق لهم • ولكن لم يكن غنى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وملكه من جنس غنى بني الدنيا واملاكهم . فان غناهم بالشيء ، وغناه صلى اللـه عليه وسلم عن الشيء . وهو الغني العالي وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب ارادتهم وهو صلى اللـه عليه وسلم انما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف الا بأمر سيده •

ثم ذكر اختلاف الفقهاء في حكم ما أفاء اللـه على رسوله

من اهل القرى • هل كان ملكا للنبي صلى الله عليه وسلم على قولين وهما روايتان عن احمد والتحقيق ان ملكه له كان نوعا آخر من الملك • وهو ملك يتصرف فيه بالامر كما قال صلى الله عليه وسلم : « والله لا أعطي احدا ولا امنع احدا ، انما انا قاسم اضع حيث امرت » •

ثم جعل لكتابه خاتمة يدعو بها من اراد السفر الى الله ، وناداهم نداء الناصح الحكيم ، والاب الرحيم . فقال : (يا من عزم على السفر الى الله والدار الآخرة قد رفع لك علم فشمر اليه فقد امكن التشمير •• نهج للعبد طريق النجاة وفتح له ابوابها . وعرفه طرق تحصيل السعادة ، واعطاه اسبابها ، حذره من وبال معصيته ، وأشهده في نفسه وفي غيره شؤمها وعقابها ، وقال ان اطعت فبفضلي وأنا اشكر . وان عصيت فبقضائي وأنا اغفر ، ان من الزلل . ان ربنا لغفور شكور •

ازاح عن العبد العلل ، وامره ان يستعيذ به من العجز والكسل ، ووعده ان يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزلل ، ان ربنا لغفور شكور •

اعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على احسانه لنفسه ، لا على احسانه اليه ، ووعده على احسانه لنفسه ، ان يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وان غفر له خطاياه اذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه ان

ربنا لغفور شكور .

يجود على عبيده بالنوال قبل السؤال ، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال . ويغفر لمن تاب اليه ولو بلغت ذنوبه عدد الامواج . والحصا والتراب والرمال ، ان ربنا لغفور شكور .

افاض على خلقه النعمة . وكتب على نفسه الرحمة . وضمن الكتاب الذي كتبه ان رحمته تغلب غضبه ان ربنا لغفور شكور .

يطاع فيشكر . وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله . ويتوب اليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من اهله . ان ربنا لغفور شكور .

الحسنة عنده بعشر امثالها ، او يضاعفها بلا عدد ولا حسبان والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والارض الى آخر الزمان ان ربنا لغفور شكور .

فاياك ايها المتمرد ان يأخذك على غرة ، فانه غيور واذا أقمت على معصية ، وهو يمدك بنعمته فاحذره ، فانه لم يهملك لكنه صبور وبشراك ايها التائب بمغفرته ورحمته انه غفور شكور .

من علم ان الرب شكور تنوع في معاملته ، ومن علم انه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ، ومن علم ان رحمته سبقت غضبه ، لم ييأس من رحمته ان ربنا لغفور شكور .

فأهل شكره أهل زيادته . وأهل ذكره أهل مجالسته ، وأهل طاعته اهل كرامته . واهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ؛ ان تابوا فهو حبيبهم وان لم يتوبوا فهو طبيبهم ؛ يبتليهم بانواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المصائب ؛ انه غفور شكور .

والحمد لله رب العالمين حمدا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ؛ وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدا يملأ السموات والارض وما بينهما . وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ؛ عدد ما حمده الحامدون وغفل عن ذكره الغافلون .

والآن بعد ان قطعنا شوطا بعيدا مع الامام ابن القيم نتقلب بين الشكر والصبر ؛ ورأينا من فرائد فوائده ، وغرائب عجائبه ، وبدائع استنباطاته لمعاني آيات الصبر ، وآيات الشكر ، مما لم يسبق اليها وقل ان تجدها في تفسير ، مهما تنوعت مناهج التفاسير ، ندعه يأخذ بأيدينا ويحدونا الى بلاد الافراح التي اعدها الله تعالى للصابرين حقا ، والشاكرين صدقا ، ننتقل اليها بخيالنا ونبصرها بنور ايماننا ننعم فيها مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فمهما حاولت الكتابة في هذا الموضوع فكلامي مما يسطره القلم من وحي الجنان ، وان زانه فصيح العبارة وسحر البيان ، اما ما حبره يراع ابن القيم فهو نابع من قلب ملؤه الايمان ، يشع عليه نور الجنان . وذلك لطول تهجده والتزامه باب الملك الديان .

هذا وقد آن الاوان بعدما رأينا من نفحات ابن القيم الروحية تفيض على قلوبنا لتزودنا بزاد التقوى ، الذي هو خير زاد ، ندعه يأخذ بأيدينا ويرشدنا في سيرنا الى منازل السعداء في دار السلام ويحدو أرواحنا الى بلاد الافراح .

مع الإمام ابن القيم في كتابه حادي الأرواح الى بلاد الافراح :

للامام ابن القيم رحمه الله في كل علم من علوم المسلمين مؤلفات ، منها المجلد ومنها ما بلغ المجلدات ، ولو أنك أخذت أي كتاب من مؤلفاته سواء أكان بالعلوم أو الفنون أو الآداب أو اللغة ، لوجدت الروحانية الخالصة تفيض عليك من بين سطوره ، إذ أنه لم يكتب بالعقل مجردا عن الروح ، فكل ما حبره يراعه يقصد به التقرب الى الله بإيقاظ الهمم الفاترة ، لتأخذ سمتها الى الدار الآخرة دار القرار .

فالعلم عنده وسيلة للعمل ، مهما كان نوعه فاللغة بشتى فروعها وسيلة لتصحيح اللسان الذي هو اداة الذكر وتنبيه العقل لتصحيح ما يقرأ ليكون الفهم صحيحا واضحا ، والقرآن والحديث والتفسير والفقه لتصحيح العمل ليكون مقبولا ، والرقائق لتصحيح القلب ليكون مخلصا في أداء ما يجب عليه من عبادة ربه ، فان تنكب طالب العلم هذا المنهج كان علمه حجة

عليه لا له ، والمطالع لكتبه يرى هـذه الفكرة ظاهرة يرددها في أكثر المواضع بأساليب وتعابير حسب ما يقتضيه المقام ، والآن حان الشروع للمسير معه الى بلاد الافراح •

وصف الكتاب نتركه للمؤلف لأنه أعلم بما فيه :

قال رحمه اللـه : وهذا كتاب اجتهدت في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه ، فهـو للمحزون سلوة ، وللمشتاق الى تلك العرائس جلوة ، محرك للقلوب ، الى أجلّ مطلوب ، وحـاد للنفوس ، الى مجاورة الملك القدوس ، ممتع لقارئـه ، مشوق للناظر فيه ، لا يسأمه الجليس ، ولا يمله الانيس ، مشتمل على بدائع الفوائد ، وفرائد القلائد ، على ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب ، مع تضمينه لجملة كثيرة من الاحاديث المرفوعات والآثـار الموقوفات ، والاسرار المودعة في كثير من الآيـات ، والنكت البديعـات ، وإيضاح كثير مـن المشكلات ، والتنبيه على أصول مـن الاسماء والصفات ، اذا نظر فيه الناظر زاد إيمانا ، وجلى عليه الجنة حتى كأنه يشاهدها عياناً ، فهو مثير ساكن العزمات ، الى روضات الجنات ، وباعث الهمم العليات الى العيش الهني في تلك الغرفات •••••

وكان جل المقصود منه بشارة أهل السنة ، بمـا أعد الله

لهم في الجنة ، فانهم المستحقون للبشرى ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ونعم الله عليهم باطنة وظاهـرة ، وهم أولياء الرسول وحزبه ، ومن خرج عن سنته فهم أعداؤه وحربه ، لا تأخذهم في نصرة سنته ملامة اللوام ، ولا يتركون ماصح عنه القول لقول أحد من الانام ، والسنة أجل في صدورهم من أن يقدموا عليها رأياً فقهياً ، أو بحثاً جدلياً ، أو خيالا صوفيا ، أو تناقضا كلاميا ، أو قياسا فلسفيا ، أو حكما سياسيا ، فمن قدم عليها شيئاً من ذلك فباب الصواب عليه مسدود ، وهو عن طريق الرشاد مصدود ، فيا أيها الناظر فيه لك غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، ولك صفوه ، وعليه كدره ، وهذه بضاعته المزجاة تعرض عليك ، وبنات أفكاره تزف اليك ، فـإن صادفت كفءاً كريما لـم تعدم منـه إمساكاً بمعروف ، أو تسريحا باحسان ، وإن كان غيره فاللـه المستعان، فما كان من صواب فمن الواحد المنان ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان ، والله بريء منه ورسوله » .

وجعله سبعين باباً وجعل لبعض الابواب بعض الفصول إذا دعت الحاجـة للشرح والايضاح والاستطراد بحيث لا يخـرج عـن موضوع الباب ، فجعل الباب الاول لبيـان وجود الجنة الآن ، رداً على المعتزلة والقدرية القائلين بعدم وجودها الآن ، وأن الله ينشئهما يوم القيامـة ، فقال رحمه اللـه : « لم يزل

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة ، وفقهاء الاسلام ، وأهل التصوف والزهد ، على اعتقاد وجودها الآن ، وإثبات ذلك مستندين في ذلك الى نصوص الكتاب والسنة ، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم ، من أولهم الى آخرهم ، فإنهم دعوا الامم اليها وأخبروا بها ، الى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن ، وقالت : بل الله ينشئها يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة ، فيما يفعله الله ، وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الافعال ، ودخل التجهم (١) فيهم فصاروا معطلة في الصفات ، وقالوا : خلق الجنة قبل الجزاء عبث ، فإنها تصير معطلة مدداً متطاولة ، ليس فيها سكانها ، قالوا : ومن المعلوم أن ملكاً لو اتخذ داراً وأعد فيها من الوان الاطعمة والآلات والمصالح ،

(١) التجهم : مذهب الجهمية . نسبة الى جهم بن صفوان الراسبي الترمذي السمرقندي القائل : بالجبرية ، اي الانسان مسير لا مخير ، والقائل بنفي الصفات صفات الباري عز وجل ، اي ان الله سميع بلا سمع عليم بلا علم الخ . وكتب الامام ابن القيم مشحونة بالرد على هؤلاء المعطلة وله كتاب مفرد في الرد عليهم هو « الصواعق المرسلة » .

وعطلها من الناس ولم يمكنهم من دخولها قروناً متطاولة لم يكن ما فعله واقعاً علــى وجه الحكمة ، ووجــد العقلاء سبيلا الى الاعتراض عليه ، فحجروا علــى الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلــة ، وشبهوا أفعالــه بأفعالهــم ، وردوا مــن النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوهــا للرب أو حرفوها عن مواضعها ، وضللوا وبدعوا من خالفهم فيهــا ، والتزموا فيها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء ... كما ذكر ذلك أبو الحسن الاشعري في مقالاته » .

ثــم أورد عقيدة ابي الحسن الاشعري ومــا يدين بــه المسلمون مقراً له بكل ما جاء فيها بلا تعقيب ولا تفسير ، وهو دليل علــى ما يعتقده من صفات اللــه عز وجل ، سواء أكانت صفات ذات أو صفات معنى وهذا أكبر دليل ورد على مــن نسب اليه التجسيم ممن لم يفهم كلامه أو كان إمّعة لم يقرأ له شيئا من ذلــك ، فقال : قــال أبو الحسن الاشعري في كتابه مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين « جملــة ما عليه أصحاب الحديثوأهل السنة ، الاقرار باللــه وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عــن رسول اللــه صلى الله عليه وسلم ، لا يردون من ذلــك شيئا ، وأن اللــه تعالى إله واحد فرد صمد لــم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً

عبده ورسوله وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » .

« وأن الله تعالى على عرشه كما قال : « الرحمن على العرش استوى » وأن له يدين بلا كيف كما قال «خلقت بيدي» وكما قال : « بل يداه مبسوطتان » وأن له عينين بلا كيف قال : « تجري بأعيننا » وأن له وجهاً كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

وأنأسماء الله تعالى لا يقال: إنها غير الله كما قالتالمعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علما ، كما قال : « أنزله بعلمه » وكما قال : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما يعتقد المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة كما قال : « أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة »وقالوا انه لا يكون في الارض من خير ولا شر إلا ما شاء الله ، وأن الاشياء تكون بمشيئة الله كما قال تعالى : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » وكما قال المسلمون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقالوا : ـ أي المسلمون ـ إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله، أو يكون أحد يقدر أن يخرج عن علم الله وأن يفعل شيئا ، علم الله انه لايفعله.

وأقروا أنه لا خالق إلا الله تعالى ، وان أفعال العباد يخلقها الله تعالى وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا ، وأن الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ولطف بالمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ، ولم يلطف بالكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم ، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين ، وأن الله تعالى يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونو مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونو كافرين كما علم وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم ، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ، ويؤمنون بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله كما قال (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) ويلجؤون أمرهم الى الله ، ويثبتون الحاجة الى الله في كل وقت ، والفقر الى الله في كل حال ، ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ ، فمن قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ـ أي المسلمين ـ فلا يقال : للفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق .

ويقولون : ان الله تعالى يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله تعالى محجوبون ، قال تعالى : « كلا إنهم عن

ربهم يومئذ لمحجوبون » وأن موسى سأل الله تعالى الرؤية في الدنيا ، وأن اللـه تعالى تجلى للجبل فجعله دكا ، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة . ولا يكفرون أهل القبلة بذنب يرتكبه ؛ كنحو الزنى والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره (وباليوم الآخر) وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم .

ثم قال : والاسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله كما جاء في الحديث ، والاسلام عندهم ـ عند المسلمين ـ غير الايمان ويقرون بأن الله مقلب القلوب . ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعذاب القبر ، وأن الحوض حق ، والصراط حق ، والبعث بعد الموت حق ، والمحاسبة من الله لعباده حق ، والوقوف بين يدي اللـه تعالى حق ، ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، ويقولون : أسماء الله هي الله تعالى ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون اللـه تعالى ينزلهم حيث شاء ، ويقولون أمرهم الى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، ويؤمنون بأن الله تعالى

يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينكرون الجدال والمراء في الدين ، والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ، ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلا عن عدل حتى ينتهي ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون كيف ؟ ولا لم ؟ لأن ذلك بدعة ؛ ويقولون إن الله تعالى لم يأمر بالشر بل نهى عنه ؛ وأمر بالخير ، ولم يرض بالشرك ، وإن كان مريداً له ، ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بفضائلهم ؛ ويمسكون عما شجر بينهم • صغيرهم وكبيرهم . ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضي الله عنهم ، ويقرون بأنهم الخلفاء الراشدون المهديون . وأنهم أفضل الناس كلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال تعالى « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ؛ وأن لا يتبعوا في دينهم ما لم يأذن به الله . ويقرون بأن الله تعالى يجيء يوم القيامة كما قال : « وجاء ربك والملك صفا صفا » وأن الله تعالى يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » •

ويرون العيدين والجمعة والجماعة ، خلف كل امام بر أو فاجـر ويثبتون المسح على الخفين سنة ، ويرونـه في الحضر والسفر ، ويتبعون فرض الجهاد للمشركين ، منذ بعث الله نبيه الى آخر عصابة ، تقاتل الدجال وبعد ذلـك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لا يخرج عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة ؛ ويصدقون بخروج الدجـال ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يقتله ، ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج ، والرؤيا في المنام ؛ وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعـد موتهم تصل اليهم ؛ ويصدقون أن في الدنيـا سحرة ، وأن الساحـر كافر ؛ كما قال تعالى « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وأن السحر كائن موجود في الدنيـا .
ويرون الصلاة علـى كل من مات مـن أهل القبلـة : مؤمنهم وفاجرهم • ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان وأن مـن مات مات بأجله ؛ وكـذلك كل من قتل قتل بأجله، وأن الارزاق من قبل اللـه تعالى يرزقها عبـاده حلالا كـانت أو حراما ، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه ، وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وأن السنة لا تنسخ القرآن وأن الاطفال أمرهم الى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد ؛ وأن اللـه تعالى عالم ما العباد عاملون ؛

وكتب ان ذلك يكون ، وأن الامور بيد اللـه تعالى ؛ ويرون الصبر على حكم الله ، والاخذ بما أمر اللـه تعالى ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، واخلاص العمل للـه والنصيحة للمسلمين ، ويدينون بعبادة الله في العابدين . والنصيحة لجماعة المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنى وقول الزور والمعصية والفخر والكبر والازدراء علـى الناس والعجب ، ويرون مجانبة كل داع الى بدعة ، والتشاغل بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع والاستكانة وحسن الخلق ، وبذل المعروف وكف الأذى وتـرك الغيبـة والنميمة والسعايـة ، وتفقد المـآكل والمشارب . » فهذه جملة ما يأمرون بـه ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا مـن قولهم نقول ، وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير .

ثم قـال الامام ابن القيم رحمه اللـه : « وسقنا جملـة كلامـه [1] ليكون الكتاب مؤسساً علـى معرفة من يستحق البشارة المـذكورة ، وأن أهل هـذه المقالة هم أهلها وباللـه التوفيق »

---

(١) الضمير في (كلامه) يعود على أبي الحسن الاشعري في مقالاتـه .

أقول : ونحن نقلناها برمتها لنبين عقيدة أهل السنة وأن هذه العقيدة هي ما يعتقده الامام ابن القيم من حيث صفات الله عز وجل سواء أكانت صفات ذات أم صفات معنى وأنه رضي الله عنه خلاف ما يشنع عليه خصومه من أنه مشبه أو مجسم ، فهذه كتبه مشحونة بالرد على المشبهة والمجسمة ، يذكر ذلك قصدا واستطراداً .

أما الذين يشيعون عنه التشبيه والتجسيم فهم أحد اثنين ، إما رجل لم يفهم المقصود من كلامه ، أو فهمه ولكن يغالط ليقال إنه رد على الامام ابن القيم ، هذا واحد ، وإما أن يكون إمّعة يقول ما قاله غيره من غير أن يكلف نفسه عناء مطالعة ما كتب ابن القيم في هذا الموضوع ، ونحن اظهارا للحقيقة التي لبست على كثير من الناس نذكر عقيدته التي هي عقيدة السلف الصالح من حيث صفات الله عز وجل والتي فهمناها من كتبه فنقول باختصار :

إن الله سبحانه وتعالى ذكر لنفسه في كتابه وذكر له رسوله الكريم فيما نقل عنه في الاحاديث الصحيحة صفات تتفق من حيث الاسماء فقط مع صفات المخلوقين فذكر عن نفسه في كتابه أن له سبحانه وتعالى وجهاً وعيناً ويدين فقال تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقال : (ولتصنع

على عيني) وقال : « بل يداه مبسوطتان » وذكر له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من هذه الصفات الاصبع والاصابع كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو وحديث جهنم عندما تطلب المزيد . فيضع الجبار قدمه فيها فتقول قط قط وفي رواية : قطني قطني .

ولا بد قبل تبسيط الكلام في هذه المسألة من تقرير قاعدتين اثنتين ، يجعلهما الباحث في هذا الموضوع نصب عينيه ، كلما مر على ذكر صفة من صفات الباري سواء أكانت صفة ذات أو صفة معنى ، وهاتان القاعدتان هما :

١ ــ ما روي عن إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه عندما سئل عن معنى « الرحمن على العرش استوى » فقال جوابه المشهور : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

٢ ــ من المعلوم البدهي : أن الصفات تتبع الذوات وتختلف باختلافها ، فالانسان والحيوان والجماد والمعاني ذوات ولكل ذات منها صفات تلائمها ، مثاله تقول : وجه الانسان وجه الغزال ، وجه السماء ، وجه المسألة ، فالانسان والغزال والسماء والمسألة ذوات ، ولكنها مختلفة الذوات فوجب أن تختلف صفاتها ، فوجه الانسان لا يشابه وجه الغزال ووجه

السماء لا يشبه وجه المسألة . فإذا تقرر أن الصفات تتبع الذوات وتختلف باختلافها ؛ فان كانت الذات معلومة كالانسان والحيوان كانت الصفات معلومة وإن كانت الذات ـ معنى ـ كالمسألة ؛ كانت الصفات تابعة لها ، فوجهها معنى لا يدرك بالحواس الظاهرة .

وإيضاحاً للقاعدة الثانية إليك ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث يقول : ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الاسماء . أي : ان في الآخرة طعاماً وشراباً ولباساً وفاكهة مختلفة وأطياراًوأنهاراً الى غير ذلك.فتتفق تلك مع مثيلات لها في الدنيا في الاسم فقط . أما حقيقتها فلا تعلم لأنها لا تزال مجهولة لأننا لما نلابسها الآن ولم نذقها بعد ؛ فطعام أهل الدنيا وشرابها ولباسها معروف مصيره ، أما طعام وشراب ولباس ونكاح الآخرة لا تزال كيفيته مجهولة وبعد :

فاذا تقرر لديك ذلك نقول : إننا نؤمن بوجود الله ، إله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأن ذات الله مجهولة لدينا وقد أمرنا أن نتفكر في آلاء الله ، ونهينا عن أن نتفكر في ذات الله ، كما صح عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا كانت الذات الإلهية مجهولة لدينا فكذلك كيفية صفاتها مجهولة لدينا ، فنحن نؤمن بكل

ما ورد في صفات الله سواء أكانت بكتاب الله عز وجل أم بما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلا كيف ، وتؤمن بما ورد وصح من المغيبات كالعرش والكرسي ، وسدرة المنتهى والحجب ونؤمن بصفات الرب سبحانه وتعالى الذاتية كالوجه والعين واليد والقدم ؛ وصفاته المعنوية كالسمع والبصر والقدرة والعلم والحياة والرحمة والحلم والغضب ولكن بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه .

ولا ننفي عنه سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه من صفات ؛ كما فعلت المعتزلة والمعطلة القائلة : عليم بلا علم ، سميع بلا سمع ؛ بصير بلا بصر . ولا نقول : إن هذه الصفات مجاز لا حقيقة ، فنجعله ــ أستغفر الله ــ عدماً ؛ ولا نقول : ان هذه الصفات صفات حقيقية كصفات المخلوقين أي وجه كوجهنا ويد كيدنا وعين كعيننا فنجعله صنماً . فهذا ما فهمته ويفهمه كل من قرأ كتبه (١) بتمعن وروية ونزاهة وهو ما كان يعتقده سلف هذه الامة الذين هم خير البشر .

وفي تقديري أن هذا كاف لكل منصف طالب للحقيقة ، أما الذين فطروا على الجدل والمراء لو أتيتهم بكل آية ما تبعوا

---

(١) الضمير يعود لابن القيم .

رأي أحد ، لأن أهواءهم سيطرت على عقولهم فلا يرون الحقيقة الناصعة إلا من خلال الأهواء والاغراض .

عودة الى ابن القيم ليأخذ بأيدينا الى بلاد الافراح في كتابه حادي الارواح :

بعد أن أثبت وجود الجنة الآن ذكر اختلاف العلماء في الجنة التي أسكنها الله آدم عليه السلام ، هل هي جنة الخلد أم جنة أخرى ، ثم ذكر حجج من قال إنها جنة الخلد ، ودليلهم ما جاء في قصة آدم وإخراجه من الجنة . كما وردت في سورة البقرة ، قال تعالى : « وإذ قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة الى الارض من وجهين : أحدهما : من لفظة اهبطوا فانه نزول من علو الى سفل والثاني: قوله : ولكم في الارض مستقر عقب قوله : «اهبطوا» فدل ذلك على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الارض ، ثم أكد ذلك بقوله في سورة الاعراف : « قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » ولو كانت الجنة في الارض لكانت حياتهم فيها قبل الاخراج وبعده .

قالوا : وقد وصف الله سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال « إن لـك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وهذا لايكون في الدنيا أصلا .

ثانيا ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تعالـى الناس فيقـوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم مـن الجنة إلا خطيئة أبيكم » وما جـاء في الصحيحين من حديث احتجاج آدم وموسى وقول موسى أخرجتنا ونفسك من الجنة » .

وقالوا : الجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله : « اسكن أنت وزوجك الجنة » ونظائره، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها الا جنة الخلد التي وعد الرحمن عبـاده بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة ، ولا يرد علينا قوله تعالى : « انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » فانها وان جاءت هنا معرفة لكنها مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الارض .

ثم ذكر حجج القائلين انها ليست جنة الخلد وانما هي جنة في الارض فقال : هذا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به فنذكر بعضها قالوا قد اخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله أن جنة

الخلد انما يكون الدخول اليها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها بعد ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله سبحانه وتعالى شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفه بها ، قالوا : وجدنا الله تعالى وصف الجنة التي اعدت للمتقين بأنها دار المقامة فمن دخلها أقام بها ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها .

ووصفها بأنها جنة الخلد وآدم لم يخلد فيها .

ووصفها بأنها دار ثواب وجزاء لا دار تكليف وأمر ونهي .

ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان وقد ابتلي آدم فيها بأعظم الابتلاء .

ووصفها بأنها دار لا يعصى الله فيها أبدا ، وقد عصى آدم ربه في جنته التي دخلها .

ووصفها بأنها ليست دار خوف ولا حزن وقد حصل للأبوين فيها من الخوف والحزن ما حصل .

وسماها دار السلام ولم يسلم فيها الابوان من الفتنة ودار القرار ، ولم يستقرا فيها .

وقال في داخليها : « وما هم منها بمخرجين » وقد أخرج الابوان منها .

وقال «لا يمسهم فيها نصب» ، وقد ند فيها آدم هارباً فاراً وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه .

وأخيراً : إنه لا لغو فيها ولا تأثيم ، وقد سمع فيها آدم لغو ابليس واثمــه .

وقالوا : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم عليــه السلام نام في جنته ، وجنة الخلــد لا نوم فيهــا بالنص واجماع المسلمين ، فان النبي صلى الله عليه وسلم سئل « أينام أهل الجنة في الجنة ؟ قال : لا ، النوم أخو الموت والنوم وفاة » وقد نطق به القرآن ، والوفاة تقلب حال، ودار السلام مسلمة من تقلب الاحوال ، والنائم ميت أو كالميت .

وقالوا : لا نزاع ان اللــه سبحانه وتعالى خلــق آدم في الارض ، ولم يذكر في موضع واحد أنه نقله الى السماء بعــد ذلك ولو كان نقله بعد ذلك الى السماء لكان هذا أولى بالذكر، لأنه من أعظم الآيات ، ومن أعظم النعم ، وقد أخبر ملائكته أنه جاعله في الارض خليفة .

قالوا : ولو لم يكن معنا فيالمسألة إلا أن الله سبحانهأهبط ابليس من السماء حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام ـ وهذا أمر تكوين لا يمكن وقوع خلافه ـ ثم ادخل آدم عليــه السلام الجنة بعد هذا ، فان الامر بالسجود كان عقب خلقه من غير فصل فلو كانت الجنة فوق السموات لم يكن لابليس سبيل الى صعوده اليها وقد أهبط منها .

ثم قال : وأما تلك التقاديرالتي قدرتموها فتكلفات ظاهرة كقول من قال : يجوز أن يصعد اليها صعودا عارضا لا مستقرا

وقول من قال : أدخلته الحية ٠

وقول من قال : دخل في أجوافها ٠

وقول من قال : يجوز أن تصل وسوسته اليهما وهو في الارض وهما فوق السماء ٠

ولا يخفى ما في ذلك من التعسف والتكلف البعيد وهذا بخلاف قولنا فانه سبحانه لما أهبطه من ملكوت السماء حيث لم يسجد لآدم عليه السلام ، اشرب عداوته فلما أسكنه جنتهحسده عدوه وسعى بكيده وغروره في اخراجه منها ، والله أعلم ٠

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله جواب أرباب هذا القول لاصحاب القول الاول وفنده فقرة فقرة بما يربو على عشر صفحات ٠

وانه ليأخذك العجب عندما تقرأ لهذا الحبر العظيم تقرير مسألة ما ـ قبل اطلاعك على عنوانها ـ تعتقد أن ما يقوله الحق كل الحق ولا يمكن لاحد الرد عليه فاذا ما أشبع المسألة أدلة وحججا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وما ذكره أئمة هذا الشأن أخذ بسرد أقوال النافين لها

ان كانت المسألة مسألة اثبات أو اخذ بسرد المثبتين لها ان كانت المسألة مسألة نفي ، يشرع بالرد عليها وتفنيدها وتأويل الآيات وتفسيرها بما ورد لها من نظائر في القرآن الكـــريم وتفسيرها حسب قواعد اللغةوما يقتضيهالمقام، من شرح المجمل وتخصيص العموم ، وتعميم المخصص ؛ بالاضافة الى شرح ما ورد فيها من معاني الحديث الشريف ، وتفنيد الاحاديث الواردة في الباب من حيث السند أو المتن ، وما قاله علماء الحديث من تجريح بعض الرواة وذكر درجة الحديث ومصدره ؛ وما قيل في المسألة من أدلة عقلية ونقلية . فانه يورد في بعض الاحايين علـــى صحة ما يذكر نيفاً وأربعين حجة ووجها [١] ؛ ثم بعد ذلك ترى أن ايراده للمسألة من الوجهة الثانية ــ سواء بالنفي أو الاثبات ــ أصح وأقوى مما سبق ان ذكره ، وبعد هذا وذاك يورد قوله الفصل وهو مما يفتح الله به عليه في المسألةويرجح أحد القولين ترجيحا

---

(١) على سبيل المثال انظر ما ذكر في «مفتاح دار السعادة» ج ٢ ص ٤٥ ــ ٩٦ ترَ أنـــه بعـــد ان ذكـــر الاصـــول التي بنـــى عليها القائلون في التحسين والتقبيح العقليين ذكر قول مـــن قال إن للفعل حسنا أو قبحا بمعنى الملاءمة ثم ذكـــر واحدا وأربعين وجها على ابطال تلك المزاعم .

لا يتطرق اليه الشك أو الطعن ، وعنده يثبت لديك أنه أوتي من العلم الإلهي والفتح الرباني ما أغلق على غيره من أكابر العلماء [1].

---

(١) وهذا يذكرنا بقصة احد المحامين المشهورين عندما كان يدافع عن موكله ويورد الادلة على صحة دعواه بقوله : « فهذه قضية حق لأنها تعتمد اولا على المادة كذا من قانون كذا وثانيا . وثالثا ورابعا و وعاشرا ، وكان موكله يصغي اليه فرأى ان هذه الادلة تدينه وهي حجج لخصمه فاقترب منه وقال هامساً : يا سيدي هذه الادلة تثبت الحق للخصم وهي كلها ضد مصلحتي فتنحنح المحامي القدير ثم قال : هذا كل مايمكن للخصم أن يقوله من حجج وبراهين على ما سوف يدعيه . فأما المسألة الاولى فجوابها كذا وكذا واما المسألة الثانية فباطلة لكذا وكذا . وهكذا أخذ يفند ما ذكر من حجج وبراهين ، » مع الفارق بين هدف المحامي والغاية التي يرمي اليها شيخ الاسلام ابن القيم .

ابتداء المسير الى دار الأفراح :

ولنبدأ مع شيخ الاسلام يصف لنا الطريق الى دار الافراح مرحلة فمرحلة فبدأ في المرحلة الاولى عندما يوضع العبد في قبره ويتولى عنه أصحابه فروى ما جـاء في المسند ومستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان وغيرهم من حديث البراء بن عازب قال «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار ... فذكر الحديث بطوله وفيه ... فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً الى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها » .

وفي الصحيحين من حديث انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم ، قال : فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله . قال فيقولان له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا في الجنة ، فيراهما جميعا ، وفي صحيح ابن عوانه الاسفرابيني وسنن أبي داود من

حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح : « ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال هذا كان منزلك لو عصيت الله تعالى ابدلك به هذا فاذا رأى ما في الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كيما أرجع الى أهلي ومالي فيقال اسكن » .

فاذا ما حشروا وحوسبوا ذهبوا لدخول الجنة كما قال سبحانه : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فانظر ما في سوقهم الى الجنة زمرا ، وهم فرحون باخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل ، متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض » فاذا ما أقبلوا عليها وجدوا لها ثمانية أبواب كما في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في الجنة ثمانية أبواب : باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنفق زوجين في شيء من الاشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة ، دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل

الجهاد ، دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة ، دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ».

وروى أبو الشيخ قال : لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب : فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة ، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين . وباب فيما بينه وبين أهل النار يفتحه اذا جاء ينظر اليهم لتعظم النعمة عليه ، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه على ربه اذا شاء .

وروى البزار عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض ، ثم قرأ (حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها) اذا هم عندها بشجرة في أصلها عينان تجريان فشربون من احداهما فلا تترك في بطونهم قذى ولا أذى الا رمته ويغتسلون من الاخرى فتجري عليهم نضرة النعيم فلا تشعث رؤوسهم ، ولا تغير ابشارهم بعد هذا أبدا ، ثم قرأ :(طبتم فادخلوها خالدين) فيدخل الرجل وهو يعرف منزله ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برؤيتهم كما يستبشر الاهل بالحميم يقدم من الغيبة ، فينطلقون الى أزواجهم فيخبرونهم بمعاينتهم فتقول أنت رأيته ؟ فيقوم الى الباب فيدخل الى بيته فيتكىء على سريره فينظر الى أساس بيته فاذا هو قد أسس

على اللؤلؤ ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر ثم يرفع رأسه الى سماء بيته فلولا انه خلق له لالتمع بصره [1]

فيقول : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله •

وروى الامام أحمد في مسنده « مفتاح الجنة شهادة أن لا اله الا الله » وفي الصحيحين عن وهب بن منبه انه قيل له أليس مفتاح الجنة لا اله الا الله ؟ قال بلى ، ولكن ليس من مفتاح الا وله أسنان فان أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك والا لم يفتح وروى أبو الشيخ عن يزيد بن سخبرة قال : ان السيوف مفاتيح الجنة •

ثم ذكر للجنةعدة أسماءباعتبار صفاتها ومعانيهاواشتقاقاتها فقال : ان للجنة أسماء عدة وذلك باعتبار صفاتها ومعانيها واشتقاقاتها ومسماها ، واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من هذه الوجه ، وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه ، وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى وأسماء كتابه وأسماء رسله وأسماء اليوم الآخر فالاسم الاول : الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من النعيم

---

(١) اي اختطف .

واللذة والبهجة والسرور وقـرة الاعين ، الاسم الثـاني : دار السلام وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله : « دار السلام عند ربهم » و « والله يدعو الى دار السلام » وهي أحق بهذا الاسم فانها دار السلام من كل بلية وآفـة ومكروه ، وهـي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام .

الاسم الثالث:دار الخلد،وسميت بذلك لأنأهلها لايظعنون عنها أبدا ،قال تعالى : « عطاء غير مجذوذ » وقال : « ان هـذا لرزقنا ماله من نفاذ » وقال : « أكلها دائم وظلها » وقال : « وما هم منها بمخرجين » .

الاسم الرابع : دار المقامة ، قال تعالى حكاية عـن أهلها : وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنـا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يسمنا فيها نصب ... »

الاسم الخامس : جنة المأوى ، قـال تعالى : « عندها جنة المأوى » روى عطاء عن ابن عباس : هي الجنة التي يأوي اليهـا جبريل والملائكة ، وقـال مقاتل والكلبي : هي جنة تأوي اليها أرواح الشهداء .

السادس : جنات عدن ، قـال تعالى : « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب » وقال تعالى : « جنات عدن يدخلونها

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » وقال تعالى « ومساكن طيبة في جنات عدن » ٠

السابع : دار الحيوان ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي الحيوان » قال : ان تفسيرها يحتمل معنيين : أحدهما : ان حياة الآخرة هي الحياة لانها لا تنغيص فيها ، ولا نفاذ ، الثاني : انها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد ٠

الثامن : الفردوس ، قال تعالى : «أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » وقال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها » والفردوس : البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين ٠

التاسع : جنات النعيم ، قال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » ٠

العاشر : المقام الأمين ، قال تعالى : « إن المتقين في مقام أمين ٠

الحادي عشر : مقعد صدق ٠ وقدم صدق قال تعالى : « إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر » اهـ ملخصا من ص ٧٦ ٠

فصل

فاذا جمع المؤمنون : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم باب الجنة فيستفتح فيقول الخازن من أنت فيقول محمد فيقول : بك آمرت آن لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا أول من يفتح باب الجنة الا أن امرأة تبادرني فأقول: مالك ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على يتامى »[1]

فصل

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن السابقون الاولون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وزاد مسلم : « ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم اوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فاختلفوا ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » فهذه الامة أسبق الامم خروجا من الارض وأسبقهم الى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم الى ظل العرش ، وأسبقهم الى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم الى الجواز على الصراط ، وأسبقهم الى دخول الجنة ، فالجنة

(١) حادي الارواح ص ٨٣ .

محرمة على الانبياء حتى يدخلها محمد صلى الله عليه وسلم ، ومحرمة على الامم حتى تدخلها أمته » وأما أول الناس دخولا الجنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » ، فقال أبو بكر يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر اليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما انك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » فأبو بكر هو أول الناس دخولا الجنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما ما رواه الامام أحمد والترمذي وصححه من حديث بريدة بن الحصيب قال : « أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بلالا فقال : يابلال بم سبقتني الى الجنة ؟ فما دخلت الجنة قط الا سمعت خشخشتك أمامي فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لرجل من امة محمد ، قلت أنا محمد لمن هذا القصر قالوا لعمر بن الخطاب فقال بلال يارسول الله ما أذنت قط الا وصليت ركعتين ، وما أصابني حدث قط الا توضأت عندها ، ورأيت أن لله علي ركعتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فبذلك »

قال الامام ابن القيم رحمه الله : تتلقاه بالقبول والتصديق ، ولا يدل على أن أحدا يسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجنة ، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة فلأن بلالا كان يدعو الى الله أولا بالاذان فيتقدم أذانه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم وقد روي في حديث «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالاذان » فتقدمه بين يديه صلى الله عليه وسلم كرامة لرسوله ، واظهارا لشرفه وفضله، لا سبقا من بلال ، بل هذا السبق من جنس سبقه الى الوضوء ودخول المسجد ونحوه والله أعلم [1] .

أقول : ليس المراد من الحديث أن كل من عمل عمل بلال له مالبلال من الاسبقية الى الجنة ، وكن ـ والله أعلم ـ أن المراد من ذلك حث المؤمنين ليعملوا عمل بلال من المداومة على الطهور والمبادرة له اذا ما أحدث المرء، والمبادرة للصلاة عقب الوضوء ولو ركعتين خفيفتين ، وهكذا اذا ما ورد حديث بهذا المعنى فالغاية منه المسارعة للطاعة تشبها بعمل الصالحين ، ومثله ما ورد في دخول فقراء هذه الامة الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم أي خمسمائة عام (كما في مسند أحمد) أو أربعين خريفا كما رواه الترمذي [1] .

(١) حادي الارواح ص ٨٦ .

أقول : لئن كان النبي سبباً في منع الاغنياء من دخول الجنة في بعض الشرائع المحرفة أو الوضعية ، فلم يكن يوما في شريعتنا سبباً في عدم دخول الاغنياء الجنة أو تأخرهم عن دخولها، ولكن لما كان أكثر الاغنياء يسرفون في ملاذهم ، وتلهيهم زخارف الحياة الدنيا ، فينسون عاقبة أمرهم كان للكل حكم الاكثرية ، وأيضا فليس كل الفقراء يسبقون الاغنياء الى دخول الجنة ولكن لما كان أكثر الفقراء يمنعهم فقرهم من التمتع بملاذ الحياة الدنيا كان للكل حكم الاكثرية ، وقد سبق للامام ابن القيم أن فصل ذلك بكتابه عدة الصابرين كما مر معنا في هذا الكتاب [١]

وكيف يكون هذا وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « كاد الفقر أن يكون كفرا » [١] وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شر الفقر كما يستعيذ بالله من الكفر، والآن لنصغ الى الامام ابن القيم يحدثنا عن الاسباب الموجبة لدخول الجنة ، وما أعد الله فيها لمستحقيها ، وذكر أصناف أهل الجنة الذين ضمنت لهم دون غيرهم حيث يقول :

قال تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله

(١) اخرجه أبو نعيم في « الحلية » والبيهقي في « الشعب » وغيرهما وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف .

يحب المحسنين ، والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

« فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للاحسان في حالة اليسر والعسر والشدة ، والرخاء فان من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء ، ولا يبذل في حال العسر والشدة ، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم وحبس الانتقام بالعفو ، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم ، في ذنوبهم وأنها اذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار ، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه (١) » .

ثم ذكر زمرة من الخلق يدخلون الجنة بغير حساب فقال :

« روى مسلم من حديث حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : « أيكم الذي رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما اني لم أكن في

---

(١) حادي الارواح ص ٨٨ .

صلاة ولكني لدغت ، قال فما صنعت ؟ قلت استرقيت قال : فما حملك على ذلك ، قلت حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب الاسلمي أنه قال : «لارقية الا من عين أو رحمة» فقال: قد احسن من انتهى الى ما سمع، ولكن حدثنا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عرضت عليّ الامم فرأيت النبي ومعه الرُهيط، والنبي ومعه الرجل ، والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، ورفع اليّ سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر الى الافق، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه امتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا اشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه فقال: هم الذين لا يَرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن ، فقال : إدع الله أن يجعلني منهم ، فقال : أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة » (١) .

(١) حادي الارواح ص ٩٥ .

وهذه الجنة التي وعدها المتقون يصفها رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فيقول : في حديث ابن عمر : « من يدخل الجنة يحيا لا يموت ، وينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، .. بناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وبلاطها مسك اذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران » وقال صلى الله عليه وسلم : « أرض الجنــة بيضاء عرصتها صخور الكافور ، وقد احاط بها المسك مثل كثبان الرمل ، فيها انهـار مطردة فيجتمع فيها اهل الجنة أذناهم وآخرهم فيتعارفون فيبعث اللـه ريح الرحمة ، فتهيج عليهم ريح المسك فيرجع الرجل الى زوجته وقد زاد حسنا وطيبا فتقول : لقد خرجت من عندي وأنا بك معجبة وأنا بك الآن أشد اعجابا »[1] .

وفي حديث أسامة بن زيد قال : قال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم : « الاهل مشمر للجنــة ، فان الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة ، في محلة عالية بهية » ، قال تعالى : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) فأخبر أنها غرف فوق غرف وأنها مبنية بناءً حقيقة لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل .

---

(١) حادي الارواح ص ١٠٠ .

معرفة أهل الجنة لمنازلهم :

قال تعالى (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وفي الصحيحين ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة والذي نفسي بيده ، لأحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا » .

وقال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا) وقال تعالى : (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) وقد سأل الامام علي كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال : « والذي نفسي بيده انهم اذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها اجنحة عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر وينتهون الى باب الجنة فاذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح

الذهب ، واذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فاذا شربوا من احداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم ، واذا توضؤوا من الاخرى لم تشعث اشعارهم أبدا ، فيضربون الحلقة بالصفيحة ــ فلو سمعت طنين الحلقة ــ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد اقبل ، فتستخفها العجلة فتبعث قيمها ، فيفتح له الباب فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا ، مما يرى من النور والبهاء فيقول انا قيمك الذي وكلت بأمرك . فيتبعه فيقفو اثره فيأتي زوجته فتسخفها العجلة ، فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبي وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا . وأنا الناعمة فلا أبأس أبدا ، والخالدة فلا اظعن أبدا ، فيدخل بيتا من أساسه الى سقفه مائة ذراع مبني على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر ، وطرائق خضر ، وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها ، فيأتي الاريكة فاذا عليها سرير على السرير سبعون فراشا ، عليها سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من باطن الجلد ، يقضي جماعهن في مقدار ليلة ، تجري تحتها انهار مطردة ، انها من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمرة لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، لم يخرج من بطون الماشية ، فاذا اشتهوا الطعام ، جاءتهم طيور بيض ، فترفع اجنحتها فيأكلون من

جنوبها ، من أي الالوان شاؤوا ، ثم تطير فتذهب ؛ فيها ثمار متدلية اذا اشتهوها انشعب الغصن اليهم ، فيأكلون من اي الثمار شاؤوا، ان شاء قائما وان شاء متكئاً، وذلك قوله عز وجل (وجنى الجنتين دان) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ » (١) .

وروى ابن المبارك عن حميد بن هلال قال : « ذكر لنا ان الرجل اذا دخل الجنة صور صورة اهل الجنة ، والبس لباسهم ، وحلي حليهم وأري أزواجه وخدمه ويأخذه سوار فرح (٢) لو كان ينبغي أن يموت لمات من سوار فرحه ، فيقال له أرأيت سوار فرحتك هذه ، فانها قائمة لك أبدا » وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليدخلن الجنة من امتي سبعون الفا او سبعمائة الف متماسكون آخذ بعضهم ببعض لايدخل اولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صور القمر ليلة البدر » (٣) .

فيبعث اهل الجنة على صورة آدم ، في ميلاد ثلاث وثلاثين

---

(١) حادي الارواح ص ١٠٧ .
(٢) يقال : اخذه سوار الفرح ، السوار بالضم دبيب الشراب في الراس ، اي ذب فيه الفرح دبيب الشراب . النهاية
(٣) حادي الارواح ص ١٠٩ .

سنة ، جردا مردا مكحلين ثم يذهب بهـم الى شجرة في الجنـة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم .

وأعلى اهل الجنة منزلة سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه ، ففي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص انه سمع النبـي صلى اللـه عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلـة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هـو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » .

وفي صحيح مسلم ايضا من حديث المغيرة بن شعبة ، عـن النبي صلى اللـه عليه وسلم : « ان موسى سأل ربه ما ادنـى اهل الجنة منزلة ؟ فقال رجل يجيىء بعد ما دخل اهل الجنـة الجنة . فيقال له ادخل الجنة ، فيقول : ربِ كيف وقـد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له اترضى ان يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت ربِ فيقول لـك ذلك ، ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت ربِ ، ... قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها فلم تر عين ولـم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » [1] .

(١) حادي الارواح ص ١١١ .

ريح الجنة : جاء في الصحيحين من حديث انس قال : « لم يشهد عمي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا ، قال فشق عليه ، قال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، فان اراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ، قال فهاب ان يقول غيرها ، قال فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ فقال له : أين ؟ فقال واها لريح الجنة اجده دون احد ، قال فقاتلهم حتى قتل ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت اخته ، عمة الربيع بن النضر ، فما عرفت اخي الا ببنانه ، ونزلت هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) قال الامام ابن القيم : وريح الجنة نوعان ، ريح يوجد في الدنيا تشمه الارواح أحياناً لا يدركه العباد ، وريح يدرك بحاسة الشم كما تشم روائح الازهار وغيرها ، وهذا يشترك اهل الجنة في ادراكه في الآخرة من قرب ومن بعد وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله ، وهذا الذي وجده أنس بن النضر ، يجوز أن يكون من هذا القسم ... والله اعلم » وريح الجنة يوجد من مسيرة الف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم »[1] .

---

(١) حادي الارواح ص ١١٥ .

الأذان الذي يؤذن به مؤذن الجنة فيهـا :

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينادي منادٍ ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فـلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، ونودوا ان تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون .

وفي صحيح مسلم أيضا عن صهيب رضي الله عنه عـن النبي صلى اللـه عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكـم عند اللـه موعداً ، فيقولون ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، وينجينا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون الى الله فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه ».

أشجارها وبساتينها وظلالها :

قال تعالى : « وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة » .

قال عبد الله بن المبارك : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل اعرابي يوما فقال يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هي ؟ قال : السدر فان له شوكاً مؤذياً ، قال : أليس الله يقول في سدر مخضود ؟ أخضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة .

أما الطلح فأكثر المفسرين قالوا إنه شجرة الموز ، ولهذا الشجر نور ورائحة ، وظل ظليل ، وقد نضد بالحمل ، والثمر مكان الشوك .

وعـن ابن عباس قال : « نخل الجنة جذوعها مـن زمرد أخضر ، وكربهـا [1] ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم • وتمرهـا امثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ليس فيها عجم » [2] •

وروى الامام احمد عن عتبة بن عبد السلمي قال : «جاء أعرابي الى النبي صلى اللـه عليه وسلم فسأله عن الحوض وذكر الجنة ثم قال الاعرابي : فيها فاكهة ؟ قال نعم ، وفيهـا شجرة تدعى طوبى فذكر شيئا لا أدري ما هو ؟ فقال أي شجر أرضنا تشبهه قال ليست تشبه شيئا من شجر أرضك ، فقـال النبي صلى اللـه عليه وسلم أتيت الشام ؟ قال : لا قال تشبه شجرة بالشام يقال لها الجوزة تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها ، قال ما عظم أصلها ؟ قال لو ارتحلت جذعة من ابل أهلك ، ما أحاطت بأصلها حتى تتكسر ترقوتها هرما . قـال فيها عنب ؟ قال نعم ، قال فما عظم العنقود ؟ قـال : مسير شهر للغراب لا يقع ولا يفتر ، قال فما عظم الحبة ؟ قال هل ذبح

---

(١) قوله : كربها هو ما يبقى من أصول السعف في النخلة بعد القطع كالمراقي .

(٢) عجم أي نوى أو بذر .

أبوك تيسا من غنمه قط عظيما ؛ قال نعم قال فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، وقال لها اتخذي لنا منه دلواً قال : نعم ؛ قال الاعرابي : فان تلك الحبة لتشبعني أنا وأهل بيتي ، قال : نعم وعامة عشيرتك .

وروى مجاهد قال : أرض الجنة من ورق ، وترابها مسك ؛ وأصول أشجارها ذهب ، وورق أفنانها لؤلؤ وزبرجد وياقوت والورق والثمر تحت ذلك ؛ فمن أكل قائما لم يؤذه ، ومن أكل جالسا لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه ؛ وذللت قطوفها تذليلا .

وروى جرير بن عبد الله قال : نزلنا الصفاح ، فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ؛ قال فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله ؛ فلما استيقظ إذا هو سلمان فأتيته اسلم عليه فقال : ياجرير ! تواضع لله فان من تواضع لله رفعه يوم القيامة يا جرير هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدري قال ظلم الناس بينهم ؛ ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه بين اصبعيه ، فقال : ياجرير اذا طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده ، قلت ياعبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر [1] .

---

(١) حادي الارواح ص ١٢٢ .

أما ثمارها وتعداد أنواعها وصفاتها وريحانها :

قال تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون)

قال الامام ابن القيم : « معناه أنه يشبه بعضه بعضا ، ليس أوله خيرا من آخره ، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك ، بل أوله مثل آخره وآخره مثل أولهوهو خيار كله يشبه بعضه بعضا . »

وفي حديث لمسلم عن جابر قال : « بينما نحن في صلاة الظهر اذ تقدم رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبيّ ابن كعب يا رسول الله صنعت اليوم في صلاتك شيئا ما كنت

تصنعه،قال : انه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ، ولو أتيتكم به لاكل منه من بين السماء والارض » •

زرع أهل الجنة :

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث يوما وعنده رجل من أهل البادية ، قال : إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه عز وجل في الزرع فقال له : أولست فيما اشتهيت ؟ فقال : بلى ،ولكني أحب ان ازرع ، فأسرع وبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله عز وجل دونك يا ابن آدم فانه لا يشبعك شيء ، فقال الاعرابي : يارسول الله لا نجد هذا الا قرشيا أو أنصاريا فانهم أصحاب زرع ، فأما نحن فلسنا باصحاب زرع ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم »

أنهار الجنة وعيونها وأصنافها ومجراها :

قال تعالى في مواضع عدة من القرآن الكريم : (جنات تجري من تحتها الانهار) (تجري تحتها الانهار) (تجري من تحتهم الانهار) وقال تعالى (فيهما عينان نضاختان) قال سعيد ـ وأظنه ابن المسيب ـ : (نضاختان بالماء والفواكه) وقال

أنس « نضاختان بالمسك والعنبر ، ينضخان على أهل الجنة كما ينضخ المطر على أهل الدنيا » .

وقال تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم »

قال الامام ابن القيم : ذكر الله سبحانه هذه الاجناس الاربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، وآفة اللبن أن يتغير طعمهالى الحموضة وأن يصير قارصا ، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، وآفة العسل عدم تصفيته .

وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري انهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا باجرائها ، ويجريها في غير اخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها ، كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا فتنال العقل ، ويكثر اللغو على شربها ، بل لا يطيب لشرابها ذلك الا باللغو وتنزف في نفسها وتنزف المال ، وتصدع الرأس ، وهي كريهة المذاق ، وهي رجس من عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وتصد

عن ذكر اللـه وعـن الصلاة .... وقد أطـال رحمه اللـه بذكر مفاسدها ومضارها ونتائج شربها ، ثم قال : « فهي جماع الاثم ، ومفتاح الشر ، وسلابة النعم ، وجلابة النقم ، ولو لـم يكن من رذائلها إلا أنها لاتجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنه صلى الـه عليه وسلم أنه قال : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة » لكفى .

أقول : (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل اللـه سيئاتهم حسنات وكان اللـه غفورا رحيما)

وأنهار الجنة تتفجر من أعلاها ، ثم تنحدر نازلة الى أقصى درجاتها ، كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى اللـه عليه وسلم قـال : (إن في الجنـة مائة درجة أعدها اللـه للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والارض ، فاذا سألتم اللـه فأسألوه الفردوس ، فانه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تنفجر أنهار الجنة)[1] .

أما العيون فقد قال تعالى « ان المتقين في جنات وعيون » « ان الابرار يشربون مـن كأس كان مزاجها كافورا ، عينـا يشرب بها عباد اللـه يفجرونها تفجيرا » وقال تعالى :

---

(1) حادي الارواح ص ١٢٩

« ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا » وقال تعالى « ان الابرار لفي نعيم ، على الارائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون »

طعامهم ومشربهم ومصرفه :

قال تعالى : « ان المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » وقال تعالى « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الايام الخالية » وقال تعالى : « تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة ، منها تأكلون » وقال تعالى : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم » وفي المسند وسنن النسائي عن زيد بن أرقم قال : (جاء رجل من أهل الكتاب الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ، قال نعم والذي نفس محمد بيده ، إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل ، في الاكل والشرب والجماع والشهوة ، قال : فإن الذي

يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى ، قال تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كرشح المسك، فيضمر بطنه »[1] .

تحقيق علمي طريف :

أقول لما كان أمثال هذا الكتابي ـ الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم مسألة احراج في زعمه ـ كثيرين في كل زمان لا سيما في زمن طغت فيه المادة على الروح طغيانا لم يشهد العالم له مثيلا ، كان من اللازم أن يبرهن الامام ابن القيم على صحة ما ذكره لمثل هؤلاء الملحدين ببراهين مادية لا تخلو من نزعة روحية ايمانية فقال : فالاطعمة والجلوس والتجمر تستدعي أسبابا تتم بها ، والله خالق السبب والمسبب وهو رب كل شيء ومليكه لا اله الا هو ، وكذلك جعل الله لهم ـ لاهل الجنة ـ سبحانه أسباب تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم فهذا سبب اخراجه ، وذاك سبب انضاجه ، وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة مايطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحا وجشاء .

وكذلك ما هنالك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها ويجعل سبحانه أوراق الشجر ظلالها ، فرب

---

(1) حادي الارواح ص ١٣٤ .

الدنيا والآخرة واحد ، والاسباب مظهر أفعاله وحكمته ، ولكنها تختلف ولهذا يقع التعجب من العبد لورود افعاله سبحانه على أسباب غير الاسباب المعهودة المألوفة وربما حمله ذلك على الانكار والكفر وذلك محض الجهل والظلم ، والا فليست قدرته سبحانه وتعالى مقصرة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لاتقتصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته ، وليس هذا بأهون عليه من ذلك ولعل النشأة الاولى التي أنشأها الرب سبحانه وتعالى فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية التي وعدنا بها اذا تأملها اللبيب .

ولعل اخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها ، أعجب عند العقل من اخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها ، ولعل اخراج هذه الاشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب ، أعجب من اجرائها أنهارا في الجنة بأسباب اخرى ، ولعل اخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها ، أعجب من انشائهما هناك من أسباب أخر ، ولعل اخراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها على انفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء ، أعجب من اخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشىء منها ، ولعل جريان بخار الماء بين السماء

والارض علـى ظهور السحاب أعجب مـن جريانها في الجنـة بغير اخدود .

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده الى التفكر فيها وجعلها آيات دالة علـى كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية ، ثم وازن بينهـا وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار ، تجد هذه أدل شيء على تلك وشاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد فبعداً لقوم لا يؤمنون »

آنيتهم التي يأكلون فيها ويشربون وأجناسها وصفاتها :

قال الله تعالى : «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب» وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري أن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان مـن ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم علـى أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلـون ، أمشاطهم

الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد علـى صورة أبيهم آدم » •

أما لباسهم وحليهم ومناديلهم وبسطهم ووسائدهم ونمارقهم وزرابيهم • قال تعالى : « إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون مـن سندس واستبرق متقابلين » (١) وقـال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك » •

ذكر الامام أحمد في مسنده عن ابن عمر قال : « جاء اعرابي حرمي، فقال : يا رسول الله أخبرنا عن الهجرة أإليك أينما كنت ؟ أم لقوم خاصة أم الى أرض معلومة ، إذا مت انقطعت ، فسأل ثلاث مرات ثم جلس فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيراً ثم قال : أين السائل ؟ فقال ها هو ذا يا رسول الله قال : الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، ثم أنت مهاجر وان مت بالحضر ، فقام آخر فقال

(١) الدخان الآية : ٥١–٥٣، وتمامها : «كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى، ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم » .

يا رسول الله أخبرني عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجاً ، قال فضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضحكون من جاهل يسأل عالماً !!! فاسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال : أين السائل عن ثياب أهل الجنة ؟ فقال ها هو ذا يا رسول الله ، قال : لا بل يشقق عنها ثمر الجنة » ثلاث مرات •

ملابسهم والتيجان على رؤوسهم :

ذكر البيهقي من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن فقام به آناء الليل ، وأطراف النهار ، ويحل حلاله ويحرم حرامه خلطه الله بلحمه ودمه وجعله رفيق السفرة الكرام البررة ، وإذا كان يوم القيامة كان القرآن له حجيجاً ، قال : ـ القرآن ـ يا رب كل عامل في الدنيا يأخذ بعمله من الدنيا إلا فلاناً كان يقوم في آناء الليل وأطراف النهار فيحل حلالي ويحرم حرامي يقول : يا رب فأعطه ، فيتوجه الله تاج الكرامة ويكسوه من حلة الكرامة ثم يقول ـ الله ـ هل رضيت ؟ فيقول يا رب أرغب له في أفضل من هذا • فيعطيه الله الملك بيمينه والخلد بشماله ثم يقول هل رضيت ؟ فيقول : نعم يا رب •

ذكر خيامهم وسررهم وأرائكهم :

قال تعالى : « حور مقصورات في الخيام » وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا ، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا .) وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الانهار .

أما الأرائك ، قال مجاهد عن ابن عباس : لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فاذا كان سريراً بغير حجلة لا يكون أريكة ، وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة ، ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة فاذا اجتمعا كانت أريكة . قال الامام ابن القيم : ها هنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير و (الثانية) الحجلة وهي البشخانة [1] التي تعلق فوق السرير و (الثالث) الفراش الذي على السرير ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذلك كله .

---

(١) قوله البشخانة : هي ما يسمى في عرف أهل الشام (الناموسية) أو (كلة) وهي تتخذ من قماش رقيق شفاف فوق السرير لتمنع البعوض والذباب ولا تمنع النور والهواء .

خدمهم وغلمانهم وأزواجهم :

قال تعالي : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) وقال تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا) • وهل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة انشاءاً •

فعن علي بن أبي طالب والحسن البصري هم أولاد المسلمين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم ، وقيل : هم أطفال المشركين فجعلهم الله خداماً لأهل الجنة لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدام أهل الجنة » والاشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون في الجنة كالحور العين فإن من تمام كرامة الله لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلمانا لهم •

أما الازواج وأصنافهن وحسنهن وجمالهن الظاهر والباطن الذي وصفهن الله تعالى في كتابه الكريم فقد قال الله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج

مطهرة وهم فيها خالدون » .

فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله اليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره .

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الانهار والثمار ، ونعيم النفس بالازواج المطهرة ، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه .

والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا فطهر مع ذلك باطنها من الاخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاءة وطهر طرفها من أن تطمح به الى غير زوجها وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ .

وقوله تعالى : (وزوجناهم بحور عين) .

والحور ، جمع حوراء وهي المرأة الحسناء الشابة الجميلة البيضاء شديدة سواد العين التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون واسعة العين مع صفاء بياضها وشدة سوادها .

وقال تعالى : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس

قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكـذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان » •

وقـال تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف عين » وقـال تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » قال مجاهد ـ شيخ المفسرين ـ قاصرات الطرف علـى أزواجهن فلا يرين غيرهم ما هن متبرجات ولا متطلعات قصرن أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهم فلا يرين غيرهم •

وقال تعالى في وصفهن : « حور مقصورات في الخيام » فاللـه سبحانـه وتعالى وصفهـن بصفات النساء المخـدرات المصونات ، مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ •

وقال تعالى : « فيهن خيرات حسان » فالخيرات جمـع خيْرة وهي من خيِّرة ، وفي الأثر : لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليهـا في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك لا تـرِحات ولا ذفرات ولا بخرات ولا طماحات » •

وروى الطبراني عن أم سلمة قالت : « قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل « حور عين » قال حور بيض ، عين ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قلت : أخبرني عن قوله عـز وجل « كأنهم لؤلؤ مكنون » قـال :

صفاؤهن صفاء الدر الـذي في الاصداف ، الذي لـم تمسه الايدي • قلت يا رسول اللـه أخبرني عن قوله عـز وجل : «فيهن خيرات حسان» قال : خيّرات الاخلاق ، حسان الوجوه، قلت يا رسول اللـه أخبرني عن قوله عز وجل : « كأنهن بيض مكنون » قال : رقتهن كرقة الجلد الذي رأيته في داخل البيضة مما يلي القشر ، وهو الغرقيء ، قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله عز وجل (عرباً أتراباً) قال هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً ، خلقهن الله بعـد الكبر فجعلهن عذارى • عرباً متعشقات متحببات ، أتراباً على ميلاد واحد » •

سماع أهـل الجنة :

قال الله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون • فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون » • الحبرة اللذة والسماع والإكرام • وروى الترمذي عـن علي قال : قال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم : « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لـم تسمع الخلائق بمثلها يقلن نحن الخالدات فـلا نبيد ، ونحن الناعمات فـلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا لـه » • وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط ، وان مما يغنين به نحن الخيرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقرة أعين » وعن ابن شهاب قال : « إن في الجنة لشجراً حمله اللؤلؤ والزبرجد تحته جوار ناهدات ، يتغنين بألوان . يقلن نحن الناعمات فلا نبأس . ونحن الخالدات فلا نموت ، فاذا سمع ذلك الشجر صفق بعضه بعضاً فأجبن الجواري ، فلا ندري أصوات الجواري أحسن أم أصوات الشجر »[1] .

قال الامام ابن القيم : ولهم سماع أعلى من هذا يضمحل دونه كل سماع وذلك حين يسمعون كلام الرب جل جلاله وخطابه ، وسلامه عليهم ، ومحاضرته لهم ، يقرأ عليهم كلامه . فإذا سمعوه منه فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك .

وروى ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار في قوله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » قال إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة . ثم نودي يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في دار الدنيا ، قال فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان .

وروي عن شهر بن حوشب قال : « إن الله جل ثناؤه يقول للملائكة : إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا

---

(1) حادي الارواح ص ١٨٢ .

فيدعونه من أجلي فاسمعوا عبادي . فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط .

وعن ابن عباس قال : « إن في الجنة شجرة على ساق ، قدر ما يسير الراكب في ظلها مائة عام . فيتحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم فيذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا » وعن سعيد الحارثي قال : حُدثت « أن في الجنة آجاماً من قصب من ذهب حملها اللؤلؤ فاذا اشتهى أهل الجنة أن يسمعوا صوتاً حسناً بعث الله على تلك الآجام ريحاً فتأتيهم بكل صوت يشتهونه » .

سوق أهل الجنة وما أعد الله فيه لأهلها :

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالا فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالا . فيقولون والله وأنتم لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالا » .

وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة عن سعيد بن المسيب قال : لقيت أبا هريرة فقال لي : أسأل الله أن يجمع

بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيها سوق ؟ قال نعم ، أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوها بفضل أعمالهم . فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة عن أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى فيبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، فيوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من ياقوت ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كثبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً ، قال أبو هريرة : وهل نرى ربنا عز وجل ؟ قال نعم هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا . قال فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد الا حاضره الله محاضرة حتى يقول : يا فلان بن فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا فيذكره ببعض غدراته في الدنيا فيقول بلى أفلم تغفر لي ، فيقول بلى فبمغفرتي بلغت منزلتك هذه ، قال فبينما هم على ذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، قال ثم يقول ربنا تبارك وتعالى : قوموا الى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم قال فيأتون سوقاً قد حفت بها الملائكة فيها ما لم تنظر العيون الى مثله ، ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ، قال فيحمل لنا ما اشتهينا

ليس يباع ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً ، فيقبل ذو البزة المرتفعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس والهيئة فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها . قال ثم ننصرف الى منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن : مرحباً وأهلا بحبنا لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فنقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار عز وجل وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » .

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة سوقاً ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل الصورة دخل فيها » .

وبعد : فطالما حاولت الاقتصار على ما ذكرت ونقلت من حداء شيخ الاسلام الامام ابن القيم لارواح المؤمنين يحدو بهم الى دار الافراح دار السرور المقيم في جوار رب العالمين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فيلوح لي عن قرب أحد معالم النور ، التي نصبها الله عز وجل في طريق أحبابه الى دار كرامته فأجدّ السير بك ياقارئي الكريم ، فان اشتقت الى تلك النعم ، ولذ لسمعك

(١) حادي الارواح ص ١٩٠ .

ذلك النغم ، فعليك بالرجوع الى الاصل الذي اخترت لك منه الصحيح الاصح من كتاب اللـه عز وجل وسنة النبي الاكرم صلى اللـه عليه وسلم ومما ورد في الصحاح والسنن والمسانيد فقد ذكر الامام ابن القيم في كتابه (حادي الارواح) كل ما يتعلق بالموضوع من آثار صحاح فلم يترك لقائل مقالا ولا لمتتبع مجالا أحاط بالموضوع احاطة السوار بالمعصم ، فذكر تكليم المولى عز وجل لاهل الجنة وخطابه لهم جمعا وفرادى وذكر محاضرته لهم ، وسلامه عليهم ، ودخولهم عليه ، وذكر ان نعيم الجنة أبدي ، وأن الجنة أبدية النعيم ، وأنها لاتفنى ولا تبيد ، ثم ذكر الخلاف في أبدية النار ودوامها وأورد حجج المثبتين والنافين ثم عقد فصلا ممتعا مقنعا وبين الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وهذا الفصل مما يعنى به المتكلمون والمناظرون المحاجون ، وهو مما ليس نحن بسبيله اذ ان سبيلنا في ذلك عرض ما استحسناه من أقواله ليكون للمطالع نورا يهتدي به في سيره الى اللـه عز وجل . وراحة له في دنياه ، وفوزا في اخراه ، ونحن نختم عرضنا لهذه الصور المنيرة ، والمشاهد المثيرة بما أورده في الباب التاسع والستين من كتابه وهو باب جامع لكثير من الشوارد الواردة في الموضوع .

فروى ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك عن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أنه قال : « يدخل أهل الجنة الجنة على

طول آدم ستين ذراعا بذراع الملك على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم جرد مرد مكحولون » وروي عن ابن عباس قال : لسان أهل الجنة عربي .

وفي احتجاج الجنة والنار :

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين . فقال الله عز وجل لهذه أنت عذابي اعذب بك من أشاء . وقال لهذه أنت رحمتي ارحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها » .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط ، بعزتك وكرمك . ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة » .

وعن جابر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل أينام أهل الجنة فقال : « النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون »

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي اللـه عنهما قال : قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : « لما خلق اللـه جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . وعن كعب قال : « ما نظر اللـه الى الجنة الا قـال : طيبي لاهلك فتزداد ضعفا حتى يدخلها أهلها » .

حكاية لطيفة : قال ابو سليمان الداراني : كان شـاب بالعراق يتعبد فخرج مع رفيق له الى مكة ، فكان ان نزلوا فهو يصلي ، وان أكلوا فهو صائم ، فصبر عليه رفيقه ذاهبا وجائيا فلما أراد أن يفارقه قال له ياأخي أخبرني ما الذي هيجك الى ما رأيت ؟ قال : رأيت في النوم قصرا من قصور الجنة واذا لبنة من فضة ولبنة من ذهب ، فلما تم البناء اذا شرافة من زبرجد ، وشرافة من ياقوت وبينهما حوراء من حور العين مرخية شعرها عليها ثوب من فضة ينثني معها كلما تثنت فقالت جد الى اللـه في طلبي فقد واللـه جددت اليه في طلبك ، فهذا الذي تراه في طلبها ، قال ابو سليمان هذا في طلب حوراء فكيف بمن طلب ما هو أكثر من ذلك [1] .

---

(١) حادي الارواح ص ٢٨٨ .

ذبح الموت بين الجنة والنار :

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي اللـه عنه قال : اذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار أتي بالموت ملببا فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا فيقول هؤلاء وهؤلاء ، قد عرفناه هو الموت الذي وكل بنا فيضجع فيذبح ذبحا على السور ثم يقال يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت وقال الترمذي حديث حسن صحيح •

قال الامام ابن القيم : وهذا الكبش والاضجاع والذبح ومعاينة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل ، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحا ، وقال : الموت عرض والعرض لا يتجسم ، فضلا عن أن يذبح ، وقال : وهذا لا يصح فان الله سبحانه ينشيء من الموت صورة كبش يذبح كما ينشيء من الاعمال صورا معاينة يثاب بها ويعاقب ، واللـه تعالى ينشيء من الاعراض أجساما تكون الاعراض مادة لها ، وينشيء من الاجسام أعراضا كما ينشيء سبحانه من الاعراض أعراضا ، ومن الاجسام أجساما ، فالاقسام الاربعة ممكنة مقدورة للرب

تعالى .... فالله سبحانه ينشىء من الاعراض أجساما ويجعلها مادة لها كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان » الحديث فهذه القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين ، وكذلك قوله في الحديث الآخر « إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل ، يذكرن بصاحبهن » رواه أحمد وكذلك قوله في حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التي يراها « فيقول من أنت فيقول : أنا عملك الصالح ، أنا عملك السيء » وهذا حقيقة لا خيال ولكن الله سبحانه أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة ، وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة الا نفس ايمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نورا يسعى بين أيديهم فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص ، فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل [1] .

أقول يستحسن هنا أن يرجع القارىء الى ما كنا كتبناه في الصفحة عند الكلام عن صفات الرب عز وجل ليتضح له المعنى المراد هنا من تصوير الاعمال الصالحة بصورة حسنة حتى ليقول له المؤمن من أنت ، فوالله اني لأراك امرأ الصدق فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة ، وكذا

---

(١) حادي الارواح ص ٢٩٠ .

الكافر يصور له عمله بصورة سيئة فيقول له من أنت فوالله اني لا راك امرأ السوء فيقول له : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار • فهذه امور غيبية من أمور الآخرة لا يسع المؤمن الا الايمان بها من غير تكييف ولا تمثيل ولاتشبيه ولا تعطيل فليس في الآخرة مما في الدنيا الا الاسماء واختلفت بالصفات •

فاذا رجع القارىء الى ما كتبناه هناك يدرك معنى تمثيل الايمان بنور يهدي المؤمن الى الجنة ، وهكذا تشبيه مجيء سورة البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان ، يتضح له أن هذه الامور حقيقية لا خيالية ، ولكنها من امور الآخرة التي لا ندركها حتى نلامسها ونعيشها فنحن نؤمن بوجودها بلا كيف ولا تمثيل ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (ثم ننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الاولى أفلا تذكرون)

وسنجتمع ان شاء الله هناك في دار كرامته ويقبل بعضنا على بعض ونتذاكر ما كنا فيه أيام الدنيا من خلافات نبتغي من ورائها اجلاء الحقيقة للاذهان ، ونشاهدها مشاهدة عيان كما روى ابن أبي الدنيا عن أنس يرفعه قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الأخوان بعضهما الى بعض فيسير سرير هذا الى سرير هذا ، أو سرير هذا الى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعا فيتكىء هذا ويتكىء هذا ، فيقول أحدهما لصاحبه تعلم

متى غفر اللـه لنا فيقول صاحبه نعم يوم كذا وكذا موضع كذا وكذا فدعونا اللـه فغفر لنا »واذا تذاكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الاحاديث اولى واحرى فان المذاكرة في الدنيا في ذلك الذ من الطعام والشراب ••• وتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة ، وهذه لذة يختص بها أهل العلم العاملون ويتميزون بها على من سواهم ، جعلنا اللـه سبحانه وتعالى منهم بمنه وكرمه •

من يستحق هذه البشارة دون غيره :

وختاما لحداء شيخ الاسلام للمؤمنين المستحقين بالفوز العظيم في دار الاقامة دار القرار ،دار السلامة والسعادة الكبرى نورد بعض البشائر التي بشر الله بها عباده المؤمنين مقتصرين على سرد الآيات بعد أن مر الكثير من شرحها ، قال تعالى :

١ ــ « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »

٢ ــ «الا إن أولياء اللـه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات اللـه ذلك هو الفوز العظيم »

٣ ـ « إن الذين قالوا ربنا اللـه ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» •

٤ ـ « فبشر عباد الـذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللـه وأولئك هم أولوا الالباب »

٥ ـ « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل اللـه بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند اللـه أولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ان اللـه عنده أجر عظيم »

٦ ـ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضـات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر اللـه عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات »

٧ ـ « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »

٨ ـ « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا »

٩ ــ « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللــه أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللــه من فضلــه ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خــوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من اللــه وفضل وأن اللــه لا يضيع أجر المؤمنين »

١٠ ــ « ان الله اشرى من المؤمنين أنفسهم وأموالهــم بأن لهم الجنــة يقاتلون في سبيل اللــه فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من اللــه فاستبشروا ببيعكم الــذي بايعتم به وذلك هو الفــوز العظيم »

١١ ــ « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشــر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للــه وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

١٢ ــ « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون باللــه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللــه بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهــار

ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من اللـه وفتح قريب وبشر المؤمنين »

ثم قال : ونختم الكتاب بما ابتدأنا به أولا وهو خاتمة أهل الجنة . قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهـم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للـه رب العالمين »

قال ابن جريج أخبرت ان قولهم سبحانـك اللهـم . قال : اذا مر بهم الطير فيشـتهونه ، قالوا : سـبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملـك بما اشتهوا فيسلم عليهم فـيردون عليه ، فذلك قوله تعالى وتحيتهم فيها سلام ، قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم . فذلك قوله تعالى : (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) .

الخـــــا تمـة :

وبعد ، فلئن أطلت في سردآراء الشيخ الامام ابن القيم ، ونقل كلامــه ، حتى ليكاد يكون اختزالا أو اختصاراً لما حرره يراعه في الباب ، فليس ذلك سهوا مني ولا عجزا ، فمـا اردت بالكتابة عنه تحليلا لآرائه ولا تصويرا لشـخصيته ، بل الذي أرمي اليه عرض آرائه بقلمه ، إذ اسلوبه الكتابي على غاية من الوضوح والبيان حتى في الامور التي تحتاج الى نقاش كلامي، وجدل منطقي ، وهذا مما امتاز به على كثيرين من علماء عصره وبهذا الاسلوب الهين العذب بسط آراء شيخه ابن تيميــة ، إذ كان ابن تيمية ثائرا بطبعه على الامــراء والعلماء لانحرافهــم عن سير السلف وقلة اعتبارهم بما انصب على العالم الاسلامي من ويلات التتر والصليبيين ، تلك الويلات التي لا زلنا نعـاني من عقابيلها حتى يوم الناس هذا .

لقد توخيت عرض ارائه واسلوبه في الدعوة الـى الله،

والعودة بالناس لسيرة السلف الصالح في الاعتقادات والعبادات والمعاملات ، وهدايتهم من نور سيرة الصالحين . فالعالم الاسلامي آنـذاك كان يعيش في ليـل من الهموم دامس ، وظلمة مـن ظلام الظالمين حالكة ، رغم وجود بعض العلماء والاعلام ، كالامام النووي ، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وتلميـذه ابن دقيق العيد ، وابن هشام ، وابن مالك وغيرهم من الجهابذة في شتى علوم الاسلام ، فهؤلاء كانوا يعيشون في بروجهم العاجية في نطاق اختصاص كل فرد منهم ، فهؤلاء كأن الله هيأهم في ذلك العصر ليحفظوا على الامة الاسلامية تراثها من العلوم والفنون والمعارف ، فكانوا همزة وصل بين الماضي والحاضر وساروا على منهج أئمة المسلمين في الفقه كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم واصحاب السنن وأئمة التفسير كالقرطبي وأبي حيان .

فمن عاصر ابن القيم من جهابذة العلماء لم يكن تأثيرهم في المجتمع مجديا بقدر ما افادوا الامة بما خلفوه من تراث علمي عظيم ، فلم يعملوا على النهوض بالمجتمع الاسلامي من كبوته لاقتصار كل امام منهم على فنه الذي افنى عمره في تقصي مسائله وشرح غوامض مشكله .

وكان الى جانب هؤلاء الاعلام ــ في الطرف الاخر ــ ،

علماء الرسوم ـ علماء السوء ـ أرباب الوظائف من افتاء وقضاء وتدريس ، فهؤلاء يحابون العوام ويسايرونهم،ويتزلفون للحكام من دنياهم للدنيا باسم الدين ، يعيشون على شفى هاوية جهالة الأمة ، كقادة وسادة ، تتلمذوا على كبار الشيوخ فحصلوا على شذرات من العلوم تخولهم ان تسند اليهم الوظائف ؛ من قضاء وفتوى ، فتسلطوا على دهماء العوام فلبسوا العمائم المكورة والقفاطين الواسعة من الخز والديباج وانهمكوا في جمع الفضة والذهب الوهاج .

ففي ظلمة ذلك العهد سطع نور شيخ الاسلام ابن تيمية ، ومن بعده تلميذه ابن القيم ، فتصدى ابن تيمية لتنبيه العلماء للقيام بواجبهم تجاه ملتهم وأمتهم بعصبية لا تعرف للهوادة معنى ، لأنه كان ثائرا بطبعه ، ناضل وجاهد بسيفه وقلمه طوال حياته ، يقينا منه بأنه إذا صلح العلماء أجبروا الامراء على الاصلاح فتصلح معهما الامة بكاملها .

يظهر هذا جلياً من رده ونقضه لآراء فطاحل العلماء . وكان في جميع ردوده تتجلى فيه شخصية العالم المستقل . وهذا ما حدا ببعض علماء السوء للسعي لدى الامراء (الاعاجم) للنيل منه . وتصويره خطراً يهدد سلطانهم حتى حبس مراراً ، وحبس معه تلميذه ابن القيم بسبب مناصرته للحق الذي كان يتجلى في كلام شيخه وآرائه .

أما الامام ابن القيم رأى أن هذا السبيل لا يمكن سلوكه إلا بمصباح التهذيب الروحي للامة ونشر العلم ، لدى الجمهور فسلك سبيل الارشاد والاصلاح بهوادة ولين ، متوخياً اصلاح جمهور الامة أولا ، لأن الجمهور أسلس قياداً وألين انقياداً لمن يعرف كيف يخاطبهم ، ويضرب على الوتر الحساس لمصالحهم ، سواء أكانت دينية أو دنيوية تلك المصالح ، لهذا نرى اسلوبه الكتابي ينحو فيه نحواً أدبياً روحياً بعبارة سهلة خالية ، من تعقيدات الاصطلاحات العلمية ، وقوانين المناطقة والمتكلمين ، وحذلقة المتفيهقين ، حتى في ردوده على الفرق المنحرفة (أهل الكلام) يظهر هذا جلياً من اختياره لعناوين كتبه ، كاعلام الموقعين • والطرق الحكمية . وزاد المعاد . ومفتاح دار السعادة واجتماع الجيوش الاسلامية • الخ

فهو يخاطب القلوب أولا ليسهل على العقول الاحاطة بما ما يريد يستثنى من ذلك ما كان خاصا بالرد على الفرق الضالة • من جهمية وقدرية ومعتزلة • فهو في هذا لا يخرج عن منهج شيخه ابن تيمية في الشدة على أهل الزيغ والضلال •

وخلاصة القول : إن الكتابة عن هذا الامام العظيم واستعراض آرائه وتحليلها لا يتسع لها هذا الكتاب الذي وضع خصيصاً لجمهور القرّاء فالامام ابن القيم استوعب من العلوم

ما تفرق عند كثير من الأئمة ، فهو فقيه ، أصولي ، مجتهد ، مفسر ، متكلم نحوي ، محدث ، مشارك في غير ذلك [١] .

وقال ابن رجب : تفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه ، وتفنن في علوم الاسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، واليه فيه المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية وله فيها اليد الطولى ،.. وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم . له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى [١] .

فهذه النواحي المتعددة من شخصيته التي تظهر من خلال كل فن ألف فيه لا يمكن الاحاطة فيها في مثل هذا الكتاب ، الخاص بجمهور القرّاء .

فالغاية التي أرمي اليها من الكتابة عن ابن القيم ابراز شخصيته كأديب ومرشد ومصلح اجتماعي مجدد ، أما النواحي الاخرى من شخصيته فلا تزال مبهمة غامضة تنتظر من يجلوها سواء أكان بهذا الاسلوب الذي ارتضيته لنفسي ، أم بأسلوب تحليلي ، أو مقارن ، فلكل كاتب منهجه الخاص وأرجو أن أكون بذلك أرضيت روحه الذي قدمت كتابي اليه .

---

(١) ابن رجب ج ٢ ص ٤٤٨ .

وختاماً أرفع خالص شكري وتقديري لأخي ووليي في الله سيادة القاضي الاستاذ سعدي أبو جيب ، الذي تفضل مشكوراً بالاطلاع على الكتاب ولفت نظري لبعض الامور التي قد يكون شت فيها الفكر وانساب فيها القلم فأسهبت في بعض المواضيع ، وأكثرت النقل من كتب الامام ، وكان يرى اختصار النقل وكثرة التحليل وهذا في رأيه الصواب (وأعترف بذلك [1]) لو لا أني ذكرت في مقدمتي منهجي والغاية التي أرمي اليها مع العلم ان ما ذكر في المنهج لم تتح لي الفرصة ولم يتسع الوقت لتحقيقه ، وإني لأرجو أن يوفقني الله تعالى للكتابة عن بقية ما ورد في المقدمة في كتاب آخر (ملحق) .

هذا وقد ذكر الاستاذ الكريم في المقدمة التي قدم بها الكتاب ما ينبغي أن يكتب عن هذا الامام العظيم ، فعسى أن يلهم الله المحبين للخير والاصلاح ، أن يكتبوا عنه في النواحي التي برز فيها من فقه ، وحديث ، وتفسير ، وتصوف ، و (توحيد) وهذا مهم جداً وبهذا تتجلى شخصيته بأبرز معانيها ، فهو فقيه ومحدث ومفسر ومتصوف وموحد من نمط آخر غير ما عرف عن الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ويظهر آنذاك أن ابن القيم علم الاعلام لا من أعلام الاسلام فحسب والله ولي التوفيق .

---

(١) لمن أراد أن يكتب عنه فقيها أو مفسرا أو محدثا أو متكلما .

الفهرس

٥ تقديم القاضي سعدي ابو جيب

١٩ المقدمة

الباب الاول

٣٣ **عصر الامام ابن القيم**

٣٧ استرداد بيت المقدس بهمة صلاح الدين

٤٠ خروج الصليبيين من بيت المقدس

٤٦ نتائج الحروب الصليبية لدى المسلمين والصليبيين

٤٧ غزو التتار للبلاد الاسلامية

٥٠ تنصيب خليفة في القاهرة

٦٤ اثر هذه الحروب في نفوس المماليك ومواقف العلماء في إعادة النهضة

٧١ انتصار العلماء على الامراء وتزلف الامراء الى الشعب والعلماء

٧٤ موقف امراء المماليك من العلم والعلماء ومساهمة العلماء في إعادة النهضة

٧٧ دور التعليم

٨٥ المؤلفات
٩٢ التخصص في العلوم
٩٢ الحفاظ

الباب الثاني

٩٧ **مولد ابن القيم ونشأته وحياته**
١٠١ كيف كان تلقي العلم في زمن ابن القيم
١٠٢ شيوخه
١٠٣ تلاميذه واقوال العلماء فيه
١٠٦ محنته
١٠٩ ثقافته
١١١ مؤلفاته في العلوم الاسلامية
١٢٣ اقتباسه من غرر الشعر
١٢٤ اقتباسه من القرآن والحديث الشريف
١٢٦ معرفته اللغوية والبيانية
١٣٢ الفرق بين شخصيته وشخصية ابن تيمية
١٣٧ اعتداده برأي شيخه دون تعصب

الباب الثالث

١٤١ **أدب الامام ابن القيم**

١٤٣ الكلام عن روضة المحبين
١٤٧ مقارنة روضة المحبين بطوق الحمامة لابن حزم
١٨٦ استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله
٢٠٣ تعليق الاستاذ احمد عبيد على روضة المحبين
٢١٦ العفة والهوى العذري
٢٢٤ عقاب مرتكبي الحرام
٢٢٦ الشفاعة للمحبين
٢٣٤ الغاية من تأليف روضة المحبين
٢٤٢ الجزاء من جنس العمل
٢٥٣ ذم الهوى
٢٥٦ كيفية التخلص من الهوى
٢٦٠ مالمتاز به كتاب روضة المحبين عن طوق الحمامة

الباب الرابع

جوانب من شخصية الامام من خلال بعض كتبه

٢٦٥ ابن القيم وكتابه الروح
٢٧٦ راي ابن القيم في الروح
٣٠٢ ابن القيم بين شكره وصبره
٣٠٩ أقسام الصبر باعتبار متعلقه
٣١٤ تنازع الناس في الافضل من الصبر والشكر

٣٣٧ مع الامام ابن القيم في كتابه حادي الارواح الى بلاد الأفراح
٣٥٩ ابتداء المسير الى دار الافراح
٣٧٢ معرفة اهل الجنة لمنازلهم
٣٧٨ وصف مافي الجنة من النعيم
٤١٠ الخاتمـــة

